

الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الرسالة الخالدة

تأليف

الأستاذ عبد الرحمن عزام



سجدة
التعريف بالإسلام

بمكتبه
التعريف بالإسلام
يصادرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة
مكتبة
الدكتور القطب محمد القطب طلبة
قيود محمد قطب وسارع محمد قطب
المعادي

٥٤١

٩ من أغسطس ١٩٧٢

الرسالة الخالدة

تأليف

الأستاذ عبد الرحمن عزام

الكتاب السادس عشر

١٣٨٤ - ١٩٦٤

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى
لحمل رسالته وأداء أمانته .

ان هذا الكتاب وليد المصادفة ، فلم يكن تأليفه مقصودا ، وانما دعا
الى تناول موضوعاته حالة الشذوذ والاضطراب التى سادت العالم أثناء
الحرب الأخيرة ، والرغبة فى الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمى ،
ومحاولة ايجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور فى هدى
الدعاوى والمبادئ السارية فى هذا القرن ، والتى أوحى بها المدنية المادية
الحديثة .

فكلما قلنا رأى فى هذه الدعوى ، وسائرنا تنفيذها الواقعى فى أوروبا
 وأمريكا ، ازداد الشك فى نفوسنا ، وظهر عجز هذه الدعوى عن حل
المعضلة وعن وفائها بحاجة الناس وتوالى الحروب المدمرة ، وتذبذب
الأقوام بين هذه الدعوى أكبر شاهد على ذلك . فلا بد اذن : من النظر بجدة
لالتماس الهدى فى غيرها . فهل هو فى الرسالة الخالدة التى تعاقب رسل
الله على الدعوة اليها وجاء بها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ؟ ذلك
ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه .

واذا نظرنا فى الأديان السماوية جميعها نجدها تعبر عن حقيقة واحدة
مهما تباينت الأشكال والأوضاع ، أساسها الايمان والاحسان . وهذا
المعنى واضح فى القرآن الكريم فى الآيات التالية وأمثالها :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. »

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرت أتباع هذه الرسالة الخالدة مسلمين ، سواء أ جاءوا بعد محمد أم قبله ، والآية الثالثة جمعت الناس في رحمة الله على أساس الايمان والعمل الصالح . فرسالة الله اذن في نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها الرسل والأقوام .

والشريعة المحمدية بوصفها نظاما عالميا هي آخر تطور لهذه الرسالة ، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لايجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوءها ، وهو أيضا محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية في السياسة والاجتماع والحرب والسلم والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد ، وبيان حاجة الحضارة الى سند من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجهها للخير العام ويحد من حوافز السيطرة والأثرة والظهور . والعرض الواضح في بعض النواحي لوجهة النظر الاسلامية انما قصد به الى التعاون والقربى لا التنابد والتفرقة ، وأن يجد النشء الجديد — المتعطش الى المعرفة والطالب للهدى ، من المسلمين وغير المسلمين — مادة للتفكير وسبيلا الى رأى عالمى مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التى أثارت اضطرابا لا نظير له ، التبس فيه الحق بالباطل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وقد شرف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله ، واستكمل فيهم

رسالته الخالدة ، فحبلهم الأمانة ، وعليهم أن يكونوا المثل والقذوة في سعة الصدر والنصفة والعدل والاخاء وحب السلم .

واني لأرجو أن يكون الجيل الناشئ من العرب أهلاً لحمل هذه الرسالة ، يمدون الحضارة والعلم بالسند الروحي الذي لا بد منه لعالم جديد متضامن متعاون على تسمير خيرات الأرض ، مستظل بلواء الحق والعدل ، نافر من استخدام القوة ، متجه نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه .

عبد الرحمن عزام

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في مقدمة الطبعة الأولى ما فيه الكفاية من التعريف بمقاصد هذا الكتاب .

وقد تلقاه الناس في البلاد العربية والبلاد الاسلامية بصفة خاصة بقبول حسن فترجمته حكومة الجمهورية الاندونيسية ونشرته في البلاد المتكلمة بلغة الملايو ، كما ترجمته ونشرته رئاسة الشؤون الدينية في حكومة الجمهورية التركية الى اللغة التركية ، ووضع المغفور له شيخ الاسلام حمدي أقسكى مقدمة مسهبة نفيسة للطبعة التركية عرض فيها موضوعات الكتاب ، ذكر فيها فضل الرسالة الخالدة على ما قرأ لأكابر علماء المسلمين ومفكريهم في عرض صورة واضحة للاسلام في العصور الحديثة . كما أن جهات أخرى اشتغلت بترجمته للفرسية والأردية والانجليزية في ايران وباكستان وأمريكا ومصر .

كما اهتم بقراءته كثير من أهل العلم والأمراء والرؤساء وملوك المسلمين وبعثوا بكلمات طيبة مشجعة . وكان نقاد الكتاب حسنى الظن به فلم يتعرضوا لأمر جوهرى مما ورد فيه فجاء قدهم أغلبه ثناء ورضا بما جاء فيه من مبادئ وصور للاسلام .

وقد اتفطنا بهذا النقد وأخذنا به في هذه الطبعة .

ولقد ظهرت بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب دول اسلامية كبيرة استقلت بشؤونها ، كما تحررت أخرى من النفوذ والسيطرة الأجنبية ،

فتحركت الآمال فى العالم الاسلامى لاهياء الشريعة ووضع دساتير للدول
الاسلامية مستمدة من عقائد شعوبها التى تعد الآن بمئات الملايين .

لهذا شعرت بحاجة الجميع الى رأى فى هذه الأمور ، كى تكون
الدساتير المتعددة لحاجات أقوام مختلفة موافقة لأسس الشريعة ،
فاستقصيت البحث فى الفقه والتاريخ الاسلامى ، واستخلصت من ذلك
فصلا موجزا (فى الامامة ، والشورى والسيادة) ، أضفته لهذا الكتاب ،
أرجو الله أن يعين على الهدى فى هذه الشؤون .

ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى ثمرة الرسالات كلها
وهدى للبشرية على مدى الدهر فقد دلت رغم الحوادث الكثيرة والتقلبات
المتتابعة فى عالمنا الحاضر على أن ماجاء (بالرسالة الخالدة) لا يتغير بهذه
الحوادث ، لأن الحق فيه حق على مدى الدهر وفى كل الأقوام والبلاد ،
فان هدى الله هو الهدى وان فى الاسلام المثل العليا التى لا تغنى عنها
آراء الناس وما يحدثون من مذاهب من حين لحين ، فمذهب المسلمين
وطريقتهم للعمران والسلم والاخاء والعيش الكريم لا تزال المذهب الوسط
الذى يصلح لكل العصور والأقوام (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

عبد الرحمن عزام

(١)

في أصول الدعوة

تمهيد

منذ أكثر من عشر سنين دعيتى محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية تاريخ يتصل
للتحدث على موجاتها ، وتركت لى اختيار الموضوع ، فاخترت الحديث
عن أبطال العرب .

ولما نظرت فى أمر العرب قديما وحديثا ، وجدت أن بطل أبطالهم ،
بل بطل العالم أجمع هو (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم ، فابتدأت
الحديث به ، فجاء الفيض بالسيرة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته
العظمى ، ولم أستطع العدول عنه الى من سبق أو من لحق ، فاستمر
الحديث فيها يتتابع حتى خرجت من مصر سفيرا لها الى كثير من أقطار
المسلمين (١) ، وانقطع ما بينى وبين الاذاعة ، ولم أكن قد تناولت الا بعض
نواح لبطل الأبطال .

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المدياع فى صفات الرسول
الكريم جدير بالجمع والنشر ، فجمعه وطبعه فى كتاب سمي (بطل الأبطال
أو أبرز صفات النبي محمد) .

ثم مضت أعوام عدت بعدها الى مصر ، وعادت هيئة الاذاعة المصرية
فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثى بها ، فلم أجد أحب الى
نفسى من أن أرجع الى أبطال العرب ، وأن يكون جامع فضائلهم بل
فضائل الانسانية كلها موضوع الكلام مرة أخرى . وكانت العناية هذه
المررة بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها وما يستطيع تقديمه لعلاج
مشكلات العالم على هداها ، ففاض الحديث واتسع له الوقت حتى أربى
على ثلاثين محاضرة رأيت أن أجعلها أساسا لهذا الكتاب الذى أرجو أن
ينفع الله به فى فهم (الرسالة الخالدة) لمحمد بن عبد الله فى عصر الظمأ
الروحي ، والاضطراب السياسى ، والمادية القاسية .

(١) عينت وزيرا مفوضا سنة ١٩٣٦ فى ايران والعراق والمملكة العربية السعودية
وأفغانستان ثم نقلت فى سنة ١٩٣٩ الى تركيا وبلغاريا .

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها : في زمن الناس فيه أحوج ما يكونون الى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمرتهم الحروب والآلام .

فاذا كان هذا الكتاب شعاعا من قبس هذا الحق ينطلق في دياجى هذا الليل البهيم الذى غمر البشرية ، واذا كان بسط مبادئ هذه الدعوة يهدى الى طريق وسط مستقيم بين هذه المسالك الوعرة المضللة التى تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة .. فانى أرجو أن يكون ما بدا فى هذا البحث من فضل الله وفيض رسوله معينا على تبسيط مبادئ هذه الدعوة وبيانها بكيفية ترضى أهل رأى وتير طريق العامة .

شهادة الزمان
والتجربة

وانى على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لشاهد بالتجربة والنظر ! وقد عشت بين الفقراء والأغنياء ، محروم الجاه ومتمتعاً به ، وخالطت الخاصة والعامة فى المشرق والمغرب ، وشاهدت آثار دعوات مختلفة ، ونظرت فى كتب أقوام كثيرة ، فلم أر بناء أقوى على الدهر ، ولا أرحب لجمع البشرية من ذلك البناء الذى بناه محمد صلى الله عليه وسلم ! حاولت أن تنال منه العرب والعجم ، واشتط به المتفقهون والمؤرخون والرواة وأهل رأى ، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة ، وتآلب عليه الجاحدون والمكابرون وشوهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرناً ، فلم يستطيعوا أن يغيروا وعد الله « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ففضى أمرهم جميعاً وبقي أمر الكتاب قائماً ، ولا يزال ذلك البناء على مر الأعاصير سليماً متيناً رجباً ، من نزله كان آمناً .

هذه الرسالة الخالدة ان كانت من الله ، كما نعتقد نحن المسلمين ، فيكفى أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله . وان كانت من (محمد) كما يقول المنكرون لنبوته ، فنحن على بينة من أمرنا ، ندعو الى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة . ندعو المنكرين لينظروا فيها لا بوصفها ديناً بل بوصفها نظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع فى السياسة والاجتماع والاقتصاد . فسيجدونها ، بصرف النظر عن معنى الدين ، أسساً صالحة

حق من السماء
أو من الارض

لنظام عالمى وسط بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى
تطاحن عليها الناس الآن ، وسيجدونها ، حتى على أنها من البشر ، أصلح
الدعوات وأرشدتها وأدناها الى مبادئ العدل والحرية والمساواة والاخاء
وسيجدون طرائقها كمبادئها وسطا سهلا يلتقى الناس على قبولها بفطرتهم
فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع ، ويعم السلام بين الأمم ، وبين
الطبقات فى الأمم .

فما هى دعائم هذه الرسالة ؟

وما هو هداها فى الاصلاح والتكافل الاجتماعى ؟

وما هى سياستها فى العلاقات الدولية ؟

وما هى نظرتها لأسباب الاضطراب العالمى ؟

وما هى وسائلها فى البحث عن سند روحى للحضارة ؟

وما هو النظام العالمى الجديد الذى يوافق روحها ؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقا وغربا قديما وحديثا ؟

ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى فى أبواب هذا الكتاب وفصوله ،
ونسأله عز وجل التوفيق الى الهدى والرشاد .

الدعامتان

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين ، ينهض عليهما بناؤها ، وتتفرع
منهما فروعها ، ويصدر عنهما معتقها ، هما :

الايمان ، والاحسان .

لقله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين
من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون » . (سورة البقرة ٦٢)

وقوله : « بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (سورة البقرة ١١٢)

وقوله : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ! » .
(سورة النساء ١٢٥)

ففى هاته الآيات وأمثالها تحديد وجهة الاسلام ، وتلخيص الدعوة
المحمدية : عقائدها وعباداتها وشرائعها

وفىها سر بساطتها وقوتها ورحابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأى
والعامة من البشر .

الإيمان بالله الواحد

أصل الأصول - الدين فطري - البحث عن الله - قصة
الله زنجي - التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية -
هو السبيل للوحدة العالمية

الإيمان بالله باري الكون وحده لا شريك له ، هو أصل الأصول في
الأديان السماوية ، فهو أصل الرسالة المحمدية .

هو النبي الذي أفاضه الله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام
بإلهي وحقائق الخير والسلام .

هو الصدى العميق لذلك الهاتف الذي ناداه من السماء والأرض :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم .
الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ! قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ فَكْبَرُ . وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ
فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ »

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب
ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك
لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في
الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور »

خرج (محمد) على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان وحده فأنكروها
وأرادوه على العدول عنها وظنوا به الظنون ، فقالوا : ساحر وشاعر
ومجنون وكذاب ، وساموه على ترك دعوته بالمال والملك والجاه ،
وقاوموه واضطهدوه وآذوه ، فما كان قوله لهم إلا أن قال : « والله
لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر
ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فلم يعدل بذلك الإيمان الذي
اطمأنت إليه نفسه وأمره به ربه ، ولا بالدعوة إليه ، ملك الليل والنهار
وما فيهما ! وكان همه أن يلتقي الناس على عبادة الخالق القدير الذي
تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل .

والناس من أقدم العصور حيارى يجدون فى أنفسهم الهاما بالفطرة الى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون منها العون ويستقبلون منها الخير والشر ، فيدعونها خوفا وطمعا ، ويتملقونها بالقرابين والعبادات ويجدون فى الايمان بهذه القوة التى اختلفوا فى تكييفها سندا وملادا من رهبة القوى المادية فى الكون ، وسلوى وعزاء عن ما هم فيه من قسوة الحياة وآلامها .

شعور فطرى قوى فى نفوس البشر يدفعهم الى عبادة القوة . وليس أبدع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله فى قصة اهتداء ابراهيم عليه السلام الى الله كما وردت فى سورة الأنعام .

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ! فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى ! فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين » .

هكذا تدرج عقل ابراهيم فى الاهتداء الى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة فى النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يرض فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعددتها وخضوعها لسلطان الظلام ، فعدل عنها ، والتمس عقله الطريق الى قوة مختارة دائمة غير محدودة ، هى قوة الله الذى فطر السموات والأرض وقهرها . ثم اتصل بعقله وحى الله وهداه .

وقد عبد الناس قوى كثيرة ، اما عبادة أصيلة ، واما لاتخاذ عبادتها زلفى وتقربا الى تلك القوة العظمى القاهرة التى يدركونها بفطرتهم .

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد ، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مثل لها

أو مظهر من مظاهرها . بل عبد بعض الناس بعضا ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية ، ثم قتلوا من عبدوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنوها فيه .

ومن أعجب ما شاهدت من عبادة الانسان للانسان ، أننى جالست قبل ثلاثة وعشرين (١) عاما الها من آلهة الزوج في جبال النوبة بأقصى الجنوب من كردفان . فكنا على الأرض تنفياً ظلالة ورافة لشجرة من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة ، وجمع من الشعب رجالا ونساء عرايا يرقصون ويضطربون في حضرة الاله ويسمون « الكجور » . وهذا الكجور سواء أكان هو الاله أم رمزه ، هو عرفا : المعبود الذى يرفع اليه الدعاء وتقدم له القرابين ، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية ، له كل تقديس ، فهم يطعمونه ويهبونه ويتزلفون اليه مقابل أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمتهم وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب ، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض .

ولم أستطع أن أتبين ان كان في نظرهم الها كاملا أو كأصنام الجاهلية ، يعبدونه زلفى لمن هو أعظم في نظرهم .

جاءت زوجة « الكجور » ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجوارى ومدت ساقها فأرتنى آثار ضرب بها . فقال المترجم : ان بعض العامة ضربوها ، وهى تشكو اليك ظانة أنك الحكومة . فقلت : كيف وهى زوج « الكجور » وهو الههم المتصف بالقدرة عندهم ؟ ! فقال : ان القداسة لا تشمل الأسرة ، وحقوقه شخصية فقط ، وأهله مثل جميع الناس .

فقلت لصاحبي : ان هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال في الديمقراطية والمساواة .

ومن عجيب أمر القوم ، أن للكجور حقوقا يقابلها واجبات ، فإذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه .

(١) سنة ١٩٢١ في جبال النوبة من جنوب كردفان .

فمثلا اذا أجذبت الأرض وهلك الزرع سألوه المطر ، فان أبى وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء ، فان مرت السنة وأجذب ما بعدها ولم يستطيعوا أن يقنعوا « كجورهم » ليأمر المطر برحمتهم ، فانهم قد ينتظرونه مواسم أخرى ثم يقتلونه أو يرحمونه ويقيمون غيره ممن يعرفون فيه بالميراث والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق فيحلونه محله .

وأعجب ما في نوادرهم ما روى لى أنهم شكوا أحد الآلهة مرة الى الحكومة لامتناعه عن الاتيان بالمطر ، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى أمر بحبسه ، واستمروا هم ينتظرون أياما فاذا بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة . وما ان انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرة . فهم لا يشكون في قدرته ولا يظنون به العجز ، وانما يظنون به القصد السيء .



ذلك مثل من فكر البشر في سذاجته . وفكر البشر حتى في حضارته أحيانا لا يكون أعلى كثيرا . فقد عبد العجل والقط والصنم والنار وبعض البشر وغير ذلك .

وكانت الدعوة المحمدية الى الوحدةانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم ما يظهر الآن من بدايتها واستقامتها ، وكانت الحاجة شديدة لداعى التوحيد ليسمو بالعقل الانساني الى النظر في الكون والمخلوقات والتوجه الى خالقها جميعا لاستمداد العون واستلهام الرشد .

التوحيد أعظم
أسس الدعوة
المحمدية

واذا تقصينا سيرة الرسول في مكة ، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة ، رأينا (محمدا) قد وقف قلبه وجهده ، ووهب حياته وحياة أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى واظهارها . وقد خاصم أعداءه وهادنهم ، ونفر ورضى ، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمة سواء : هي عبادة الله لا شريك له « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .



ولم يقبل في دعوته الى الوحدةانية من المشركين وعبدة الأوثان هوادة أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع ، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب يقول القرآن « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ، ويقول فى النصارى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » ، ويقول قولاً عاماً فى جدال الجميع « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

التسامح هو
السبيل الى
الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكتابية حدا لا يعرفه أهل هذه الملل حتى فى هذا العصر الذى انتشر فيه اللادينون ، ولا يقبل مثله كثيرون من المتدينين فى الملل الأخرى ، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم .

انظر الى هذه الآية الكريمة « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الايمان بالله لا شريك له . وفى سبيل التوحيد تسهل كل العقبات ، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها ، حتى الأديان لقوله تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

فرسول الله فى دعوته الى الايمان بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مبتدع بل قال انه مكمل للشرائع السابقة ومعيد للحنيفية الفطرية التى هى دين ابراهيم بل دين نوح وآدم ، وانه لا تبديل لذلك الدين القيم الذى يستند الى وحدة الله ، ويترتب عليه وحدة خلقه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم . وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . « فلما أحس

دين واحد
لأمة واحدة

عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .

ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب الا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك ؛ ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم ولم يصالح أو يهادن أحدا على حساب دعوته هذه ، لأنها أساس رسالته وغايتها ، بل غاية الوجود « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » ، « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

وهذا التوحيد الذي دعا اليه فضلا عن سموه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما يظهر من الفصل التالي .

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين - هو أساس الانتساب والاعتبار
الشخصي - الاشراك سبب لهدار شخصية المشرک -
الشرك طارئ على الفطرة - الشرك باءث الظلم
والاستبداد - التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة
- وكر الخرافات والباطيل - عقائد التوحيد وآثارها
في تركية النفس - آثارها في حرية الفكر وسيادة العقل
وسمو الحضارة - لا احتجاج بالواقع السيء

بيننا أن الايمان بالله وحده لا شريك له هو الهدف الأسمى للدعوة
المحمدية . والله سبحانه قد سمى المؤمن به وحده مسلما « فلما أحس عيسى
منهم الكفر قال من أنصاري الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله
آمنّا بالله واشهد بأنا مسلمون » .
واذا تصفحنا آي الذكر الحكيم نجد الدعوة الى التوحيد والتنزيه
لا تخلو منها سورة ، بل تكاد لا تخلو منها صفحة واحدة من الكتاب
نصريحا أو تلميحا .

التوحيد روح
الدين

وحكمة ذلك واضحة ؛ اذ الايمان بالله وحده يتفرع منه كل ما في
الدعوة من صلاح واصلاح ، وهو الرباط الذي يجمع شتاتها ويوثق بين
أجزائها ، بل هو فيها بمقام الروح للجسد ، يتحلل ويبلل ويندثر بفراقها .
والشرائع من غير ايمان كالقوانين الوضعية : تسقط بسقوط القائمين عليها
ويذهب أثرها بذهاب الظروف التي أحدثتها .

هو أساس الانتساب
والاعتبار الشخصي

لذلك كان الايمان بالله لا شريك له هو الحد الفاصل بين الناس ،
وليست العناصر والأجناس حدودا بينهم ، ليس الانتساب الى الدين
الاسلامي نفسه وعدم الانتساب اليه حدا ، اذ بينما هذا الدين يرعى
كنيسة المسيحيين وبيعة اليهود اذا دخلت في ذمته ، ويأمر المسلمين بالقتال
لاحترام حرية عقائد المعاهدين من أهل الملل الكتابية « ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيرا » ، وبينما هو يكتفى ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب
بضريبة قليلة على القادرين من الذكور مقابل حماية نفوسهم وأموالهم

وأعراضهم ودينهم وعرفهم ، ضريبة هي رمز لعهدهم ، يستعين بها المجاهدون على الرباط في الثغور ، ويأمن المعاهدون بها على ديارهم وعقيدتهم . وقد ردها خالد بن الوليد (١) ، رضى الله عنه ، الى نصارى حمص حين أجلاه الروم عنها ، وقال ما معناه : انما أخذناها لحمايتكم وقد عجزنا عنها . تقول بينما الاسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس ، اذا به يفرق بينهم وبين المشركين ويعاملهم معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم ولو أنه يفى لهم أيضا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقا أو تدفع الى ظلم ، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلاح الحديبية كما سيأتى . اذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصلاح البشرية . حتى يكون الدين كله لله .

الشرك سبب لاهدار
كرامة المشرك

ومن ناحية أخرى نجد الاسلام يدخل الكتاتبية في الأسرة المحمدية فيبيح مصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خؤولة للمسلمين ، وهو لا يقبل مثل هذا النسب مع المشركين ، ويأبى أن يعترف لهم بهذه المنزلة « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » . بل يصل الأمر أن يجعلهم نجاسة « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

كل هذه الشدة مع الوثنيين والمشركين ليست تعصبا أعمى ولا افراطا في انعصية الاسلامية ، فلو كانت كذلك لساوت الدعوة في المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعا ، وقد لقي الاسلام من العنت والأذى من أهل الكتاب كثيرا ، ولكن ذلك لم يخرج الدعوة عن التمييز بينهم وبين المشركين ذلك كله لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الانسانية وسبيل الاصلاح المنشود ، فمتى آمن العبد بأنه أثر للبارىء الأعظم ، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع والمصنوع من الصلة وكان بينه وبين المصنوعات جميعا ما بين الآثار المتعددة للمنشئ الواحد وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف ايمان بين الخلق والخالق رباطا لا ينقسم ، يستمر به العمران

أخوة عامة
في الله

(١) وعلى رواية مشهورة أن الذي ردها هو أمير الجيش أبو عبيدة عامر بن الجراح .

والاصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الاذعان لارادة واحدة ،
وكان بذلك وجودنا جميعا في هذا الكون متصل المبدأ متحد الغاية .
ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء .

فلو تصورنا الناس على ايمان كامل كهذا ، يؤدون ما عليهم وفق
هذا الايمان ، لأمكن أن تتصور أقدر المخلوقات على الفساد ، وهو
الانسان ، أصلحها ، اذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هاد الا من ايمانه ،
بل لأمكننا أن تتصور هذا العالم ولا حكم ولا حكومة فيه الا لوجدان
المؤمنين .

لذلك كان الايمان بالله لا شريك له الشغل الشاغل لصاحب الدعوة ،
وكان في الحقيقة سبب نجاحها واستقامتها .

فازالة الشرك يتبعها هدم مفاسده ، واقامة التوحيد يتبعها قيام
فضائله .



تقرر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده ،
ثم ضلوا ، فاذا عادوا لها استقاموا .

واذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشرك في الغالب نتيجة لبدع
أحدثها الناس فعددوا الآلهة ونوعوها ، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم
قواما على الآلهة وسدنة وحراسا ، بل وكلاء ونوابا ، واتخذوا سلطان
هذه الآلهة سلطانا لهم ، ثم تأمر ذوو الأغراض فتساندوا على تضليل
العامة ، وانتهوا بوضعهم في أسر مجموعة من الخرافات والسخافات ،
وكأن الكهنة وأضرابهم من القوام والوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار
الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرفون في المجموعات البشرية المأسورة .

فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر ، هو أن العبودية للصنم انقلبت
الى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم ، وقامت
عهود من الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين ، ولم يخل منها

ركن من أركان العالم من فجر التاريخ الى اليوم . ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال فإن الشرك والاستبداد حليفان متلازمان .

أما التوحيد فيتبعه الانصاف ويلزمه كالظل للشواخص ، لأن الاله الذى دعا اليه الأنبياء ومحمد صلى الله عليه وسلم منزّه عن الهوى والغرض ، لا يريد من خلقه رزقا ولا طعاما ، وليس له وكلاء ولا نواب ولا وسطاء . يقول : « ادعوني أستجب لكم » وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، هو الرحمن الرحيم ، هو الغنى القدير ، هو البارىء المصور هو العفو الغفور ، هو المعطى المانع ، هو الحكم العدل ، هو المنتقم الجبار ، هو المسيطر فوق عباده ، العزيز الحكيم .

كل هذه الصفات وما معها من تنزيه عن الشبيه والمثيل جعل الألوهية فى وضع يعلو بها عن الاستغلال السيئ ، وجعل الخلق تحتها متساوين فى حكمها ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأقربهم أبرهم بالعباد .

وكما أن الظلم والأثر ملازمان الشرك : كان الانصاف والعدل والمساواة ملازمة للتوحيد .

لذلك كانت غاية الدعوة المحمدية الايمان بالله وحده ، وهو عندها فوق كل شئ . ويقول القرآن الكريم : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

آثار التوحيد فى
تركيب النفس

والايمان الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب ، تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارف عليها ؛ لأن المؤمن يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد . ومتى وجد هذا الانسان فقد وجد الانسان الكامل .

فلو أن مجتمعا تكون من مثل هذا الانسان لقام على الرحمة والمحبة ، اذ من وصايا الاسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » « الراحمون يرحمهم الرحمن » « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » فهو اذن المجتمع السعيد .

وليس غريبا ما دعا اليه البعض في عهد الفتنة بين (على) و (معاوية) من الغاء الحكومة البشرية تماما اذ قالوا : « لا حكم الا لله » . ولو تحققت الحكومة الالهية : لكان ملكها الوجدان ، وقانونها : الانصاف ، وزاجرها انعرف العام .

لكن الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابقة لطباع الناس عولت في الاصلاح على الايمان والشرع الذى ينظم ما قصدت اليه من احسان وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون لينفذ ما شرعت ، فضمنت بذلك استقامة الأمور . وهيهات أن تصل البشرية الى حكومة الوجدان التى توحىها عقيدة التوحيد ! .



قلنا ان الايمان بالله يتبعه حتما تغلب جميع الفضائل فى نفس المؤمن . فهو لا يعيش لنفسه بل لآخوانه من مخلوقات الله جميعا ، ويكاد يمحى فى النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه ، وأول ما ينمو فيها هو الايثار والفداء والتضحية فى سبيل الخير العام .

فالمؤمن لا يكون ظالما ، لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهى العدل ، ولا يكون غليظا قاسيا ، وسيده هو الرحمن الرحيم . ولا يكون كاذبا ولا مخادعا ولا منافقا ، لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، ولا يكون ذليلا أو جبانا لأنه يعلم أن ذلك لا يفيد مادام الأمر بيد الله .

وهكذا اذا استرسلنا فى تعداد النقائص نجد أنه حيل بينها وبين الموحّد بحجاب الايمان ، ونجد الصفات السامية جميعا محببة الى النفس المؤمنة المطمئنة التى دخلت فى عباد الله ودخلت فى رحمته حين لبّت نداءه : « يأتيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

هذه النفس المطمئنة بالايمان تحيا فى سعادة لا يتذوقها الا الموحّدون . ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الايمان ويسأل الله الهدى ، أن

يتصور النفس المؤمنة تكون في الجنة فعلا في هذه الدنيا ، لأن السعادة الروحية التي تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع .

هذا الايمان بالله وحده ، الذي قلنا ان الفضائل تتبعه حتما ، وانه يطهر النفوس من الشر والرذيلة ، يسمو كذلك بالعقل البشرى ؛ فالوثنية والشرك يشغلان الذهن بالمحسوسات ويحصران في نطاق الأباطيل الصادرة عن دعوات السحرة والكهنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسمة أو على الآلهة المقسمة الموزعة السلطات والمتنافسة عليها ، فتطبع في أذهان الناس صورا مما هم فيه أو ما يهبطون اليه من الخرافات بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك ، فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل ، فالاله الذي دعا اليه الاسلام يجمع السلطان والفضائل ، وهو مع الناس أينما كانوا ، لا وسيط له ، ولا ينالونه بحس ، فلا بد لهم من التفكير فيه والاستدلال عليه بآثاره ، مما يدعو الى تعلق العقل بمصنوعاته .

التلازم بين
التوحيد وصلاح
الفكر والحياة

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادية في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله كما رددت آيات الكتاب الكريم الدعوة الى النظر والتعقل ، فاستهزأت بالمقلدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعة قارصة ، وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يحسنون استخدام ملكاتهم في النظر في الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وآثارها .

ومن العجيب أن الشرك الذي صرعه الدعوة المحمدية في جزيرة العرب في أيام الرسول وفي غيرها من بعده ، وترتب على هزيمته ظهور الفضائل التي أشرنا اليها ملازمة للايمان بالله لا شريك له ، لم يكن سهلا هينا كما يظن ، بل كان شرا مستظيرا وبلاء متأصلا .

يقول الله تعالى « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشيء عجاب ! وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق . »

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشرك قد أزالَت العقبة الأولى في
مسيل السمو بالنفس البشرية كما بينا ، ورفعت الحجر عن عقول
تجبرت ، فانطلقت للنظر والتبصر ، وبدأت آثار ذلك مسرعة ، حتى
كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها معجزة ، فقد اتفق العلماء
والباحثون على أن نجاح محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته مقطوع
النظير ؛ فلا يعرف في تاريخ البشر نجاح كالذي لقيه .

ومن المتفق عليه أيضا أن دعوته كانت غريبة منكرة في نظر القوم
مبتدعة غير ممهد لها ، قد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ماتفيض
به حوادث السنوات العشرين التي قضاها صلى الله عليه وسلم وهو يجهر
بها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها .

وكما كانت الدعوة الى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب
عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة .

فالأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء والنهب ، صاروا
الخشع الركع الذين يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه ، صارت الأسرة
المطهرة .

والقبيلة التي كانت لا تعرف حقا الا لعصيتها ، ولا ترعى ذمة الا لمن
هو منها ، صار فيها من يرد الى نصارى (حمص) أموالهم ، لأنه عجز
عن رعاية ذمتهم .

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون في
الحق لومة لائم .

ومن الجفافة القساة صار الخليفة الذي ترده امرأة في مجمع الخلق
فيقول « أصابت امرأة وأخطأ عمر ! » ويكتب الى أكبر ولاته الفاتحين
متهمًا « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! » لأن ابن
ذلك الوالى أساء الى مسيحي من قوم مغلوبين . وكان ذلك في مصر .

فاذا قال قائل : وما بال فساد الحال ضاربا أطنابه على الدنيا اليوم ،
والمؤمنون ملء الأرض ؟

قلنا ما قاله الله « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » وما قاله
الرسول « والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! قيل : من
يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » .

فهل أمن أحد من أهل الكتاب فى الغرب أو الشرق بوائق جاره ؟ وهل
أحب مسلم لأخيه ما يحب لنفسه ؟

ولا تزال الانسانية فى هذا البلاء ، وهذه الحروب ، وهذه الفرقة
بين الأمم ، وبين الطبقات فى الأمم حتى تملأ مبادئ عقيدة التوحيد قلوب
الناس .

الإحسان

رديف الإيمان - تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها -
اثر سريع لتطبيق نظم الإحسان - الرحمة والإخاء أساس
الإحسان - دفاع لابد منه عن الأتراك العثمانيين - أثرهم
في زوال عهد الاقطاع من المنداف والبولونيين - موقف
عظيم لشيخ الاسلام في عهد السلطان سليم - رحمة
الحيوان - وقائع وحكايات عن الرحمة

الآن ننتقل الى الدعامة الثانية للإسلام وهي الإحسان . والإحسان
في نظري هو العمل الصالح ، وقد جاء في الآيات رديف الإيمان بل يكاد
يلزمه في كل آية .

والشريعة الاسلامية كلها ما هي الا بيان بالأمر أو النهي أو الإباحة
للأمور التي بها يكون العمل صالحا . وهي فريدة بين الأديان في وضع
الأصول والفروع لهذا الإحسان ، ففي جميع علاقات الانسان بالله
ومخلوقات الله رسمت الشريعة بشيء من التفصيل قواعد الحياة وأساليبها
للمسلم ، وهذه القواعد منها ما يختص بالعلاقة بين العبد وربّه من صلاة
وصوم وحج مما يتبع الإيمان وما يقتضيه من عبادات .

وكل ما نحتاج أن نشير اليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه
العبادات مع تركيتها للنفس وتطهيرها للبدن ، مما يعود أثره على المسلم
في شخصه ، هي كذلك مجموعة نظم تعين على حسن العلاقات بين الفرد
والجماعة ، وتيسر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذي لا بد
منه للجماعة الصالحة ، بل تحض في كل لحظة على التعاون البشري الذي
هو أساس العمران .

وليس أدل على ذلك من الأثر الذي أحدثته هذه العبادات في نفوس
قوم من الأعراب وأضرابهم من الأمم المتبدية هم أبعد الناس عن الألفة
والتعاون ، وأدناهم للأناية والشر .

ففي بضع سنين أصبح الجفاة النافرون ، وقد عبدوا الله على الكيفية
التي سنّها صاحب الدعوة ، أهل نظام وتقوى ، يركعون ويسجدون لله

ويأتون برجل منهم ، ويؤدون ذلك باطراد في أوقات محددة ، فتعودوا النظام والطاعة والتكافل ، وأصبحوا اخوانا يسعى بذمتهم أدناهم .

وقد دهش فعلا أولاد عمومته الذين استمروا على الشرك حين التقوا بهم في « بدر » فأوهم لأول مرة في كتاب مرصوفة لا عهد للعرب بها . لا يتنادون بعصية مع أنهم من شتات العرب ، بل شتات الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسود ، رابطتهم في الله وأخوتهم في الانسانية .

فالعبادات على الكيفيات المختارة في الاسلام لها بلا شك ، غير الرابطة التي تقويها بين المخلوق والخالق ، آثار عدة في نفس الانسان وحياته وعلاقته بالناس ، ولذلك كله كانت عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بها عظيمة .

وفقهاء المسلمين حين علموا أن الاسلام بنى على خمسة أركان ، للعبادات ثلاثة منها ، قد أدركوا عظم هذه الأركان الثلاثة : الصلاة والصوم والحج في بناء الدين . وقد أفاضوا في فضل العبادات المختلفة ، بل في فضل كل صلاة وركعة ، مما لا حاجة معه لجديد ، ومما يعرفه كل مسلم ان لم يكن تفصيلا فاجمالا . ولكن أكثر المسلمين ، مع شديد الأسف ، لا يعرفون عن دينهم أكثر من ذلك فلماذا أظن أن العناية في هذه الأحاديث بالنواحي الأخرى للأحسان والعمل الصالح أجدر وأنفع .



كان الرجل يأتي من أقصى البادية فيجلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتلقى دعوته ، فيقوم من بين يديه وهو أعلم بها ممن درجوا اليوم في أحضان الاسلام ، ونشأوا في بيوت الدين ، وليس ذلك لميزات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وبركته وتأثير شخصيته فحسب ، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا يختلفون عن أبنائهم عرب اليوم ، وانما كانت الدعوة بسيطة مركزة في مبادئ عامة مفهومة للكافة ، سهلة تلقى اليهم ليعملوا بها وليسيروا على نهجها وينسجوا على منوالها ، لا ليتحدثوا عنها ثم

يشتغلوا بالقشور اذ « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، ورضوا بالظاهر
ففقدوا اللب والجوهر .

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تلقى الدعوة ونشرها :
يقول الله تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين
ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .

فالدعوة بسيطة ، أساسها الايمان والاحسان . وهذا الاحسان هو
العمل الصالح كما قلنا وهذا العمل الصالح هو مبادئ عامة وعبادات تلقن
كيفية في لحظات

الرحمة والاخاء
أساس الاحسان

أما المبادئ فأصلها جميعا في الرحمة والاخاء . والرحمة صفة الله وقد
كان المسلمون في أول عهد الدعوة يسمون الله (الرحمن) حتى قال العامة،
ان محمدا يعبد الها اسمه الرحمن . والمسلمون يستفتحون كل عمل وحركة
باسم الرحمن الرحيم ، ويحيى بعضهم بعضا بالسلام والرحمة فيقولون
« السلام عليكم ورحمة الله » .

وآيات الكتاب شاهدة على أنها أحب الصفات الى صاحب الدعوة
« محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » .

« واخفض جناحك للمؤمنين . وقل انى أنا النذير المبين » .

« وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

« فيما رحمة من الله لنت لهم » .

« عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة .

« الراحمون يرحمهم الرحمن » . « ارحموا من في الأرض يرحمكم
من في السماء » .

هذه الرحمة التي هي أصل من أصول التشريع في الدعوة المحمدية
« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » هي أساس العمران وما نزع من قلب
انسان الا صار خربا ، ولا من قوم الا كانوا وباء على الأرض والتاريخ

يحدثنا عن طغيان أقوام نزعت الرحمة من صدورهم ، فتركوا آثارا فظيعة من الخراب استمرت بعدهم قرونا .

فمثلا موجات المغول مع (جنكيز خان) ومن بعده لا تزال رغم مرور سبعة قرون بادية آثارها للعيان في أواسط آسيا وغربها ، وقد شهدتها بنفسى في الأفغان وايران والعراق ، وستبقى أجيالا كثيرة .

وجاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نزعت الرحمة من صدورهم فعاثوا في الأرض الفساد ، ولا تزال آثار الخراب الذى أحدثه بعض هؤلاء القساة من الأعراب مشهودة في شمال افريقية ، وقد شهدتها كذلك بنفسى بعد مرور مئات من السنين .

فالرحمة أساس العمران ، جاء بها موسى وعيسى ومحمد . بل هى رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعا . ولم يعظم شأن دولة من الدول الا والرحمة صفة من صفات القائمين عليها .

وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة ، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتا . وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق فالعثمانيون في أيام عزهم ورثوا الرحمة التى نزعها الله من قلوب العرب المتأخرين ، فورثوا الدولة ، وسادوهم كما سادوا الأوربيين .

دفاع لا بد منه
عن رحمة الأتراك
العثمانيين

وقد سمعت بنفسى حديث هذه الرحمة فى (سرايا) من رومانيا على نهر (الدنيستر) ، وقيل لى ان أمثلة الفلاحين فى هذه الأطراف النائبة للملك العثمانى لاتزال تعبر عن رحمة التركى وعدله . ومنها مايشير الى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض . وقد لفت نظرى فى بولونيا ورومانيا وفى بلاد البلقان فى رحلاتى المتعددة أمثلة وأساطير لاتزال تشير الى مااستقر فى نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركى المسلم كرحيم عادل .

أمثال شعبية
تشهد لهم

وفي سنة ١٩١٧ كنت في فينا فروى لى أن البولونيين مستبشرون وصول العساكر العثمانية الى جاليسيا مددا للنمساويين وقتئذ ، فسألت عن السبب ، فقليل لى ان عندهم نبوءة يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور دولتهم مرة أخرى هي أن تعود العساكر الاسلامية الى الظهور شمال الدانوب .

ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مددا لغاصبي بولندا ومقتسميها فانه لم يمض سنة على عبورها (الدانوب) حتى استقلت بولندا حقيقة مرة أخرى وعادت دولة موحدة .

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال في لغات الأمم البلقانية جعلتني أتوسع في قراءة التاريخ الاسلامى في البلقان ، وقد خرجت من قراءتي ومشاهداتي بأن العدل والرحمة الاسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا .

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غيوبتها وهمجيتها وقسوتها . وعرفت المساواة والانصاف . ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاما دوليا متعاهدا عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية الى أن قضى عليه العثمانيون .

وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من (البويار) الى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين .

اترهم في زوال عهد
الانقطاع من أرض
الملداف والبولونيين

جاء العثمانيون الى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددا من أية أمة من الأمم التي سادوها ، فوصلوا على رؤوسهم جميعا الى فينا ، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد ، كما مهدت للعرب قبلهم افريقية وآسيا .

موقف عظيم لشيخ
الاسلام في عهد
السلطان سليم

وكان للاتراك ملك عظيم ، هو السلطان سليم ، عرف بالقسوة وذبح كثيرا من آل بيته ، ويلقبه الاتراك أنفسهم بسليم القاسى ، فخطر له أن

يوحد دين الدولة ولغتها فأبى عليه شيخ الاسلام ، فامتنع حرمة لوصايا الاسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم . وذلك من أثر الرحمة التى أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه ، والتى هى ركن الاسلام المتين وصفة الله التى اذا نزع من الصدور دالت الدولة ، وعم الخراب حتى يستخلف الله أهل الرحمة .

انظروا الى العالم اليوم ، وقد نزع الرحمة من الصدور ، ألم ينقلب الانسان شرا من الوحش الضارى ، ألم يسبق المتحضرون فى القسوة جنكيز خان ؟ . أليست الغارات الجوية على المدنيين أسوأ ما بلغه الناس من التوحش ؟ . ثم أليست هذه مقدمات الخراب العام ؟ .

رحمة الحيوان
هذه الرحمة التى أرسل الله محمدا من أجلها ، ليست خاصة بالانسان، وليعلم القارىء مكائنها من الاسلام : نقص بعض أحكام الشريعة فى الرفق بالحيوان ، ليتبين مدى عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ببث الرحمة فى دعوته .

قال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى . فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له » . فقالوا يا رسول الله :

« وان لنا فى البهائم لأجرا ؟ » فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » .
وقال أيضا « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض »

وقد جاء الاسلام بالنهى عن كثير مما كان يأتیه العرب . وكان من عادة العربى أن يعذب الحيوان كشق أذان الدواب ، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها اذا مات لتموت معه ، وغير ذلك .

وحرمت الشريعة رمى الطير للتلهى ، وعبث الأولاد بالطيور والتحريش بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران ، وبعض الأمم بين الديوك

والكلاب ، ومنعت ائقال الحمل على الدابة ، وأوجبت حسن رعايتها وسقايتها والا فلقاضى نزعها من صاحبها .

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ فى البدو والمتوحشين ، فقد روى أن
عدى بن حاتم ، وقد ملك الاسلام قلبه ، كان يفت الخبز للنمل ، ويقول :
انهن جارات ولهن حق .

وروى عن الشيخ أبى اسحق الشيرازى أنه كان يمشى فى طريق يرافقه
بعض أصحابه ، فعرض له كلب ، فزجره رفيق الأستاذ ، فنهاه وقال : أما
علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه !..

وفى الحديث : «إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم»
وكتب الفقه تفيض بأحكام الرفق بالحيوان ، مما يشير الى مقدار
ماقصدت اليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله .

فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها ، بل هى المقصودة من
اقامة الدولة . وخير للناس أن يلهوا بغير صلاة وصوم وحج ، وخير لهم
أن يعيشوا بغير مساجد ويبيع وكنائس اذا نزع الرحمة من صدورهم
فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان الى خداع وظلم .

فاللهم انزل الرحمة فى الصدور حتى يصرف البلاء عن العالم

الإخاء

آية هي دستور الإخاء والمساواة - تصوير عجيب لوقع
البر لدى الله - آيات في تهديد ذوى القسوة والبخل -
- قدامى العرب وفهم الإخاء والمساواة - إخاء شامل
بين المسلمين وأهل الكتاب - بقايا الإخاء في العالم
الإسلامي - ذكرى أخوة في البانيا - الإخاء في العالم الإسلامي

نبسط الحديث في هذا الفصل عن الأساس الثاني للأحسان ، وهو
الإخاء الذي صار دعوة عالمية محبة لدى أهل هذا العصر جميعا .

كان المجتمع العربي قد قسمته العصبية القبلية والقسوة الفردية
وكان المجتمع الانساني قد سادته كذلك العصبية والجنسية والفخر
بالأنساب حين جهر الرسول بالدعوة الى الإخاء صادعا بنداء الله :

آية هي دستور
الإخاء البشري

يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد نادى بالإخاء قسيما وقرينا
للمرحمة ، وقرر أن بهما تقتحم العقبة ويسعد الناس ويدخلون الجنة
« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ! فك رقبة ، أو اطعام في يوم ذي
مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا
وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

وآيات الكتاب الكريم ، والأحاديث في الترغيب في الإخاء والرحمة
مستفيضة .

تصوير عجيب لوقع
البر لدى الله

وفي حديث قدسي : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا ابن
آدم مرضت فلم تعدني ! فيقول ابن آدم : يارب كيف أعودك وانت رب
العالمين ؟! فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ أما انك
لو عدته لوجدتني عنده ! يا ابن آدم . استطعمتك فلم تطعمني ! فيقول
بارب كيف أطعمك وانت رب العالمين ؟! فيقول الله : أما علمت أن عبدي
فلانا استطعمتك فلم تطعمه ؟ أما انك لو أطعته لوجدت ذلك عندي . يا ابن

آدم استسقيتك فلم تسقني فيقول كيف أسقيك وأنت رب العالمين !
فيقول استسقاك عبي فلان فلم تسقه أما انك لو سقيته لوجدت ذلك
عندي .

انظر الى هذا المعنى السامي في هذا الحديث الجليل ، فان الله مع
عباده في كل لحظة وحالة وان البر بالناس بر بالله . وما هو في حاجة لبر
ولكنه لا يرضى الا أن يكون كأنما البر لذاته . ولذلك سمي الاحسان
والتصدق على الفقراء قرضا له تعالى فقال : « من ذا الذي يقرض الله
قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . ولا أظن أن منازعا يستطيع أن
ينازعنا في أن الاخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الاحسان في
الدعوة المحمدية ، كما أنهما الغاية منها ، فهي لم تترك سبيلا من الترغيب
والترهيب الا سلكته لتنطوي النفوس على الاخاء والرحمة ، وتنفر القلوب
من الأثرة والأنانية . انظروا الى هذه الآية فهي حتى في عباراتها تصفق
بهولها غلاظ القلوب :

« كلا بل لا تكرمون اليقيم . ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون
انثراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما كلا اذا دكت الأرض دكا دكا وجاء
ربك والمملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى
له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد .
ولا يوثق وثاقه أحد » .

تهديد شديد لذوى
القسوة والبخل

كانت الدعوة الى الاخاء غريبة كالدعوة الى التوحيد والدعوة الى
البعث ، فأنكرها العرب الذين لا يعتزون بغير العصبية ، ولا ينزلون
للاخاء مع من هم أدنى ، كالأرقاء والضعفاء ، وكان لابد من حملهم عليه
لأنه أساسى في نجاح الدعوة . ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزون بجماعة
(محمد) من المستضعفين والعييد وقد تأخوا في الله مع السادة والأشراف
اخاء جميلا ، حتى حكى عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول قوم نوح
« ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » .

قدماء العرب وفهم
الاخاء والمساواة

وقد أكد الكتاب هذا المبدأ السامى ووسعه حتى شمل أخوة البشر جميعا فقال : « يَايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم . وان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

ولما تمكنت دعوة الاخاء ، فى النفوس من الله بها على المؤمنين كأكبر نعمة فقال « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » ولم تكن الدعوة الى الاخاء قاصرة على المهاجرين والأنصار ، ولكنها كانت عامة « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

اخاء شامل بين
المسلمين وأهل
الكتاب

فالدعوة المحمدية قد قامت اذن : على رسالة للناس كافة لعبادةالله وحده وليكون الناس أمة واحدة . والأخوة فيها هى أخوة العقيدة ، لا تفرق بين الشعوب والقبائل ، والأبيض والأسود والأصفر ، ولا الغالب ولا المغلوب ولا الأراضى والاطوان ، بل تدعو الى أخوة حدودها البشرية ، تحرم الاعتداء ، وتدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى فى حالة النزاع مع المعتدين وردهم عن عدوانهم بالحرب ، فان فكرة الأخوة البشرية تتخذ أيضا نبراسا يهتدى به المؤمنون فى ظلام الحرب ، فهم لا يحاربون للفتح ، ولا للنسب ، ولا للقهر واذلال الناس ، وانما لحرية العقيدة . « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

حتى فى حالة الحرب مع الوثنيين ، يعتبر الاسلام الأخوة البشرية أصلا فى النزاع ، فالمؤمن الذى يعتقد أن الوثنية هى أسوأ ما يصاب به الانسان فى روحه وعقله ومصيره ، انما يريد للوثنى أن ينجو مما هو فيه ،

وما هو معرض له من غضب الله ، فاذا قسا عليه ليرده عن كفره ، فانما يريد بذلك رحمته وهو معترف بأخوته كما قيل :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وهذا الوثني الذي يحاربه المؤمن متى كان معتديا ، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله ، ويصبح مساويا له تمام المساواة، فهو اذن : لا ينازعه لنكران اخوته ، أو لعدم الرغبة في رحمته ، بل لتنام هذه الرحمة أو هذه الأخوة .

فنستطيع اذن أن نقول : ان الرحمة والاخاء أصلان من أصول الدعوة الاسلامية مقصودان لذاتهما ولأثرهما ، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وان الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدعى بعض الأجانب ، ولا كما يظن الحمقى من أن الاسلام دين حرب وقسوة وقهر .

وعليه فالاحسان أو العمل الصالح ، أن نسعى الى الاخاء العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهدينا في كل زمان ومكان .

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم في هذا ، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تدابرا وتناكرا وشقاقا . ولو قلبنا صفحات التاريخ قبل الاسلام ، و نظرنا فيها الى حال الأمم التي دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد ، ما بين جبال الهملايا وجبال البرانس ، في طول الدنيا شرقا وغربا ، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة الى الأخوة والتراحم في نفوس مئات الملايين من البشر على ممر هذه القرون .

الاخاء معجزة
الاسلام

ولا تزال هذه الأخوة التي دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم أحسن ما بقى في نفوس مسلمي اليوم ، رغم ما هم عليه من بعد عن روح الاسلام ، فهي متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الاسلامية كما تجلت لابن بطوطة قبل سبعة قرون ، ولمن قبله ومن بعده .

بقايا الاخاء في
العالم الاسلامي

وقد شعرت بها لأول مرة في شبابي في جبال الأرنثووط بألبانيا ، فقد ذكرى اخاء في البانيا دخلت تلك البلاد ولا عهد لى بها ولا معرفة بأحد من أهلها وكان طريقى اليها من بحر الأدرياتيك ، فنزلت (بكاترو) وذهبت الى (ستنجة) عاصمة الجبل الأسود وقتئذ وكان أهل الجبل فى حالة حرب مع الدولة العثمانية وكنت متنكرا بصفة مراسل لجريدة انجليزية ، أقصد التطوع مع المدافعين عن (أشقودره) من الترك والألبان ، فلمحت فى المدينة اسما اسلاميا على دكان ، فقدمت نفسى الى صاحبه ، وكأنما كنا على موعد ! رغم أن حديثنا كان بالاشارة . وما لبث أن جاء لى بفقية يعرف قليلا من العربية ، فتفاهمنا وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كله حتى وصلت الى أشقودره ، وتنقلت فى بلاد الأرنثووط من الشمال الى الجنوب ، يوصى بعضهم بعضا بى . ولو كنت بين أهلى ما وجدت منهم حبا أكثر مما أوجدته لى الاخوة الاسلامية فى تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقان . بل انى لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لى فى كل بلد من يعرف العربية ومن يلزمنى لخدمتى ومعاونتى

وهذه الروح ذاتها هى التى وجدتها فى شمال افريقية أثناء الحرب العامة من مصر الى الجزائر . وهى التى لمستها فى الهند حينما كان الناس يحفون بى ويستبشرون ، ولما علموا أن مصر صارت دولة مستقلة وافتى رسولها الى الأفغان فرحوا كأنما أيام عزهم قد أقبلت ! .

هذه الروح التى خلقتها الدعوة المحمدية الى الأخوة ، هى التى شهدتها كذلك فى ايران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها ، وفى كل جولة من جولاتى فى بلد لا تزال للإسلام أو بقى فيها مسلمون ، وهى التى يخرج بها معتزا الأفغانى من المشرق او الفلاتى من أقصى افريقية الغربية فيطوى آلاف الأميال سيرا الى مكة ، متوكلا ، لأنه يمشى من أهل الى أهل ، ومن اخوان الى اخوان ، حتى يرد المكان الذى جهر فيه محمد بالدعوة الى هذه الأخوة العامة .

كنت مرة قاصدا من الرياض عاصمة نجد الى مكة ، وبينهما سفر خمسة أيام بالسيارة ، ففى اليوم الثانى لاح لى رجلان يمشيان ، فوجهت السائق ناحيتهما ، وسألتهما أصلهما وقصدهما ، فلم يفهما لعدم المامهما

باللغة العربية اذ أنهما من (قندهار) بالأفغان ، وكان موسم الحج مقبلا ، فأدركت أنهما يريدان الحج فشق على أن أتركهما وحملتهما معي الى مكة . وفي الليالى التى قضيناها بالطريق ، رغم جهل بعضنا لغة بعض ، كانت روح الأخوة ناطقة بكل حاسة . ولولا هذه الأخوة لما طوى هذان الرجلان الأرض ، لا يملكان شيئا من الدنيا الا أن الدعوة المحمدية قد آخت بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن تنقلوا فى أوطانهم .

اخاء ليس له نظير وقد كان أثر الدعوة المحمدية الى الاخاء والرحمة أعظم ظهورا فى تاريخ المسلمين من أية دعوة مماثلة فى التاريخ البشرى . واذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاون ، فان هذه حالة شاذة سببها دوام اضطهاد جماعتهم وتشنتها ووجودها فى حالة أقلية ، ولأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم وليس العقيدة التى تدعو الى الاخاء الانسانى . أما الأخوة التى دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم وأقامها الاسلام فى النفوس ، فكان أعز أيامها أيام العز السابق ، وقد حملها العثمانيون الى شرق أوروبا ، كما حملها العرب من قبل الى غرب أوروبا ومجاهل افريقية وآسيا ، فكان الناس تحت رايتهن سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح ، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم الا بما تقتضيه حدود عدالة الله .

وقد كان أهل الملل الأخرى فى الدول الاسلامية أهل ذمة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة ، وعليهم ما يقتضيه الاخاء .

والآن ، وهذا العالم المضطرب ، يأكل قويه ضعيفه ، والناس فى أنكر صور القسوة يتقاذفون بالهول ليجنوا مغنم وأسلابا لاشك أنهم فى أشد الحاجة الى التذكير بدعوة الاخاء والرحمة ، والى ظهور هذه الدعوة قوية عزيزة ، كما كانت .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢)

في الإصلاح الاجتماعي

النظير الخلقى للفرد

نموذج الانسان الكامل - أثر القدوة العملية - أثر
المقيدة في توجيه الخلق للخير العام - عبد الملك بن
مروان وأبو حازم - التاجر الناصح القانع - نظرة عمرية
لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الاسلامية ثورة اجتماعية مهما قلنا عن شبيهه لها في
الشرق والغرب ، والقديم والحديث ، فلن نجد لها مثيلا .

وأعظم آثار هذه الثورة هو الانقلاب الخلقى والنفساني الذي أحدثه
محمد صلى الله عليه وسلم بعمله ومثله وشخصه ، وأحدثه ببادئه وسننه ،
فكان نتيجة ملازمة ومباشرة لدعوته . وهو أساس مراتب الاصلاح
الاجتماعي ، لأن صلاح الفرد أساس صلاح الجماعة .

يقول تعالى في وصف محمد صلى الله عليه وسلم : « وانك لعلى خلق
عظيم » . ويقول محمد صلى الله عليه وسلم . « انما بعثت لأتمم مكارم
الأخلاق » و « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وحقا تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم ، فالصدق والبر
ومعرفة الواجب وأدائه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة
والتواضع والعفة والوفاء ، كل أولئك كان بعض صفاته البارزة التي قربته
الى القلوب ، فتعلق الناس به ، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم
وقد أدرك العلماء من غير المسلمين هذه الحقيقة في شخص محمد
صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يوفقوا الى الايمان به رسولا من الله
تعالى ، ولعل ذلك أثر من اثار البيئة فيهم .

كنت مرة في (لندرة) أتحدث في القطار الى السير (دنسون روس)
وكان من العلماء المستشرقين ، فذكرنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فسألته :
هل يعتقد أن محمدا كان ينافق ويكذب ؟ فقال : كلا . ان صدقه واستقامته
لا شك فيهما ، ولكنه كان مخدوعا ، يعتقد أنه يوحى اليه ولم يكن يعمل
الا بما يعتقد .

نموذج الانسان
الكامل

فهاهى ذى القرون تتابع ، وأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم من
الوضوح والقوة بحيث لا يستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته مصداقا
لقوله تعالى : « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

أثر القدوة العملية

كان لمثله الشخصى أكبر الأثر فى الانقلاب الروحى والخلقى الذى
تم فى أيامه وبعد وفاته . وكذلك كان أثر المبادئ التى سنّها ، والعقيدة
التي دعا إليها . فمبادئ المساواة والاخاء والحرية التى جعلها أجزاء
متمة للإيمان قد فعلت فعلها فى اصلاح الأخلاق والسمو الروحى للجماعة
وكذلك فعلت عقيدة الإيمان بالله وحده لا شريك له ، له الملك وله السلطان ،
بيده النفع والضرر والمنع والعطاء ، تتساوى الناس فى ملكوته وفى العبودية
له فسمّا بالروح البشرية وحررها ووجهها الى الخير العام وقصد وجه
الله القدير الذى بيده كل شيء ، وجعل مناط الأعمال النية التى يعلمها
ويحيط بها علام الغيوب . فهياً بهذه العقيدة السبيل الى الأخلاق الفاضلة .

العقيدة فى التوجيه
للخير

فالذى يدين بها لا يكذب ، لأن الكذب لا يخفى على الله ولا ينفع
صاحبه ، فصار الصدق من دعائم الأخلاق فى الدعوة المحمدية ، وصار
الرياء والنفاق يبعد عن الله ، ولا يكسب الأعمال الا بوارا ، واستحال
بذلك على المسلم المؤمن أن يكون كاذبا أو مرائيا .

والمؤمن شجاع الرأى والقلب لا يهاب الموت ، لأن الذى يملكه هو
الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه الى العزة والاباء والاستشهاد فى الحق
وترفض الظلم أو التحقير ان وقع عليه أو على اخوانه من عبيد الله .

والمؤمن بهذه العقيدة لا يكون جبانا مستسلما ، بل يحيا مناضلا ،
يدفع شرور الحياة عن نفسه وعن الناس بحياته .

المؤمن يعتقد أن الله هو الذى يعطى ويمنع ويرزق من يشاء بغير
حساب ، فلا يبخل بما فى يده ، بل يبذل ارضاء لهذا الرازق وطلباً لبره
وكرمه ، ويعيش سخيا كريما سمحا مع اخوانه عباد الله .

كذلك لا يكون المؤمن أنانيا ، فان عقيدته تمنعه من أن يختص نفسه
بالمنازع ، وهو يعلم أن فى ذلك حرمانا لعيال الله من المشاركة فى فضل

الله ، فهو انسان يكمل انسانيته بالشعور بجنسه ، يعيش بنفسه وأهله وجيرته وأمته والناس جميعا .

هو حسن المعاملة والعشرة ، وفي ، ودود ، لأن كل ذلك من مميزات ايمانه ومستلزمات خضوعه للذات العلية التي رفعتة واستخلفته في الأرض .

فالعقيدة الاسلامية التي دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي مكنها في نفوس أصحابه وأتباعه هي بذاتها الدعامة الكبرى للإصلاح الاجتماعي ، فقد نشأ عنها وترتب عليها حياة روحية خلقية فاضلة ، لها المقام الأول في نفس المسلم ، وما بعدها من مادة انما يكسب قيمته وأهميته بقدر صلاحه لأعزاز هذه الروح وتمكينها .

وفي المجتمع الاسلامي الذي تسوده العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تسيطر المادة على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرفات البشرية سيطرة تشبه في قليل أو كثير ما يعانيه العالم اليوم من سيطرة المادة .

سليمان عبد الملك
وابو حازم

روى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي قدم المدينة للزيارة ، وبعث الى أبي حازم ، فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم قال : نعم أتكلم يا أمير المؤمنين : لا تأخذ الأشياء الا من محلها ، ولا تضعها الا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من أمر الرعية ما قلده . قال : عظمى يا أبا حازم . قال : أعلم أن هذا الأمر لم يصل اليك الا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما سار اليك . قال : مالك لا تجيء الينا ؟ قال وما أصنع بالمجيء اليك يا أمير المؤمنين ؟ ان أدنيتني فتننتي ، وان أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع الينا حاجتك . قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني رضيت . ذلك هو أثر الدعوة المحمدية في أخلاق الرجال ، ترفعها وتطهرها .

وتاريخ الصحابة والتابعين ، بل تاريخ المسلمين في جميع الأقطار يفيض بصفحات من الأمثلة العالية في الورع وحسن المعاملة والبعد عن الفحش والاخلاص في النصيح لعباد الله .

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ، ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فمر الى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهي على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته . فقال للأعرابي بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لاتساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها . فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها . فقال له يونس : انصرف فان النصيح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟! تربح مثل الثمن وتترك النصيح للمسلمين ! . فقال والله ما أخذها الا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟!

وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده . فقال له : ان الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة عشرة . فقال يا هذا قد رضيت . فقال وان رضيت فانا لانرضى لك الا ما نرضاه لأنفسنا ورد عليه خمسة .

تلك أخلاق من تمكنت الدعوة الحميدية من نفسه ، فعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فالمسلم لا يخدع ولا يغش ولا يغبن .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث : ما رددت ربها قط ، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعث بنسيئة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء » .

وكذلك كان أثر الدعوة الحميدية حاسما فيمن اهتدوا بهديها ، وكان الدين المعاملة ، فلم يكن تنطعا ولا تكلفا ولا تظاهرا ، بل إيمانا وعملا ظاهرا وباطنا ، لأن الله أحق أن يخشاه الناس من خشية بعضهم بعضا .

شهد عند عمر رضى الله عنه ، شاهد .. فقال ائتني بمن يعرفك . نظرة عمرية لحقيقة
الصالح
فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيرا . فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف
مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على
مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستين به
ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم القرآن ،
يخفض رأسه تارة ويرفعها أخرى ؟ قال : نعم . فقال : اذهب فلست
تعرفه ! . وقال للرجل اذهب فأثنى بمن يعرفك ...

التكافل

أمة واحدة - جماعة المسلمين تقوم على التكافل -
مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة - إيقاظ ضمير الفرد
وضمير الجماعة - حراسة الرأي العام - عزائم الأمر
بالعروف والنهي عن المنكر - العلاج بالتشريع - مرد
الإصلاح عامة إلى الأحسن - تكافل المهاجرين والأتصار
- مثل من التكافل في قبائل الطوارق

أمة واحدة

يقول تعالى « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »
ويقول صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم مثل
الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

جماعة المسلمين
تقوم على التكافل

والفرق بين الاسلام وأكثر الملل الأخرى أنه لم يكتف بتنظيم العبادات
وترك ما وراء ذلك لقيصر أو لغيره من الناس ، بل نظم المعاملات والعلاقات
والحقوق والواجبات بين أفراد الأسرة ، وأفراد الأمة ، وبين الأمم المختلفة
وجعل هدفه الأول المجتمع وصلاحه ، حتى ان العبادات نفسها قد تكون
من وسائل هذا الإصلاح ، والأمة الاسلامية في المجتمع البشرى وحدة
موثقة العرى ، متساندة متكافلة متعاونة تدفع ما يتطرق اليها من الفساد
بوحداها ومجموعها .

هذا التكافل الاجتماعي واضح في جميع نواحي الدعوة المحمدية ،
وأظننا لو قلبنا تاريخ البشر لا نجد حالة ظهر فيها التكافل والتعاون
والتراحم بين جماعة ما : كظهوره في جماعة المسلمين في العصور الأولى ،
بل في كل عصر من العصور قبل أن تلتاث العقول وتفسد القلوب ويفتتن
الناس بالحضارة الأوربية الحديثة .

مسئولية الفرد
والجماعة

ان مسؤولية الفرد في المجتمع الاسلامي عن الجماعة ، ومسئولية
الجماعة عن الفرد ، مسؤولية عظمى هي أمانة الحياة ومناط تكليفاتها ،
ولذلك كره الاسلام للفرد أن يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر
الصلة بيه وبين غيره ، حتى لقد كره الاسلام ذلك في العبادة ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت

لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » كما كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصون مصالحه ، وتحترم حقوقه وحرية ، وتوفق بين المصالح المختلفة ، وفضل الصلاة في جماعة على صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة .

فالفرد في المجتمع الاسلامي جزء في كل ، يكمله ويكمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي فيه .

هذه المسئولية الفردية عن الجماعة ، وهذه المسئولية الجماعية عن الفرد ، هما أولى وسائل الاسلام في الاصلاح والتكافل الاجتماعي . وقد أكد الاسلام معاني هاتين المسئوليتين في ضمير الفرد وضمير الجماعة ، ليضمن للمسلمين حياة الجسم الواحد الصحيح القوى السعيد المنتج ، فقال للفرد : « أنت على ثغرة من ثغر الاسلام فلا يؤتين من قبلك » الحديث .

ابقاظ ضمير الفرد
و ضمير الجماعة

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » الحديث .

« أوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » الحديث .
« رأيته الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » الآية « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وجعل في دعاء الفرد قوله : « ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » الى آخر النصوص التي توجه قلب الفرد للجماعة وتدمجه فيها ادماجا تاما .

وقال للجماعة : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » الآية « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » الحديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل : أنصره اذا كان مظلوما ، رأيته ان كان ظالما كيف أنصره ! قال : تمنعه من الظلم ، فان ذلك نصره » الحديث .

وضرب مثلاً رائعاً لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليتهم ازاء جانياته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان قوما ركبوا سفينة فاقترسوا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل موضعه بقأس ، فقالوا له : ما تصنع ! ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما أشاء ! فان أخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا » .

* * *

هذا التقابل بين الفرد والجماعة في المسؤولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية ، وجميع وسائل الإصلاح لا تنتج نتائجها اذا لم تكن قبلها هذه الوسيلة .

وخلافة الانسان عن الله في الأرض ووصايته على مقدراتها ، لا تتحققان الا بهذا التكافل الاجتماعي .

فعلى الذين يريدون مقاومة الآفات الاجتماعية أن يوقظوا أولاً ضمير الفرد للجماعة وضمير الجماعة للفرد ، وأن يؤكدوا معاني المسئوليتين السابقتين ، حتى يحس الفرد احساس البنوة والبر بالجماعة ، وتحس الجماعة احساس الأمومة والرعاية للفرد .

ينشأ من ادراك المسئوليتين السابقتين والاضطلاع بهما ، ما يسمى حديثاً « الرأي العام » ذلك الحارس اليقظ لكيان الأمة اذا كان مبنيًا على بصيرة ووحدة في القصد والهدف ، وهو السلطة الرهيبة التي تقوم بالحكام والأفراد ، وبه تهتز الأمة وينتفض جسمها انتفاضة الغضب اذا أصابه سوء أو فساد ، كما يهتز جسم الفرد وينتفض لما يصيبه من مكروه . وهو أمضى سلاح للقضاء على الآفات الاجتماعية ، ويفعل مالا تفعل القوانين . وهو العين الساهرة على تنفيذ القوانين ، واحترام القواعد الأدبية ، والسنن الصالحة التي أقرها المجتمع .

عزائه الامر
بالمعروف والنهي
عن المنكر

ولذلك عنى الاسلام بتكوينه كرقيب يهذب من شذوذ الفرد ، ويحد من غلو الجماعة ، فجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر عزائم الاسلام وأعظم أسس الحياة الاجتماعية الصالحة .

والقرآن يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وفى الحديث النبوى الشريف : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئا ، وقال « لا والذي نفسى بيده ! حتى تأطروهم على الحق أطرا » أى تعطفوهم وتميلوهم .

فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغى ألا يجامل فيه اذا اعتدى عليه معتد كائنا من كان .

وأكبر آفاتنا الاجتماعية ناشىء من أن رأى العام الصالح لم يتكون فكثيرا ما نرى أفرادا يجاهرون بالاعتداء على حرمان الدين والدولة والحقوق العامة ، ومع ذلك لا يحرك الجمهور ساكنا للانكار ، أو الاعتراض ذلك لأن الجماعة هنا تعيش فى ذهول عن نفسها وحقوقها وواجباتها ؛ اذ هى جماعة موزعة مشتتة الأهواء غير متجانسة التربية والتعليم ، التربية والثقافة فيها غير مطبوعتين بطابع واحد ، قد صبت فيهما جداول مختلفة بلبلت أخلاق الأمة وتفكيرها وإيمانها ، وجعلت الشئ الواحد حسنا وقيحا لديها فى آن واحد : حسنا لدى جماعة وقيحا لدى أخرى .

فتقدير المسئولية الفردية ومسئولية الجماعة ، وإيجاد رأى العام الصالح لا يكون الا بالدعوة والاقناع ، ومتى أدرك الكل الحقوق والواجبات ادراكا صحيحا ظهر رأى العام موحدًا قويا ، فيقوم المعوج ويصلح الفاسد .

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التى تصل الى أعماق النفوس فتبذر بذور الخير وحب الحق وتجتث أصول الشر وأسباب الآفات ، هى الفاتحة التى لا بد منها .

ومفتاح كل أمر من أمور الإصلاح هو الوصول الى النفس أولاً .
وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فقال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى
يغيروا ما بأنفسهم » .

وقد كان الارشاد الاجتماعى المبني على الاقناع أحد الأسلحة القوية
التي لجأ اليها الاسلام للإصلاح الاجتماعى ؛ فكان الرسول صلى الله عليه
وسلم يقرع الآذان بالقرآن والحديث ليصل الى القلوب والعقول ، حتى
تعرف الحق وتذكر الرشد ، وتقوم عليها الحجة ويسقط عذرها أمام
نفسها وأمام الله ؛ ولذلك سبق عهد الدعوة عهد التشريع والالزام ؛
ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ثلاث عشرة سنة ،
حتى تسربت دعوته الى قلوب القوم واشتغلت بها أندية فتساءلوا عن
نبئها العظيم .

فلما انتشرت الدعوة ، ووجد رأى العام لها في المدينة ، ابتدأت
مرحلة التشريع والالزام .

كذلك عالج الاسلام آفات المجتمع العربى وقتئذ بالدعوة ثم
بالتشريع . واليوم ، على الذين يريدون علاجها أن يسلكوا هذه السبيل ،
فيجب أن تتخذ الدعوة أساساً للإصلاح قبل التشريع ، ويجب أن يلحظ
التدرج في التشريع وترك الطفرة ، حتى يتهيأ الجو الصالح وتستعد طباع
الجماعة لقبول ما يلقي عليها من الأوامر والالزامات .

وقصة تحريم الخمر في الاسلام بالدعوة أولاً ، وبالتدرج في التشريع
ثانياً ، تبين لنا أسلوب الاسلام في التوصل الى أغراضه خطوة خطوة .

* * *

قلنا ان الاسلام اتخذ الدعوة وسيلة للإصلاح الاجتماعى ، ثم لجأ
الى التشريع لحماية مقاصد هذه الدعوة ، وقد جعل الحياة كلها ترمى الى
الايمان والاحسان في العمل فهو يحدد للفرد والجماعة الحقوق والواجبات
على أساس هذا الاحسان . فكل تكليف وكل حق ينشأ في المجتمع
الاسلامى انما ينشأ بسبب واحد هو الاحسان للفرد أو للجماعة ، وأى

مرد الإصلاح عامة
الى الاحسان

عمل من شأنه أن يباعد من الخير أو يقرب من الشر ، سواء أعاد هذا العمل على صاحبه أم على غيره ، فهو محرم .

لذلك نجد الاسلام قد تناول جميع نواحي الحياة ، وحدد فيها المسؤولية لتحقيق قصده ، وهو الحياة السعيدة التي يريدها للناس في هذه الدنيا ، والتي جعلها وسيلتهم لحياة أرقى وأسعد في الآخرة ..

فمثلا يقول نبي الاسلام « كلکم راع وكلکم مسئول عن رعيته » الى آخر الحديث السابق . فلم يخل أحدا من مسؤوليته عن الآخر ، فأمر المؤمنين مسئول عن المؤمنين ، ووكلاؤه وأمناءه مسئولون عما بين أيديهم من سلطته ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والمرأة مسئولة عن بيتها ، والفرد مسئول عن نفسه وجاره ، وكل فرد في المجتمع الاسلامي مسئول عن حسن قيام المجتمع كله ؛ لأنه مكلف كما قلنا بالعمل والدعوة لصالح هذا المجتمع ، وبالتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى .

وهو مكلف بكل أولئك لغرض واحد ، هو الاحسان قاعدة الاسلام الثانية بعد الايمان وليس أنجع لمقاومة الشر وآفات المجتمع من التربية الاسلامية التي جعلت هذه المسؤولية تهبط من الأسمى الى الأدنى ، وتصعد من الأدنى الى الأعلى ، فهي التي تشد البناء الاسلامي وتمسكه من الخلل .



اتخذت الدعوة الاسلامية لتدعيم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل شتى ، حتى آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار في المدينة ذلك الاخاء الذي حل محل النسب والقربى .

تكافل المهاجرين
والانصار

ونشأت بالدعوة المحمدية جماعة متضامنة موحدة هي مصدر السلطات جميعا ، رأيها شرع ، وقولها فصل ، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادها كما أصبح أفرادها قوى حية مسئولة لا يتم ايمانها ، ولا يكمل دينها الا بالاخلاص للجماعة والتفاني فيها ، والفناء في سبيلها . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

وقد شهدت في بعض الجماعات الاسلامية التي احتفظت بتقاليد المسلمين ، تضامنا وتكافلا لا نظير له ، لا يتمنى المصلح الاجتماعى أحسن منه لأية جماعة بشرية .

رأيت بعض قبائل (الطوارق) في شمال افريقية يحون حياة هذا التكافل السعيد ، فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وانما لجماعته . وأعظم ما يفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهذه الجماعة . وأول ما لفت نظري لحالتهم هذه أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم في فزان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج يطلب الرزق ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الاسلامية . غير أن النحس لازمه ولم يستطع كسبا ، فجاءنا في (مصراته) يستمدنا فأعناه ليعود الى أهله ، ولكنه عاد الى بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه رجع من أهله ، فقال لا ، وانما الآن أستطيع الرجوع الى أهلى ، فقلت وكيف ذلك ؟ قال : بعد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه وأصبح الآن في يدي ما أعود به الى جماعة الطوارق . فقلت : الى أولادك أم الى جماعة الطوارق ؟ قال : الى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادى في غيبتى ، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائبا منهم ، وأقسم ما أعطى الله بين أولادى وأولاد جيرانى .

فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟

قال : كلنا في الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد من جماعتنا يستحى أن يعود الى النجع خاليا ، لا حياء من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهل بيته سواء بسواء .

ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ولا هى من مستلزمات عصبيتها ، وانما هى الروح الاسلامية أكثر ظهورا في هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية وقد وجدت هذه الروح في الدساكر والقرى الاسلامية التي لا تزال مطبوعة بالطابع الاسلامى ، سواء أكان أهلها عربا

أم عجا ، بيضا أم سودا ، في المشرق أم في المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب الى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ولو اقترضت جماعتهم ، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم ، فضلا عن جيرانهم .

البر

كلمة جامعة - نظرة الإسلام الى مشكلة الفقر - الفقر
لعلة والفقر لفقد الوسيلة - العمل هو الأصل - مطاردة
الترف والبؤس - القانون والضمير - اشتراكية أبى
لر - محاربة الترف والاعتناز والربا - سلطة واسعة
لولى الأمر - المواساة بشعور المساواة - المساواة عقيدة
وشعور ونظام - الأشكال والمظاهر ليست غاية فى الحكم
- حق الفقير حق الله - البر بغير المسلمين - فلننظم البر
على طريقة الإسلام

البر ركن عظيم من أركان الدعوة ، وسيل واضحة للإصلاح
الاجتماعى .

وقد وردت كلمة البر فى القرآن على معان شتى تحددها القرينة ،
فهو الصدق والخير والاحسان على أوسع معانيه ، وطاعة الله .
وتقصد بالبر فى هذا الحديث معنى الاحسان والمواساة للفقراء
والمساكين ومن تخلف من اخواننا فى المجتمع عن السير معنا الى حياة
مرضية مستغنية لعجز به أو يتم أو مصاب أو جهل ، أو غير ذلك مما
يعرض من أسباب الضعف والفقر .

وقد سبقت الدعوة المحمدية جميع الدعوات الصالحة فى تحديد البر
وتنظيمه ، وفى تعيين واجبات الأفراد والأمة والدولة فى هذا الشأن . وهى
من هذه الناحية ذات نظام اجتماعى شامل يستحق من أهل الرأى والنظر
فى جميع الملل عناية ودرسا .

وهذه الحرب التى قامت بين النظم الفاشية والشيوعية والديمقراطية ،
داعية الى المسارعة فى بيان القواعد الاسلامية ، والسنة المحمدية ، لعل
فى ذلك هدى ومخرجا مما اختلف الناس فيه .

وقد بينا كيف حارب الاسلام الفساد الاجتماعى بالدعوة والرأى
العام ، وكيف يجعل من التكافل والروح الجماعية أساسا دينيا لا تستقيم
السييل الى الله الا به ، ولا يتم ايمان الفرد ، ولا تؤدى الأمة واجبها ،
والدولة أمانتها الا بالعمل المتواصل على تمكينه فى النفوس ، وجعله
نظاما من نظم الحياة .

نظرة الاسلام الى
مشكلة الفقر

ولننظر الآن كيف عالج الاسلام مشكلة الفقر وهي أعظم آفات
المجتمع البشرى .

لم يجعل الاسلام الفقر سببا لازدراء صاحبه ، بل جعل أقرب الناس
الى الله أتقاهم ؛ فالفقير على حاجته قد يكون فى نظر الاسلام أعلى من أى
رجل آخر مهما كان ماله وجاهه ، وبهذا ابتداء المواساة الأولى للفقير .

ثم نظر فى حال الفقير ؛ فاما أن يكون هذا الفقير عاجزا عن الكسب
لعلة به ، واما أن يكون عاجزا عن الكسب لفقد الوسيلة الى العمل .

الفقر لعلة والفقر
لفقد الوسيلة

فأما الذى يعجز لعلة لا علاج لها فقد جعل مواساته حقا على المجتمع
لا تبرعا وتطوعا . قال الله تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل
والمحروم » فसान بذلك كرامته الانسانية .

وأما الذى يعجز لفقد الوسيلة الى العمل فقد أوجب على الدولة
ايجاد الوسيلة لتكسبه . وقد قبح الاسلام السؤال ودعا المسلم للترفع
عنه ؛ « فاليد العليا خير من اليد السفلى » . وقد أعطى رسول الله صلى
الله عليه وسلم سائلا درهما وأمره أن يشتري به فأسا وحبلا ويحتطب ،
ولا يتعرض لذل السؤال .

العمل هو الاصل

والأصل فى الاسلام هو العمل والتكسب ، وقد حض عليه بجميع
الوسائل ، حتى لقد فضله على الاقطاع لعبادة الله ، ولكنه كذلك أنصف
المجتمع بالزام الدولة أن تعين على ايجاد العمل لمن لا يجده ، وأن تحمى
من يعجز عنه .

مطاردة الترف
والبؤس

وقد أراد الاسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقا ومتقاربا بين
أتباعه ، فحارب الترف فى أعلى المجتمع ، وطارد البؤس فى أسفله ، واتخذ
لذلك وسيلتين : وسيلة الضمير وهى أقواهما ، ووسيلة القانون ؛ فجعل
الحياة السعيدة الخالدة لا تنال الا بالانفاق على المستحقين من الأهل
والأقربين والمساكين ، ولا ينال متاعها المسرفون الذين جعلوا شهواتهم
فى هذه الحياة أهدافهم .

جعل ضمير المسلم لا يستريح اذا طعم ولبس وتمتع ، وجاره ومن حوله قد عجزوا عن القوت ، وحضه حضا قويا على البذل والقناعة والحد من شهواته في سبيل اغاثة الملهوفين والمحتاجين ، حتى لقد أمر أن يطعم السد الخادم مما يطعم ، ويكسوه مما يكتسى .

قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذر رضى الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هم اخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

ولم يكتف الاسلام بايقاظ الضمير لهذا ، بل جعل للدولة أن تقتضى من فضلة مال الفرد مقادير لا يستهان بها لتكفل بوسائلها هي أيضا حاجات الفقراء والمساكين .

وفي الحقيقة حين يحارب الاسلام الترف والاكتناز والربا ، ويقول : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكون بها جياههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » وحين يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وحين يقول : « يمحى الله الربا ويربى الصدقات » وحين يقتضى الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرم الربا ، انما يريد بذلك كله أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ويخفض من مستوى المترفين ، ليجعل حياة الجميع سعيدة متناسقة .

فتحريم الترف يوجه الأموال الى اتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا يؤدي الى المشاركة فيها . واذا لم يجد الناس في الترف لذتهم وجاههم ، وجدوها في الاحسان والبر . واذا لم يجدوا في الكنز ضمانا لهم ، وجدوه في ضمانه المجتمع الاسلامي المتكافل الذى لم يهمل أحدا ولم يحتقر أحدا ، واذا لم يجدوه

في الربا وجدوه في لذة الكسب والمشاركة مع اخوانهم الذين يعملون في أموالهم .

هذا الاسلام الذي حارب آفة الفقر بإيقاظ الضمير وبالتشريع : جعل العمل أس المقاصد ، فأمر بالسعى وفضله على الانقطاع للعبادة ، وأمر بالجد والاتقان . وذلك لا شك أفضل الوسائل لمحاربة الفقر ، ولم يجعل جزاء العمل مقصورا على هذه الحياة ، بل وعده به في الآخرة .

والاسلام يدفع الفقر بالدعوة الى الأخلاق الفاضلة ، ويقاوم بالحجة والحدود الشرور والرذائل . فلو أن وسائله استخدمت في ردع أرباب الشرور والآثام ، وفي الدعوة للفضيلة والخير ، لتماسكت الأسرة الاسلامية وأدرك كل عضو فيها واجبه ، وكبح من نزعاته ، وكان ذلك من أمضى الأسلحة في مقاومة الفقر ، إذ أن أعظم أسباب الفقر هي الاسراف في الشهوات ، وارتكاب الآثام كتعاطي الخمر والمخدرات ، وإهمال صحة البدن والأوامر الدينية التي من شأنها تقويم الأرواح والأبدان . ولو اتخذنا وسائل الاسلام في التراحم والتعاطف ، ومبادئه في الأخوة والتعاون ، وأيقظنا ضمير الأمة الديني في هذه الناحية ، لطعنا الفقر طعنة تعجزه عن أن يدخل أكثر البيوت .

ولو قامت الدولة بواجبها في كفالة المتخلفين من اخواننا لما يصيبهم في أنفسهم أو أبدانهم ، أو لما يصيبهم من انقطاع السبل بهم مع رغبتهم في العمل ، وذلك بأن تكون سياستها قائمة على أساس التكافل الذي جاء به الاسلام في قول رسوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » فوزعت الصدقة على من لا سبيل له غير الصدقة ، ووزعت العمل على الناس بقصد الخير العام ، ولو على سبيل الاجبار على عمل معين للقادر عليه : لو فعلت ذلك : لقاتلت هي أيضا الفقر بوسائلها الفعالة .

وقد جعل الاسلام في هذا سلطات واسعة لولى الأمر ، فله في سبيل الاصلاح العام أن يحدث أقضية بقدر ما يحدث من المشكلات ، وله أن يكيف الأحوال لتسير وفق الغرض الاساسي للاسلام ، وهو الاحسان ..

سلطات واسعة
لولى الامر

وقد قرر الاسلام في وضوح وعزم مبدأ المساواة ، وهو أعظم المبادئ في مقاومة الشرور الاجتماعية وأخصها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقرة في ضمير المسلم ، ومالكة زمام تصرفاته في العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تبغض في الاستعلاء والترفع على الناس ، حتى ليكاد المسلم أن يفر من مجرد الخاطر الذي يخطر بذهنه بأنه أفضل من غيره . والمسلم الصادق لا يضر في نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه .

والله تعالى يشتد على الرسول نفسه ويعاتبه بالقرآن ، لأنه تصدى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء ايمانهم ايمان أقوام يتبعونهم ، وتلهى بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغبا في الايمان فقال :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنعه الذكرى .. أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى » .

ولست تجد في أى تشريع احتفالا بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية اذ تحض المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » .

ومتى رسخ هذا المعنى في أذهان الملوك والأمراء والحكام والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما أرادته الدعوة المحمدية ، استحالت الفرقة الاجتماعية وما يثيرها من حسد وبغض ، وما يترتب عليها من خلاف وشر ثم قتال وحرب ، وما يكون من تسلط الأقوياء على المستضعفين ، أو ما يكون من ظهور المستضعفين واستدلالهم لمن كانوا أقوياء .

نعم قد يقال : ان مبدأ المساواة شائع الآن في أوربا وأمريكا ، ومؤيد
بشرائع وقوانين ، ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد ، وهو قول
ظاهره فيه الحق ، وباطنه من قبله الباطل ، فان الأناية والمادية لم تبلغا في
عهد من العهود ما بلغت في عهد المساواة القائمة على القوانين الحديثة في
الغرب ، ولم تصل القطيعة والأثرة حتى في العهد الاقطاعي الى ما وصلت
اليه اليوم ، ولم تسيطر روح الشر بما فيها من غل وحسد سيطرتها في
السنوات المائة الأخيرة ، مع شيوع حق المساواة في التصويت لانتخاب
الهيئات البلدية والعامة ، ولم ينتظم الناس في مجموعات الطوائف والحرف
لينازعوا غيرهم من الطوائف كما انتظموا في القرن الحالي ، والكل يتحدث
بحق المساواة .

والسبب في ذلك ، أن التسليم بحق المساواة في الدعوة المحمدية
مقرون بالعقيدة والايمان ، فهو في صميم قلب المؤمن ، وهو المسيطر على
ضميره ، فلا خداع فيه ولا نفاق .

« ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ! » .

هذا فضلا عن أن النظام الاجتماعي والاسلامي ليس قائما على تنازع
السلطات ، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ، ولا على توازن
القوى حتى يفسد باختلال هذا التوازن ، وانما يقوم على التكافل بين
أهل الملة ، وعلى الروح الجماعية وعلى المقصد الأسى للوجود ، وهو
الكمال الروحي للفرد والأمة ، وعلى أن جميع الأعمال عمادها النية
وقصدها رضا الله .

فالنظام الاجتماعي في الدعوة المحمدية يجعل كفالة الحق في ضمير
الفرد وضمير الجماعة وسلطة الدولة ، ويلعن الجماعة كلها اذا ضاع الحق
بينها .

ولا يخلئ أحدا فيها من مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والأشكال والمظاهر في النظام المحمدي لا قيمة لها الا بقدر ما تصلح
من العمل وتؤكد من حسن النية في ذلك العمل .

الاشكال والمظاهر
ليست في غاية
الحكم

فلم يعن المسلمون بطرائق الحكم ولا بكونه ملكيا أو جمهوريا أو
أوتوقراطيا أو ديمقراطيا ، وإنما عنوا كل العناية بتحقيق الغاية من الحكم ،
وهى التكافل الاجتماعى ، وأن يكون الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم
ولا لأجناسهم الا بالتقى والعمل الصالح ، ولا خير فى أحدهم ولا خير
فيهم جميعا ان لم تكن الغاية من حياتهم هى الخير العام .

وكل نظام يحقق الغاية من الدعوة المحمدية . وهى مصلحة الكافة
و ضمان حقوق الأفراد ، فهو نظام اسلامى .

فاذا كانت المساواة على النظام الغربى لا تحد من الأثرة والمادية
والشهوات والهوى ، ولا تمنع نزاع الطبقات ، ولا حرب الأجناس ، فانها
صورة لا حقيقة ، والاسلام يريد الحقائق لا الصور « ان الله لا ينظر الى
صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » .

ظاهر اذن أن مبدأ المساواة بالمعنى الاسلامى هو من أكبر دعائم
البر وأفتك الأسلحة بأفة الفقر .

وقد دعا الاسلام الى البر بكل وسيلة ، دعا اليه بالترغيب والترهيب ،
ودعا اليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يحق الله الربا ويربى
الصدقات » « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال « أرأيت
الذى يكذب بالدين . فذلك الذى بدع اليتيم ، ولا يحض على طعام
المسكين » وقال : « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام
المسكين » .

وكتاب الله وحياة رسوله يفيضان بفضل الاتفاق فى سبيل الله ، واتخاذ
الدنيا مطية للآخرة . ولم يكتف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن
تكون دعوته موجهة بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والمصابين
والمعوزين ، بل جعل البر بهم حقا مفروضا لا سبيلا الى المماطلة فيه ؛ حتى
ان العرب لما ارتدت عن دفع الزكاة عقب وفاة الرسول ، ونصح الخليفة
الأول بأن يداريهم ، وقد تفاقم الشر ، قال رضى الله عنه : « والله لو منعونى
عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه »

أى أنه يوجه كل قوى الدولة لقتال قوم يمنعون حق الفقير فيما قيمته قيمة
حبل يعقل به بعير !

فحقوق الفقراء فى الدولة الاسلامىة مصونة ، وليس لأحد أن يمن
بها ، فهى حق الله فى ماله وكسبه وملكه . وقد بينت الشريعة الزكاة وأنواعها
وكيفية أدائها ، كما بينت مستحقها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق .

وكان من أثر الدعوة المحمدية للبر والاحسان تلك الأوقاف المحبوسة
على الخير فى المشرق والمغرب ، وكان من أثرها أن تطهرت نفوس المسلمين .
حتى حبسوا من أملاكهم على القطط والكلاب والحيوانات . ومن أمثلة
هذا أن نور الدين محمود وقف أرضا فى دمشق لتكون مأوى للحيوان
الهرم ، يرعى فيها حتى يموت .

وتاريخ المسلمين فى كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة
بالبائسين والغرباء ، وما الكرم الذى كان به فخر البيوت والأسر والشعوب
الا أثر من آثار روح البر والاحسان الاسلامى .

ولم يكن البر فى الدعوة المحمدية خاصا بأهل الجنس أو الدين ،
ولكنه كان عاما للمساكين من البشر ، فما منع اختلاف فى الدين دون البر
قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » ، « انما
الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب
والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

البر بغير المسلمين

وتنظيم البر فى العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس
والوسائل التى جاءت بها الدعوة المحمدية ، لأنها أفعل وأدوم ، ولكن يجب
كذلك أن تتصرف ونجتهد كى نحقق المقصد والغاية ، وأن ننظر فى عصرنا ،
وموارد الثروة فيه ، ومصادر الغنى ، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة
ونرضى الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود للظهور بيتنا من كانوا يابون أن
يتعرضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بانقاس أموالهم كلها ، حتى قيل
لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم
الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع .

فلننظم البر على
أسس الاسلام

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله .

ولا عجب ف « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

وروح الدعوة المحمدية واضحة فى أن الزكاة وحدها لا تبرى أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها . فما دام هناك محل للبر والصدقة فهم واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهى بأداء الزكاة .

يجب اذن أن نستلهم من شريعة الاسلام الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة المحمدية نظاما للبر تقوم عليه الدولة ، لنوازن بين الثروات والحاجات ، وقيم التكافل الاجتماعى ، ونقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

العدالة والحرية

صورة جاهلية - العالم بين الفرس والرومان - تحطيم
القيود وازالة الفوارق - مبادئ في السياسة وعقائد
في الدين - خليفة يبيع في الاسواق - خليفة يلبس
المرقع - فجر العدالة الدولية - ميزانية الخليفة
- ميزان الشريعة - كفالة الحريات جميعها - الدفاع
عن الحريات

تحدث في هذا الفصل عن مبدئين أساسيين لا بد منهما لصالح حال
المجتمع وتوجيه الحياة في طريق الخير العام ، وهما : الحرية والعدالة .

وكان الناس قبل الاسلام يعيشون اما على نظام القبيلة ، كالحال
في بلاد العرب ، واما رعايا لدول أو أمراء ، كما كان الأمر حول شبه
الجزيرة العربية في ملك الرومان والفرس والأحباش وقد كان لكل أرض
حال ونظام حسب ظروفها لا تنظمه مبادئ جامعة ، وأصول ثابتة مسلم بها ،
ففي البلاد العربية تسود مبادئ القوة ، وتتجلى الأثرة والأنانية ، ويعتز
الناس بالفتك والسلب ، ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط
على ما في أيديهم ، ينكرون الاخاء البشري والقومي وحتى الديني ،
ويرفضون المساواة خارج القبيلة مع الموالى وغيرهم من العرب ، ويسخرون
من العدل الذي لا يقوم على ما تبيحه القوة ، ويحبون الحرية المطلقة
ويتعشقونها ، بل يموتون موتا كريما في سبيل التمتع بها ، على أنها حرية
خاصة بهم لا يتمتعون أحدا بها .

وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيران العرب ، يحقرون العرب ،
ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدلهم ، وكان ملك الفرس يقوم
على رجل له كل الحقوق هو كسرى ، وعلى جماعة لهم من هذه الحقوق
ما يمنع كسرى أو يعطى ، اذ يسخر له ما في الأرض جميعا ليكون ملك
الناس جميعا وحوله أعوان وأمراء وجند يسندون العرش ، ويحظون ببعض
المتاع . الا أنهم عرضة في كل لحظة لابلحة أرواحهم وأموالهم وأبنائهم .

نعم كانت الامبراطورية الفارسية ثابتة القواعد ، دائمة الملك ، فقد عاش حكم آل ساسان أربعة قرون ، ولكنه عاش على نظام عسكري ، وحكم عرفي ، لا على مبادئ العدل والحرية والمساواة والاخاء . وكذلك عاشت (بيزنطة) ألف سنة ولم تكن عقليتها بأحسن حالا من عقلية (المدائن) ، فكان قيصر امبراطور المغرب ، بل على دعواه امبراطور العالم ، وكان كسرى خصيمه في المشرق . وما كان لعبادة النار أثر يذكر في هذه ، ولا للمسيحية أثر في الأخرى ، بل كانت مسيحية بيزنطة مما لا يشرف المسيحيين ، بعيدة كل البعد عما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام من اخاء وسلم ورحمة . وبلغ الغرور بسلاطين بيزنطة أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل ، فسيادتهم عالمية في نظرهم ، والناس اما معترف بذلك ، واما جاهل لا يدري أنه في نطاق هذه السيادة .

ومن أظرف ما يروى أن سفير شارلمان في القرن التاسع الميلادي كان في حضرة الأمبراطور في بيزنطة ، فذكر له أن سيده شارلمان مشغول بحرب السكسون وأن هؤلاء السكسون برابرة دائمو الشغب . فقاطعه الأمبراطور قائلا : من هؤلاء الهمج الذين لم أسمع باسمهم ، ولا قيمة لهم ليتعبوا سيدك كل هذا التعب ؟ ! اني قد وهبتك اياهم ، وبذلك أرحت سيدك منهم . فلما رجع سفير شارلمان حدث سيده بما وهبه الامبراطور ، فقال شارلمان : لو وهبك حذاء بدل السكسون لأعانك به على سفرك الشاق الطويل !

كذلك كان العالم في تصور قيصر وكسرى ، وفي مخالب الفوضى القبلية حين جاءت الدعوة المحمدية تذكر الناس بأنهم من آدم وآدم من تراب « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكذلك كان العالم لما بعث (عمر) مقوض ملك قيصر وكسرى الى واليه يوبخه لاستكبار ابنه على قبطن مسيحي ويقول له « ياعمر ومتى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

تحطيم القيود
وازالة الفوارق

جاءت الدعوة المحمدية بالطريف الغريب من الدعوة الى العدل
والمساواة والحرية . فأصبحت الشريعة ينبوع الحريات والحقائق ، تحدد
الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات . فقام المستضعفون وسخر الطغاة
المتجبرون وقالوا ما قال أسلاف لهم من قبل « ما نراك اتبعك الا الذين هم
أراذلنا بادي الرأي » وما دروا أن الله أراد أن يقوض عالم الأثرة والأنانية
والظلم والاستبداد ، وأن يحق الحق ، ويبطل الباطل . وأن الشريعة مبادئ
واضحة كريمة تنظم ما بين الناس ، أوحى بها العليم الخبير الى أفضل رجل
عرفه البشر في تاريخهم الطويل ، هي المبادئ التي أقرت العدالة والحرية
في ضمائر المؤمنين وجعلتها جزءا لا يتجزأ من عقيدتهم وصميم نفوسهم .

مبادئ في
السياسة وعقائد
في الدين

جعل الاسلام هذه المبادئ جزءا من العقيدة لا ينقسم منها وبذلك
ثبتها وخلدها وصانها من عبث التحايل والرياء والتظاهر والدعاوى
المفرضة أو الموقوتة .

فالمسلم لا يكون مسلما اذا شك في أن أقل اخوانه وأعجزهم يعادله
في الحقوق ، فهما في حضرة الله في الدنيا والآخرة عبادان ، أكرمهما أتقاهما .
هذه العدالة هي التي جعلت الصدقة على من يستحقها ، حقا في أموال
من يقدر عليها لا منة في رقة مستحقها .

خليفة يبيع
في الاسواق

وكانت هذه العدالة والمساواة واضحة في العهد الاسلامي الأول ،
وقت سيادة العقيدة وتملكها النفوس ، فهي التي جعلت من أبي بكر ، وقد
انتخب للخلافة رجلا يخرج الى السوق عقب البيعة له ليعمل كما يعمل
أي فرد من الناس فيها لكسب قوته وقوت عياله . فلما كلم في ذلك ،
تشاور المسلمون في الأمر واعتبروه أجيرا لعملهم ، ومنعوه من العمل ،
ورتبوا له راتبا حدوده بالحاجة ، وكانت في عرفهم بضع دريهمات ، لبيت
الخليفة لا تجعله في زيه ومطعمه أكثر حظوة من سواد رعيته .

خليفة يلبس
الرقع

وجاء بعده عمر والعقيدة الاسلامية في أعز أيامها ، وأمكن سلطانها ،
فكان خليفة مختارا من الشعب ، غلب الفرس والرومان وهو يرقع ثوبه
بيده ويخفف حذاءه بنفسه ، ولم يخطر بباله ولا ببال المسلمين أن الخلافة

تميزه عنهم بشيء غير ما أعطته من حق الأمر وألزمهم من حق الطاعة ما دام وليا للأمر .

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعها يتكلفها الناس أو يلزمونها بقانون رادع ، فكانت حقيقة نفسية تعمل في الظاهر والخفاء لاقامة مجتمع صالح مستقر . وفي هذا المعنى قال أحمد شوقي رحمه الله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكمل في حق الحياة سواء
فلو أن أنساها تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وجباء

وقد قدمنا أن الشريعة قررت أن المؤمن أخو المؤمن ، وأنه في مشرق الأرض أو مغربها له من الحق ما لا سبيل لنكرانه ، له البر ، وله النصرة والحماية ، والولاء والاخلاص والنصح . له هذا كله بمقتضى العقيدة والشريعة لا نزاع ولا جدال ، فله النصفة غاب الحاكم أم قام ، وجد القانون أم اختفى ؛ لأنها حق يؤديه من ضميره بمقتضى إيمانه . هذا العدل قضى على القومية والعصية والوطنية ، وجعل المساواة فوق كل اعتبار ، فللمسلم ما للمسلم في كل زمان ومكان .

وقد سبق الاسلام كل نظم العدالة الحديثة . حين قال : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » وقال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وقال : « ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

فجر العدالة
الدولية

وقال : « وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وقال : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وفي الحديث القدسي « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » .

بل جعل العدل أساس نظام الخليقة كلها فقال : « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطفءوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

فالاسلام قد جعل العدل فوق كل شيء ، فهو يزن بالقسطاس المستقيم بين الكافر والمسلم ، والعدو والموالي والمعاهد ، فهم جميعا في نظره أمام العدالة سواء .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .
والشريعة الاسلامية في هذا الباب تستحق من جميع الناس ، آمنوا بها أم لم يؤمنوا ، نظرة صادقة ، فانها لا تزال سابقة في زمننا على ما به من تقدم الحضارة الحالية في هذا الشأن .

انظر الى أقوال بعض أئمة المسلمين قبل مئات السنين . يقول ابن القيم :
« ان الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات ، فاذا ظهرت أمارا العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه » . ويقول الامام الشاطبي « ان أحكام الشريعة ما شرعت الا لمصلحة الناس ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

فأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة ، وانما تقييد الأحكام بالعدل الذي يريده الله قبل أن تقييد بشيء آخر .

* * *

وأما الحرية في الاسلام فهي من أقدس الحقوق : الحرية السياسية ، والحرية الفكرية ، والحرية الدينية ، والحرية المدنية ، كلها كفلها الاسلام ، وخطا بها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها .

ولا يزال التاريخ يحدثنا بأمثلة منها وقعت في مجالس الخلفاء والأمراء حتى بعد أن صار الحكم في الاسلام ملكا عضوضا ، فكان الناس في أيام عمر بن عبد العزيز يتكلمون في حضرته في استحقاق بيته للملك والخلافة ،

وكذلك روى عن مجالس المأمون ما كان يجرى فيها من نقاش حول بيت الخلافة وأحقية بها .

وهذا دعبل بن علي الخزاعي الشاعر ، هجا جماعة من الخلفاء العباسيين واحدا بعد آخر وهم في عنفوان سلطانهم ، وابتصر لخصومهم العلويين دون أن تصدر حرية أو يناله أحد . ولما بويغ لبراهيم بن المهدي في العراق وخلع المأمون في غيبته قال دعبل :

نق ابن شكلة بالعراق وأهله فهما إليه كل أخرق مائق
أنى - ولا يكون - ولم يكن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وما أظن أن مثل هذه الحرية سمح بها في عهد ملك من الملوك في زمن من الأزمان الحاضرة أو الماضية . وتقديس الاسلام للحرية هو الذي جعل من المسلمين في أحسن أيامهم ، وخصوصا العهد العربي لقربه من ظهور الدعوة ، قوما يسعون في ملكهم بين المشرق والمغرب من الصين الى الأندلس جميع الملل والنحل تعيش في جوارهم وأمنهم .

بل أقام الاسلام بشرعه من المسلمين حماة لأرباب العقائد المخالفة لهم ، وألزم أهله أن يقاتلوا لصيانة حرية العقيدة وقدسية أماكن العبادة لمن دخلوا في عهدهم وجوارهم من مخالفين في الدين .

تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية ، فلم يضطهدوا بمقتضى شريعتهم ، ولا ارضاء لعقيدتهم رجلا نظر في الكون واستتبطن نفسه نظرية من النظريات ، أو ادعى رأيا من الآراء ، فكانت الحرية العلمية مكفولة للصائبي والمجوسى والنصراني واليهودى ، يقول ويكتب ما يشاء . كذلك كان المسلمون أحرارا في هذا لا تعترضهم شريعتهم . ولا أعرف أن حرية الرأي والعقيدة والعلم قد اعترضها معترض في الدول الاسلامية ، الا خشية الفتنة ، أو حيث كانت سببا في فتنة أو عرضت سلامة الدولة لخطر .

الدفاع عن
الحرية

وكان أمراء المسلمين وحكامهم على وجه العموم لا يعبأون في سياستهم بالنظر الى الأفكار والآراء والمعتقدات والأبحاث العلمية الا بقدر أثرها المباشر السريع على سلطانهم ، فخاض المسلمون وغير المسلمين في الكلام ،

وفي نظريات علمية ودينية في العصور الوسطى بحرية لم تتسع لها صدور
الأوربيين والأمريكيين الى يومنا هذا .

ولقد تركت الدعوة المحمدية آثارا خالدة في نفوس المسلمين بالنسبة
لحرمان العدل والحرية لم تقو على محوها عهود الجهالة والفساد في قرون
طويلة . ذلك لأنها آمنت بأن العدل والحرية حقان أساسيان للناس كافة
لا تحجبهما أية دعوى من النظم أو الضرورة ، لأنها سبب الوجود لأي
نظام وحكومة اسلامية . واذا كانت الدعوة المحمدية لم تهتم كثيرا بصور
الحكم ونظمه فقد يكون ذلك لأنه لا يهتما منها الا أن تكون محققة للعدل
حامية للحرية .

تلك بعض المبادئ العامة المتفق على ضرورتها وفضلها ، والتي بها
يصلح المجتمع ، أقامها الاسلام في ضمائر الناس ، وناضل عنها وحماها
بسلطانه ، لأنه يعلم آثارها الصالحة في اقامة مجتمع صالح .

(٣)

في العلاقات الدولية

الدولة الإسلامية الأولى وعلاقتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام - أول
معاهدة « دولية » بين المسلمين واليهود والوثنيين -
نموذج قديم لعصبة الأمم - الآن بالحرب الدفاعية
- حرب للأغراض السامية - تنظيم علاقات الشر خير !

من تاريخ
علاقات المسلمين
بالمناهضين
للاسلام

ابتدأت الدعوة الى الاسلام سرا ، فلما جهر بها اشتدت الخصومة ،
وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهادا تمثلت فيه جميع أنواع الأذى ،
فأشار الرسول على أنصاره المستضعفين بالهجرة الى الحبشة فهاجروا اليها .
وبهذه الهجرة ابتدأت أولى الصلات الدولية ، وبقي هو بمكة في منعة من
قومه ، يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم تستطع قريش
صبرا على دعواه ضد آلهتها ، بل ضد حياتها الاجتماعية والاقتصادية ،
فتشاورت في قتله ، وفاوضت بنى هاشم في ذلك على أن تدفع اليهم
ما يرضيهم دية له فأبوا ، فتحالف أهل مكة على قطيعة بنى هاشم ، وكتبوا
بذلك صحيفة علقوها في الكعبة ، فلجأ بنو هاشم ومعهم بنو المطلب الى
شعب من شعاب مكة واعتصموا فيه ضد أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا
على أن يقاطعوا محمدا ومن يمنعه منهم ، فلا يزوجهم ولا يعاملوهم
ولا يؤاكلوهم . واشتد الكرب بمن دافعوا عن الرسول ممن آمنوا به
أو نصره عصبية وأنفة ، ودام هذا الحال سنين ، فلما خرجوا من الشعب
ذهب الرسول الى (الطائف) مستنجدا طالبا حماية بعض زعمائها ، ليمضي
في دعوته فرجع مهيب الجناح ، وقد رد على أشنع صورة ، يتبعه الصغار ،
وهو يمشي دامي القدمين ، يقيموه كلما قعد ، فلا يستريح الى ظل
ولا يأوي الى كهف ، حتى دخل مكة في حماية أحد المشركين ، يسخر منه
أهلها ويبكى لحاله أتباعه المستضعفون .

وجاءت فترة من الهدوء ظن فيها المهاجرون المستضعفون من الرجال
والنساء والولدان أن مكة تؤويهم فرجعوا ، فاشتد الكرب مرة أخرى ،

وأمرهم الرسول بالهجرة الثانية الى الحبشة ، ولقوا بلاء شديدا حتى
فى مهجرهم ، فقد أوفدت قريش رسلاها ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص
(فاتح مصر فيما بعد) يحمل الهدايا الى النجاشى وكبار أهل الحبشة
ليغروهم على تسليم المهاجرين اليهم ، فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجة
وتمسكوا بحق الجوار للملتجىء ، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين
الأمة المحمدية والدولة الحبشية .

واستمرت قريش تكيد للمستضعفين فى مكة حتى استقر رأيها على
قتل محمد وتوزيع مسئولية قتله على بطونها ، فتعجز بنو هاشم عن
المطالبة بثأره .

وفى الليلة التى تم فيها التآمر على قتل النبى خرج من مكة ومعه رفيقه
أبو بكر ، فلما أحس القوم بذلك تبعوهما ، وكانا مختفين بغار ثور ،
فضلوا ثم خابوا فى ادراكهما .

ووصل المدينة فوجد فيها من سبقه من المهاجرين ومن بايعوه من
الأنصار ، وما لبث أن عقد أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود
والمشركين ، وهى من أنفس العقود الدولية وأمتعتها وأحقها بالنظر والتقدير
من الناس كافة ، وأولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين فى أصول العلاقات
الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى . هذا فضلا على أن
عقدها ابتدأت به الدولة الاسلامية حياتها ، وابتدأ الاعتراف بالمسلمين
كدولة .

اول معاهدة
دولية بين
المسلمين واليهود
والمشركين

هذه الوثيقة هى عقد حسن جوار وتحالف دفاعى ، وتعاون ضد
العدوان ، قصد بها صيانة مجموعة من دويلات ، كل منها يتمتع فى نطاق
الميثاق بسيادته الخاصة على قومه ، وبحرية الدعوة لدينه .

ويتكافل الموقعون عليها على نصرة بعضهم بعضا ، وحماية عقائدهم
ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء . وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة
وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على تباين معتقداتهم . واليكم الميثاق (١) :

(١) نقلا عن كتاب « الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » للدكتور
محمد حميد الله الحيدرى أبادى أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية بحيدر أباد دكن

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ — هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .
- ٢ — أنهم أمة واحدة من دون الناس .
- ٣ — المهاجرون من قريش على ربعتهم (١) يتعاقلون (٢) بينهم وهم يفدون عانيهم (٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٤ — وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون ، معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٥ — وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٦ — وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٧ — وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٨ — وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٩ — وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٠ — وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١١ — وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١) امرهم الذي كانوا عليه .

(٢) أسيرهم .

(٣) يأخذون ديات القتلى ويعطونها . وأصله من العقل وهو ربط ابل الدية لدفعها

لاهل القتيل .

١٢ — وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

١٢ ب — وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ — وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيسة (٢) ظلم أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

١٤ — ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن .

١٥ — وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ — وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ — وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

١٨ — وأن كل غازية غزت معنا يعقب (٣) بعضها بعضا .

١٩ — وأن المؤمنين يبيء (٤) بعضهم على بعض بما نال دمائهم في سبيل الله .

٢٠ — وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٠ ب — وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ — وأنه من اعتبط (٥) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود (٦) به الا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

(١) هو من أنقله الدين والغرم فأزال فرحة .

(٢) الدسع الدفع . والمعنى : طلب دفعا على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم .

(٣) أى يكون الغزو بينهم نوبيا يعقب بعضهم بعضا فيه .

(٤) من أبيات القاتل بالقتيل اذا قتلته به .

(٥) قتله بلا جناية أو جريرة توجب قتله .

(٦) فان القاتل يقاد به ويقتل .

٢٢ — وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيام ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ — وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله والى محمد .



٢٤ — وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ — وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (١) الا نفسه وأهل بيته .

٢٦ — وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٧ — وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٨ — وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩ — وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٠ — وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١ — وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

٣٢ — وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ — وأن لبنى الشطية مثل ما ليهود بنى عوف وأن البر دون الاثم .

٣٤ — وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ — وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ — وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد .

٣٦ ب — وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم ، وأن له على أبر هذا .

(١) يهلك ويفسد .

٣٧ — وأن على اليهود تفقتهم وعلى المسلمين تفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

٣٧ ب — وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٣٨ — وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ — وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ — وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ — وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٤٢ — وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٣ — وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ — وأن بينهم النصر على من دهم يشرب .

٤٥ — وإذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه فأنهم يصلحونه ويلبسونه ، وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين .

٤٥ ب — على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٤٦ — وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٧ — وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وآثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

في هذا الميثاق وضع أساس الدولة المحمدية وأصبح المؤمنون والمسلمون رعايا هذه الدولة على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم أسيادا أو موالى أمة واحدة دون الناس .

هذه الأمة تتعاقد في هذه الصحيفة مع أمم أخرى من دياقات أخرى ، فينشأ في أول تعاقد لها ميثاق « لجمعية أمم » أساسه النصر للمظلوم والنصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جوارحه ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائهم وحريتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان ، فهو ميثاق من الأمم الاسلامية واليهودية بل والوثنية ، لما في يثرب وقتئذ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المكونين لأطراف العقد . ولو كان في المدينة حينئذ مسيحيون لنص عليهم الميثاق .

ولقد سبق الاسلام بهذا الميثاق عهد « عصبة الأمم » الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وهذا التحالف ابتداء به رد الفعل لاضطهاد وظلم دام أربع عشرة سنة ، لم تمنع منه عظة حسنة ، ولا لين ولا قربى ولا رحم ولا هجرة .

سلطت قريش ومن معها جميع أنواع الأذى والظلم ، فأصابت المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزقتهم وشتتهم في الأرض ، وهم يأبون الرد ، ويدعون الى تحكيم العقل ، ويناضون ليتبين الرشد من الغي . لا يدفعون قوة بقوة ، ولا يلجأون الى عنف .

فلما بلغ السيل الزبى جاء أمر الله وأذن بالقتال وأحلت الحرب للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرية العقيدة ، ونزل حكم الله في هذه الآية الجليلة .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين

ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا
عن المنكر .

وضع الرسول الأساس المتين للدولة العالمية وللعلاقات الدولية فى
الميثاق الذى ذكرنا على أساس الحرية للمشاركين فيه والاستقلال .

ثم نزل حكم الله بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة ، منها ما هو
سلبى ، وهو دفع العادية ومنع الظلم ، ومنها ما هو ايجابى وهو الخير
العام أو الصالح العام فقال تعالى .

حرب للأغراض
السامية

« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فتبين الواجب بعد النصر ، وحدد المقصود منه ، فليس توسعا فى
الملك كما تفعل الدول المستعمرة ، وليس تعجيزا للآخرين وانهاكا لهم
ليضعفوا عن المزاخمة فى العيش ، ويطردوا من الأسواق وميادين التجارة ،
ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة
ليستأثروا بها ، ولا علوا واستكبارا فى الدنيا ، لكى تكون أمة أربى من
أمة ، وجنس أعلى من جنس ، ولكن لغاية واضحة محدودة ، هى أن
يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .

ولما حاول الأوروبيون والأمريكيون بعد أن أكلتهم الحرب الماضية
أن يبينوا الحالات التى تكون الحرب فيها مشروعة ، وأن يحددوا
أغراضها ، ويسيطروا على شهواتهم ، فعقدوا لذلك المواثيق فى عصبة
الأمم وفى ميثاق (كيلوج) استبشرنا وقلنا ان سنن محمد صلى الله عليه
وسلم قد أخذت تسود التفكير العالمى . وانا لنترجو أن تكون الحرب
الأخيرة خاتمة الضلال ، وأن يجد الناس فى قواعد العلاقات الدولية التى
سنتها الشريعة المحمدية هدى ومخرجا مما هم فيه . فميثاق محمد مع
اليهود والمشركون فى المدينة هو أول عهد دولى فى سبيل صيانة السلم على
أساس المنفعة العامة والحرية للجميع .

ومشروعية الحرب لدفع الظلم وضمان الحرية ، وتحديد الغرض منها
بالخير العام ، هما أيضا الأساس الصالح الذي يجب أن تبنى عليه العلاقات
الدولية في المستقبل .

أتت الشريعة المحمدية قبل ثلاثة عشر قرنا بنظام كامل من عهود
التحالف والتكافل والتحكيم ، وجعلت الحرب ضد المعتدين زجرا وتأديبا
لا محوا وتعذيبا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « وأن
احكم بينهم بما أنزل الله » « فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى أمر الله فان
فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

وسيتبين في الفصول التالية هدى الاسلام في سبيل التنظيم الدولي
واقرار السلم الدائم على أساس العهود المقدسة الصالحة .

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها - الحرب النظامية
هى المباحة - وصايا وتحسيس اذا وقعت الحرب -
الاسلام دين على - فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة
- الحرب الهجومية غير مباحة - الحرب لأغراض
مادية غير مشروعة - ضرورة تقدر بقدرها - الضعف
والذل ظلم للنفس .

تحديد أسباب
الحرب
وأغراضها

أشرنا الى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم الاذن بالقتال ،
وقد أصبحوا فى منعة بالهجرة الى المدينة وبالميثاق الذى عقده مع جيرانهم
من أهل الملل والنحل الأخرى .

والآن لننظر فى الحرب من الوجهة الاسلامية : أسبابها وملايساتها
وأغراضها ، فان ذلك مما يعين على تصور حالة قد يكون فيها العلاج لداء
العالم الحاضر ، ويفتح الأذهان الى الهدى والتبصر .

أذن بالقتال فى هذه الآية الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،
وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن
يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع
وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ان
الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

فلاسلام حين أباح الحرب قد علل هذه الاباحة ، وحدد المقاصد
والأغراض منها : فهى دفع الظلم ، واحترام حق الاقامة ، والحرية فى
الوطن ، ومنع الفتنة فى الدين ، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعا .

وهذه الحرية للناس جميعا واضحة من تحديد أماكن العبادة لسبل
مختلفة ، من صوامع وبيع للنصارى وصلوات لليهود ، ومساجد للمسلمين ،
فقد أباح الحرب لصياتها من عدوان المعتدين . كذلك يقول تعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

ففى هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمدية على جميع الدعوات ، لتحديد الغرض من الحرب ببرد الطغيان ، وبإسقاط مشروعية الحرب بمجرد أن ينتهى المعتدى من اسرافه واعناته فى فتنة الناس ، وعندئذ لا يتجدد القتال وتستمر الحرب الا على ظالم ، يصر على الظلم ، ممن يكرهون الناس على ترك دينهم . والفتنة والاكراه وسلب الناس حريتهم فى دينهم أبغض الى الله حتى من ازهاق النفوس « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير . وصدد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

الحرب الدفاعية
هى المباحة

واذا تقصينا آيات الكتاب الكريم فى القتال ، ورجعنا الى ظروف التنزيل ، وتتبعنا الحوادث فى حياة الرسول وحروبه وسراياه ، حربا حربا وسرية سرية ما خالجننا شك فى أن الحرب المشروعة فى الاسلام هى الحرب الدفاعية ، ولا يسمح المقام باستقصاء وتفصيل للحوادث ، ففى كتب السنة والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يعين الباحث على الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الاسلامية ، ومن التزام الاسلام جانب الدفاع . وما جاء من قتال المشركين حيث وجدوا ، والأغلاظ عليهم ، والقيود لهم كل مرصد ، والتشريد بهم من خلفهم ، وشد الوثاق ، هو ما كلفنا به بعد وقوع الحرب ، فهو نتيجة لها لاسبب لاعلانها .

فأقواله تعالى :

« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، وماؤاهم جهنم وبئس المصير » . « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » « فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم يستهون . ألا تقتاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم »

وصايا وتحميس
إذا وقعت الحرب

فإنه أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم . » وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . » واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . » انفروا خفاً وثقالاً . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . »

هذه الأقوال إنما هي آيات توحى إلى القارىء بنفسها أن حالة الحرب قائمة ، وأنها تحريض على الاستمرار فيها والصبر عليها والترغيب في الوصول بها إلى خاتمة يطمأن إليها ، من الأمن والسلام للمؤمنين ، والحصول على ثبات واستقرار للدين ، ومنع من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهرهم ، وأمل في أن ينتهي المعتدون عما هم عليه .

الاسلام
دين على

ومن مزايا الشريعة المحمدية الجليلة أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والفطرية ، وتجاوب المعضلات بالحل العملي ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام أعداء الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة ، وما دام أهل الشر ذوى سلطان خطر ، فإن الحرب واقعة بين الناس ، فلم يقف الاسلام أمام هذه الحقائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لازما الرسول في دعوته طول حياته ، فأمر بالاستعداد لها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فجعل العدة نفسها للارهاب الذى قد يمنع الحرب ويحفظ السلم .

وحين لم يبق للمسلمين سبيل الا الحرب ، وأصبح حقهم في ذلك واضحاً ، أيسح القتال وكانت السلم هي المقصد الأسمى له ، لقوله تعالى « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ولقوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

والحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

فان قامت الحرب الدفاعية المشروعة وقد استحكمت أسبابها ، وجب القتال على الناس كافة ، وأصبحت فريضة الجهاد على كل مسلم ومسلمة تؤدي من صميم الوجدان وفق أوامر القيادة الاسلامية الممثلة في شخص ولي الأمر ، وعندئذ تتجلى الهمم العالية التي يريد بها الاسلام ، فيحرم النكوص والفرار ويطلب الصبر والمصابرة والفداء والاستبسال وبذل الأرواح والأموال بسخاء ، وهجر المنازل والأوطان في حالة استيلاء العدو عليها .

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ولا يكلف الاسلام بقتال عنيف يستحقون على الفرار منه لعنة الله وغضبه وعذابه الا اذا كان هذا القتال حقا مشروعا ، دفاعا عن أقدس ما يدين له المؤمن . وهو في هذا التكليف يأمر المؤمن . بالصبر والثبات وألا يولي الكفار دبره ، حتى ولو كان يقاتل بنسبة واحد لعشرة ! والتكليف بهذا هو التكليف بالمستحيل ان لم يقتنع المقاتل تمام الاقتناع بأنه يقاتل عن حق لا محل للشك فيه ، هو حق الدفاع عن النفس والعقيدة ضد من يعتدى عليها . ولا يمكن في حرب العدوان أن يحمل الناس على الصبر واحدا لعشرة ، وهم يعرفون أنهم هم الذين اعتدوا وأضرموا نار الحرب ، فانهم عندئذ لا يجدون من أنفسهم صبرا ، اذ لا داعي للفداء بالنفس والرغبة في الموت دون الحياة .

فتلك الآيات الجليلة التي تعرض على القتال والاستبسال والاستشهاد والتشديد على العدو ومفاجأته والغلظة عليه والتربص له ، وسد جميع المسالك والمنافذ في وجهه ، والتي تدعو الى بذل الأموال وهبة النفوس وهجر الأوطان في سبيل نصر الله ، واضحة في أنها تعرض على حرب دفاعية مشروعة بشرعية الاسلام .

الحرب الهجومية
لا يبيحها الاسلام

الحرب لاغراض
مادية غير
مشروعة

واذن يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال ، ومن عمل النبي نفسه في سنته ، ومن السيرة وتاريخ حروبه ، أن الاسلام لا يبيح حرب الاعتداء ، ولا يحل الحرب لعرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة . أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس ، كسيادة عنصر على عنصر ، أو شعب على شعب ، أو استعلاء ملك على ملك ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى ، أو توسيع رقعة مملكة ، أو أغراض حرية وامترائية ، أو الأغراض الاقتصادية ، أو الاستتار بالمواد الخام والأسواق التجارية ، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لاشغال الحرب وتقض العهد وهدم السلم الدائمة ، فليس ذلك كله في شيء مما أباح الاسلام القتال لأجله ، ذلك لأن غايات الاسلام انسانية سامية يعم نفعها الناس جميعا ، ونظرته علوية تقع على البشر جميعا كأسرة واحدة متكافلة ، والله تعالى ليس رب المسلمين وحدهم ، بل رب العالمين ..

« يا أيها الناس ان خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » « كلکم من آدم و آدم من تراب » « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

ضرورة تقدر
بقدرها

فالاسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات متنوعة مع جيرانه والأمم الأخرى تكفل دوام السلم ، ولا تكلف هذه الأمم أكثر من أن تكون لها رغبة حقيقية في السلم ، ونية صادقة للوفاء بالعهد ، وهو مع هذه الرغبة الأكيدة في دوام السلم لا يستعجل الحرب ولا يباغت بها ، بل يقيم حجته ويبسطها لمنازعه وينذره ، ويضع أمامه المخارج من مأزقه ، فاذا عاند وأبى الا قتالا وأصر على عدوانه ، كانت الحرب ، وكان ذلك التحريض عليها

والاستبسال والفتك بمن اعتدى ، والصبر والمصابرة والبذل والتضحية والهجرة وكل ما ينطوى عليه الفداء بالأموال والأنفس مما جاءت به الآيات الجليلة التي ذكرنا بعضها ، والتي يتخذها بعض الناس ، وخصوصاً الإسلام وسيلة لتصوير الدعوة المحمدية بأنها دعوة دموية جعلت الحرب عنصراً دائماً لقهر الناس واستباحة أموالهم وأنفسهم .

فالدعوة المحمدية واضحة النهج مستقيمة ، ابتدأت بتحريم القتال ، فلما ظلم أهلها واستحال ظهورها بغير دفع القوة بالقوة ، أباحتها ، فلما أذنت به أمرت أن يكون على أكمل وجه يؤدي للنصر ، فلما كان لها النصر نادت بأن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

وهي دعوة موفقة تواجه الحق بالحق وبالصراحة والاخلاص . فما دام أهل الشر لا يريدون إلا شراً فإن من ظلم النفس أن يصبر الناس على الضيم ، وأن يستضعفوا في الأرض .

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ومساءت مصيراً . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم » .

الضعف والذل
ظلم للنفس

فكما ان الدعوة المحمدية بغضت أتباعها في العدوان اذ قال الله تعالى : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ، أمرت كذلك بالهجرة عن الأوطان ، بل بالاستشهاد والموت دون قبول الذل والهوان .

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والاسلام - قصة حلف الفضول
- حلف مرغوب فيه دائما - لاتحالف في الاتم والعدوان
- وصايا قرآنية بالعدالة الثالثة - حرب اخرى
مشروعة - حلف جاهلي آخر يجدد بروح اسلامية -
المسيحية والحرب - اختلاف المسيحيين فيها - الحرب
العدالة عند بعض المسيحيين - لجوء المسيحيين الى
شبيه بالنظرية الاسلامية .

مبدأ شريف
في الجاهلية
والاسلام

مما يشرف الدعوة المحمدية أنها أباحت القتال ، بل جعلته من الفضائل
لرد المظالم ودفع العدوان عن الضعيف ، سواء أكان فردا أم جماعة ،
رغبة منها في اقامة حصن العدل الذي يريده الله على الأرض .

وقد جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لرد المظالم ، كما جلس
لذلك خلفاؤه من بعده ، وييده سلطان الدولة لقهر المعتدى ودفع الظلم .

قصة
حلف الفضول

وأقر صلى الله عليه وسلم « حلف الفضول » ، وهو ذلك الحلف الذي
عقد في الجاهلية لنصرة المظلوم ، وقال « لو دعيت اليه في الاسلام لأجبت » .

وسبب ذلك الحلف أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها
منه رجل من بني سهم ، قيل انه « العاصي بن وائل » ، وامتنع بسلطانه
عن أن يدفع للرجل ثمن بضاعته ، أو يرد اليه ماله ، فقام الرجل بجوار
الكعبة وصرخ بأعلى صوته :

يا لقصى لمظلوم بضاعته يبطن مكة نأبي الدار والنفر !

فقام نفر من قريش وردوا عليه ماله ، ثم اجتمع بنو هاشم والمطلب
وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان
وتحالفوا على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم . وكان النبي
صلى الله عليه وسلم معهم ، وسنه وقتئذ خمس وعشرون سنة ، وكان
إذا ذكر حلف الفضول يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف

الفضول ، أما لو دعيت اليه في الاسلام لأجبت وما أحب أن لى به حر
النعم وأنى تفضته ، وما يزيده الاسلام الا شدة » .

فاذا قد أقر النبي صلى الله عليه وسلم حلفا تعاقد فيه طائفة من الناس
على القتال لنصرة المظلوم وقال انه يفضل على خير ما في الدنيا ..
وبذلك أصبحت الدولة الاسلامية مكلفة شرعا برد المظالم ، بل والقتال
لنصرة المظلوم .

ونستطيع اذن أن نقرر ان الاسلام الذى أباح الحرب للأسباب الواردة
في الآية الجليلة : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم
لقدير » . وما بعدها - وقد ذكرناها في الفصل السابق - يبيح القتال
كذلك لنصرة المظلوم فردا أو جماعة ، مسلما أو غير مسلم ، لأن رسول
الله صلى الله عليه وسلم الذى نزهه الله عن ضلالات الجاهلية منذ صباه
قد اشترك في حلف الفضول قبل بعثته ، وأقره في الاسلام ، وقال ان
الاسلام ، لا يزيده الا شدة .

فلكما أن الحرب تقع للدفاع عن النفس من مظلوم ضد ظالمه ، انها تقع
كذلك من قوى على قوى لنصرة مظلوم لا يتنى لأحدهما . واذن يجوز
لدولة اسلامية أن تتحالف مع دولة أو دول أخرى لدفع الاعتداء والظلم
عن المظلومين .

فارتباط مصر كدولة اسلامية في ميثاق (هيئة الأمم المتحدة) مثلا
لا ضرر فيه من الناحية الشرعية . ومتى حسنت النية وكان الميثاق قائما
على حب الخير والعدل والانصاف وحماية المظلوم ومنع الاعتداء بالقوة
فانه يكون ميثاقا مرغوبا فيه من المسلمين ، حكمه حكم حلف الفضول
الذى لم يزد الاسلام الا توثيقا وشدة ، والذى كان من أحب الأشياء
الى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حلف مرغوب
فيه دائما

أما اذا كانت الموائيق للتعاون على الظلم ولقهر المغلوبين واستباحة
المستضعفين ، فان الاسلام يعدها تعاونا على الاثم والعدوان الذى ينهى
عنه ، وبعدا عن التقوى والبر الذى يدعو اليه . قال تعالى « وتعاونوا
على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . والأعمال في

لا تحالف في
الاثم والعدوان

الاسلام كلها مرجعها النية فهي التي تصلحها أو تفسدها ، والعبرة فيها
ما تقصد اليه من خير ، وما تريده من العدل الذي هو أساس نظام الخليقة
كلها . يقول تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » ويقول تعالى
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين » الى آخر الآيات التي ذكرناها في فصل سابق .

فكتاب الله وسنة رسوله وأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو
غاية الشريعة . وعليه فإن القتال لنصرة المظلوم من عباد الله هو أمر يستحق
ثواب الله ، وللدولة المسلمة أن تعلن الحرب وهي في حدود الشريعة ما دام
مقصدها الانصاف ودفع الظلم عن الغير .

وفي نظري أن هذه هي الحالة الوحيدة التي تكون فيها الحرب
مشروعة ولو لم تكن دفاعية بالنسبة لجماعة المسلمين الذين هم في منعة
بقوتهم عن أن يعتدى عليهم .

وعلى هذا الأساس يجوز للدولة الاسلامية كما قلنا أن تشترك في
ميثاق كميثاق (هيئة الأمم المتحدة) أو ميثاق (كيلوج) مثلاً متى ثبت
لها أن ذلك يقيم العدل بين الناس ، كما ان لها أن تدعو الى ميثاق أو حلف
لرد المظالم وانصاف المستضعفين .

وليس لها بالطبع أن تقاتل أو تشترك في قتال تدعى اليه ما لم تبين
بكيفية لا محل للريب فيها أنها تقاتل دفاعاً عن النفس ، أو دفاعاً لظلم بين
يقع على مستصرخ مستضعف لا يكون العدل والانصاف الا باغاثة
ونصرته ، كالحالة التي أشرنا اليها في حلف الفضول .

واليكم حلفاً آخر عقد في الجاهلية وجدد في الاسلام ، وهو بين
في اباحة الحرب لنصرة المظلوم ، وبين في منع التعاون على الباطل
والاعتداء .

في هدنة الحديبية بين قريش والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان
الشرط الرابع من شروط الهدنة « أن من دخل في عهد قريش دخل فيه ،
ومن دخل في عهد محمد دخل فيه » وبناء على هذا الشرط تحالف بنو بكر

مع قريش ، وتحالفت خزاعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبيلة خزاعة حليفة في الجاهلية لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرادت خزاعة أن يكون ميثاقها مع الرسول مجددا كما كان مع آبائه .

وهذا نص محالفتها مع عبد المطلب « باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق ، الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وقد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأثق عقد لا ينقض ولا ينكث ما قام الأخشيان (جبلان بمكة) واعتمر بمكة انسان . وان عبدالمطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبد المطلب النصرة لهم ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب في شرق وغرب وحزن وسهل ، جعل الله على ذلك شهيدا وكفى به وكيفا » .

فأقر النبي صلى الله عليه وسلم نصوص هذه المحالفة وجدد عهدها ؛ غير أنه زاد فيها شرطين : الأول ألا يعين خزاعة اذا كانوا ظالمين ، والثاني أن ينصر خزاعة اذا ظلموا ، وبعد أن زاد هذين الشرطين كتبت نسختان من هذه المعاهدة تسلم كل طرف نسخة منها .

لم تكن خزاعة وقتئذ قد أسلمت بل كانت لا تزال على شركها ، وكل ما بينها وبين الرسول هو تلك العلاقة الجاهلية التي كانت مع جده ، وكان أساسها تحالفا على الحق والباطل . فشرط الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المحالفة يدل على عدة أشياء .

اولا — أنه لا يقر المحالفة على أساس تعاون غير معين قد يجره الى باطل ، وهو الذي بعثه الله لاقامة العدل ، بل اشترط فيها صراحة ألا يعين خزاعة حليفته اذا كانت ظالمة .

ثانيا — أنه لا يتمتع عن نصرة مظلوم ولو كان مشركا .

ثالثا — أنه تعهد بنصرة هذا المظلوم ولو أنه مشرك مخالف في الدين .

رابعا — أن أساس الحرب المشروعة هي الحرب الدفاعية ، سواء أكانت هذه الحرب دفاعا عن النفس أم دفاعا عن طرف ثالث يستحق

النصرة ، وهى مباحة فى حالة عدم الالتزام بها وواجبة فى الحالة
المماثلة لحالة خزاعة ، اذا كانت لنصرة معاهد مظلوم .

* * *

لقد حاولت بعض الأديان الأخرى قبل الاسلام أن تخفف من ويلات
الحرب ، وأن تضعف من شرها وأن تحدد بلاءها ، حاولت محاولات
صادقة ولكن مع الأسف قد طغت طبيعة الشر .

المسيحية والحرب
جاءت المسيحية بتحريمها الحرب بتاتا بقول السيد المسيح عليه
السلام فى انجيل متى « أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من
لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا
فاذهب معه ميلين » .

ويستند كذلك أنصار الرأى القائل بتحريم الحرب تحريما مطلقا الى
قول المسيح عليه السلام للقديس بطرس « أعد سيفك الى مكانه ؛ لأن
كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » وعلى هذا تحرم
المسيحية الحرب بل التسليح أيضا .

اختلاف
المسيحيين
ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد ؛ فبينما كان رجال الكنيسة الغربية
فى القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحرب حتى ولو كانت
دفاعا عن النفس ، فان رجال الكنيسة الشرقية فى بيزنطة قد خلطوا بين
شخص الامبراطور سيد العالم وبين الرئاسة الدينية ، فجمعوا فى ذاته
سلطان الله وسلطان الدولة ، وسارت بيزنطة فى طريق مخالف تماما لرأى
رجال الكنيسة الغربية ، فلم تكتف بتحليل الحرب التى حرمها المسيح ،
ولا هى اتخذت طريقا وسطا فأحلتها للدفاع عن النفس أو نصرة المظلوم
كما فعلت الشريعة المحمدية ، ولكنها رضيت أن يكون حق اعلان الحرب
حقا مطلقا للامبراطور ، لا يحده الا المصلحة التى يراها ذلك الامبراطور
جامع كل السلطات .

لقد كان ظهور المسيحية فى العصور الأولى خيرا وبركة على البشر ،
فقاومت أصول الشر فى نفوس أتباع المسيح ، وصانت دماء غزيرة كان

بريقها السلب والنهب والعدوان والطفیان . ولا شك أن المسيحية استمرت طويلا تكافح الى أن نسي الناس دين المسيح ودعوته ، وأقاموا من شهواتهم وأغراضهم ومصالحهم كل الأسباب لحروب الطفیان التي اکتوى البشر بنارها في الشرق والغرب طول العصور الوسطى وما بعدها الى يومنا هذا .

الحرب العادلة
عند بعض
المسيحيين

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التمسك بتحريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية ، وبذل آخرون جهودا جبارة في سبيل التوفيق بين نص الانجيل وضرورات الدولة ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة ، وأثاروا البحث فيما هي الحرب العادلة ؟ فحددوها بأن يعلنها الأمير ، وأن تكون عادلة ، واشتروطوا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية صادقا بلا طمع ولا وحشية .

والحرب في نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر وسيلة لتنفيذ حكم عادل قضى به قاض ، فلا تبعثها الأناية وانما يحدوها العدل وتلبسها الرحمة .

ولا يسمح المقام بسرد النظريات المسيحية وتطورها ، فيمكن للراغبين في التفصيل الرجوع اليها في مراجعها .

ولكننا نستخلص من ذلك الجدل وتلك الأبحاث ، بعد أن دامت أكثر من ألف سنة ، أنها اهتمت الى مبادئ هي أشبه شيء بالقواعد الاسلامية للحرب المشروعة والحرب العادلة التي أشرنا اليها في هذا الفصل وما قبله .

وفي اعتقاد أن القواعد الاسلامية هي الأسس الصحيحة التي جمعت بين ما يقتضيه اقامة صرح العدل العالمي ، وما تقتضيه الرحمة والأخوة البشرية ، وما يقتضيه الانصاف وكبح أهواء النفوس الشريرة ، وما يقتضيه صون الدماء واقامة السلم الدائمة على حرمة مقدسة .

لذلك فاني أدعو ذوي البصيرة والنظر لاستمداد الشريعة المحمدية في وضع نظام للعلاقات الدولية والسلم العالمي ؛ فعلى ضوء المبادئ

لجوء المسيحيين
الى شبيهه بالنظرية
الاسلامية

السامية العملية التي دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم يمكن تجديد ميثاق جامعة الأمم ، ويمكن اجتناب اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق الأغراض والمطامع البشرية .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روح الميثاق الدولي :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

ولا شك أن هذا النظام للمؤمنين يمكن أن يكون نظاما للناس جميعا ، ويمكن للدول الاسلامية أن تتعاهد عليه ، وأن تقاتل لاحترامه ورد من ينتهك حرمة .



نصرة المظلوم
ضرب من
التكافل

« وبعد » فالحرب لنصرة المظلوم لا يراد بها أغراض دنيوية ولا تحقيق مطامع دولية ، ولا شفاء حسد أو حقد ، وانما تقع لمجرد احقاق الحق ودفع الباطل ، وهي حالة ظاهرها التدخل بين طرفين آخرين والاعتداء على أحدهما لنصرة الآخر ، الا أن حقيقتها الدفاع ، لأن المقصود منها رد العدوان عن مستضعف . واذا اعتبرنا أن التكافل البشرى سبب العمران ، وأن العدل أساسه ، فالحيلولة بين المعتدى وبين تقض أساس العمران هي دفاع عن العمران نفسه ، وهو على هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدى بمنعه من شر نفسه . واذا قيل ان هذا يأذن بالتدخل المستمر في شئون الغير ، والتدخل اعتداء من الدولة الاسلامية ، وقيل ان الدولة غرضها نفسها ، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطيا عالميا ، قلنا ان هذه الحالة

هى الوحيدة فى نظرنا ، وهى مبررة ، وان العالم يحس من أعماق نفسه الحاجة الى من ينصف المستضعف ، وان الدول الأوربية بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من حلف الفضول وحلف خزاعة ، حاولت أن تقيم فى ميثاق عصبة الأمم عهدا مماثلا لما أرادته الاسلام من نصرة المظلوم ، فأقرت مبدأ التدخل الجماعى للسلامة الجماعية ، ولاحقاق الحق وازهاق الباطل . والعبرة فى الأعمال بالنية ، فهى التى تصلح الأعمال أو تفسدها . ولا شك فى حسن نية الدولة الاسلامية ما دام الباعث لها على التدخل الذى يجر الى الحرب هو ما يوصى به الضمير وتستلزمه العقيدة من غرض سام يقصد به وجه الله وحده ولاحقاق الحق .

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيا - أدب عام
وأدب خاص - بين الإلدار والمباغثة - حماية حقوق
المستأمن المنتسب للعدو - من سماحة الفقهاء - وأصل
ابن عطاء والخوارج - مسألة غير المخاريين - الغارات
العصرية على الأمنين - قرار إلى وصايا الرحمة في
الاديان - التخريب القاسي - حوادث ونصوص -
نظرات في أحكام الأسر والاسترقاق - حادثة بنى قريظة
ونغموض بعض ظروفها - لاقتل بسبب الشرك أو الكفر
وحدة - احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص -
أدب أخرى للحرب

الحرب والرق
والقضاء عليهما
تدريجيا

أجازت الدعوة المحمدية الحرب في أضيق نطاق كما تفاضت عن الرق
لأنه كان أيضا نظاما عالميا ، وعملت تدريجيا على منع الحرب ومنع الرق
بأساليبها المختلفة ، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المن أو الفداء ،
فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعا للرق . وبالحض بجميع الوسائل
على تحرير الرقيق ، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب ، وبالإحسان
إليه وفقا لأداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع ، قاومت
الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعل في تهيئة الضمير
البشرى للقضاء عليه من المفاجأة بالتحريم البات .

كذلك الحرب ، جاءت الدعوة المحمدية والقتال نظام عام متأصل في
نفوس البشر وفي حياتهم الاجتماعية ، فلم يبدأ الإسلام بتحريمها ، ولكنه
حصرها في دفع العدوان ونصرة المظلوم فحدد أغراضها ، ثم أمر بوقفها
بمجرد جنوح الخصم إلى السلم ، وأنهاها بالعهود والمواثيق التي لها
حرمة الإيمان ، حتى جعل حق الميثاق فوق حق صلة الإسلام ، فأحاط
الحرب بحدود ونظم وأسباب وأغراض وعهود وعرف في أثناء القتال ،
مما يقلل وقوعها ويخفف من ويلها . ولو أن المسلمين وفقوا في هذه
كما وفقت الدعوة المحمدية في مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كما

شملة اليوم النفور من الرق . وانا لندرجو أن تدرك هدفها في العصر الآتى ،
وقد طغى شر الحرب الى درجة غير مسبوقة . ولا يزال أمام العالم مجال
إذا اهتدى بهدى الاسلام .

ادب عام
وادب خاص

عرفت الدعوة المحمدية الحرب شرا واقعا متأصلا فأحاطتها بأدب عام
من تعيين غرضها ، وحصرها في دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ،
وانهاؤها بالعهد المصونة العادلة ، واحاطتها كذلك بأدب خاص في أثناء
الحرب نفسها ، وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عرف يرعونه ،
فمتى وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المسلمين
أن يندروا عدوهم بنيتهم ، ويمهلوه للرد والتفاهم ان أراد . وقد قال بعض
الفقهاء ان هذه المهلة التي تعقب ما يسمى اليوم بالانذار النهائى يجب
أن تكون كافية ليخبر العدو بها أطراف أهله ودولته ، وهو أدب يتفق
مع القانون الدولى الحديث . ولكن بعض الدول في هذا العصر تختار
المباغته بالحرب والهجوم على الخصم من غير انذار ، بل قد بلغ من احتياط
بعضها لتتمكن من تمام المفاجأة للدولة الأخرى أن تتظاهر بالرغبة في دوام
السلم وأكثر من ذلك أن تخفى غضبها وتظهر عدم اهتمامها بالنزاع الذى
تنوى الحرب من أجله !

الانذار

افتن أهل الحضارة الحديثة في الخديعة الى درجة غير مسبوقة في
تاريخ الأقوام ، حتى صاروا يعقدون عهودا المقصود منها تغليل المعاهد
وطمأنته ، حتى تكون مباغتته وأخذه على غرة كاملة .

ذلك أدب جديد ، أو سوء أدب جديد في الحروب ، ليس أبغض الى
الاسلام منه ، والشريعة المحمدية تأباه روحا وفعلا ، وتعد فاعله آثما
مستحقا غضب الله .

والشريعة الاسلامية بعد أن تنذرالخصم بالحرب ، وبعد أن تنقطع
الحجة ، لا تلجأ الى مثل ما تلجأ اليه الدول في العهد الحاضر من مفاجأة
المستأمنين في ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التي أعلنت عليها الحرب ؛
فللمستأمن في الشريعة الاسلامية حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد
وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم ، أو يقع في متناول

حماية حقوق
المستأمن المنتسب
للعدو

سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله ، أو الاضرار بعمله أو شخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى تهيأ له العودة الى وطنه الأصلي ويدخل في حماية قومه . عندئذ وعندئذ فقط يجرى عليه ما يجرى على المحاربين ، وذلك بنص القرآن بقوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وقد بلغ من حرص المسلمين على احترام حق المقيم في ديارهم والنازل بهاعن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الامام اذا وقت للمستأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فان في ذلك الحاق العسر به ، خصوصا اذا كانت له معاملات يحتاج في اقتضاؤها الى زمن طويل .

من سماحة الفقهاء

وقد بلغ من انصافهم هذا الأجنبي المقيم في ديارهم ، والذي يقاتلون أهله ودولته ، أن أباحوا له التمتع بكامل حريته ، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب ، مادام خاضعا لأحكامهم ، مستقيما في سيره وعمله ولم يركن الى أذاهم بحال من الأحوال .

أقام الاسلام هذا الأدب مع المستأمن في حالة الحرب على أساس العدل والانصاف . وما الحروب في جملتها الا نتائج مباشرة لفقدان العدل والانصاف .

ومن أظرف ما قرأته مما يدل على مقدار ما للمستأمن من حرمة ، ما روى من أن واصل بن عطاء (زعيم المعتزلة) وقع هو وبعض اصحابه في أيدي الخوارج ، وهم كما هو معلوم من أشد المسلمين تمسكا بأهداب الدين وتعصبا في آرائهم ، فخشي واصل وأصحابه شرهم ، فقال لأصحابه : دعوني وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج اليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . فجعلوا يعلمونه أحكامهم ثم قالوا : امضوا مصاحبين فانكم اخواننا . قال واصل : ليس ذلك لكم فان الله تبارك وتعالى يقول : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره

لطيفة بين واصل
ابن عطاء
والخوارج

حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا فنظر بعضهم الى بعض ثم قالوا ذلك لكم . فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

تلك القصة تدل على أن الحرمة التي للمستأمن كانت في نظر بعض أنصار الدعوة المحمدية أعظم من الحرمة التي للمسلم على المسلم ، حتى أن أحد علماء المسلمين وجد فيها خلاصا لنفسه ومن معه من يد مسلمين يقطعون طريق السابلة ويعصون الامام .

مسألة غير
المحاربين

ومن القواعد الأساسية التي بنى عليها أدب الحرب في الدعوة المحمدية ذلك المبدأ السامي ، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى ؛ فهو لا يجوز قتل الشيخ أو الصبي أو المرأة أو العجزة ، أو من انقطعوا للعبادة أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشتركوا في القتال ، أو العامة من الصناع والزراع والتجار الذين لا يقاتلون ، أو بعبارة أعم ، تلك الطبقات التي نطلق عليها اليوم : المدنيين .

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم ، وقد بلغ حرص الشريعة على تجنبهم ويلات الحروب وابعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر في القوات المقاتلة أن الفقهاء قالوا بوقف القتال اذا وقع بين صفوف المقاتلين من لا يجوز قتله وكان هلاكه محققا بالاستمرار في القتال .

أين هذا الأدب ونبل الفروسية مما نحن فيه وما صار الناس اليه في الحرب الأخيرة والتي قبلها من القاء القنابل على غير هدى ، تصيب النساء والأطفال والزراع والصناع والشيوخ والعجزة فتسف بهم الأرض نسفا ، أو تحرقهم وديارهم حرقا ؟ !

أين تلك الحرمة للنفوس البشرية ؟ وأين تلك النظرة للحرب على أنها تحكيم للسيف بين حامليه وحدهم ، من هذا الأدب الحديث الذي لا يشبهه من قرب الا ما قيل عن المغول أيام (جنكيز خان) ومن بعده ، مما لا يزال مثالا في الغابرين لأقصى ما وصلت اليه وحشية الهمج في قتل غير المحاربين ، وتخریب المدن والقرى ؟ !

ليس لما يأتيه اليوم المتحضرون بغاراتهم الجوية ، أو مدفعياتهم الأرضية شبيه في السوء والقسوة حتى ما كان أيام ذلك الطاغية المغولي قبل سبعة قرون ، بل ان ما يحدث اليوم من استباحة كاملة لكل الحرمات بالغارات الجوية منقطع النظير . والشرعية الاسلامية تحرمه وتأباه في سلطانها وضعفها غالبية أو مغلوقة . وان أباح الفقهاء الرد على أعمال التخريب والتقتيل غير المباحة بمثلها متى ابتدأ بها الخصم ، مستندين على قوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » فهم متفقون على تحريم الابتداء بهذه الأعمال . وواضح من نص الآية وروحها أن المقصود الرد بالمثل لانذار الخصم واقناعه بالعدول عما اقترف من اثم . وقوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » هو تأكيد كذلك لرغبة الشارع في الا يجاب على أعمال العدوان المخالفة للرحمة والأدب الا اذا قضت الضرورة القصوى .

أين هذا العرف الدولي والأدب الحربي الذي تريد تشيته الدعوة المحمدية ، فتجعله جزءا من العقيدة والايان ، مما تفعله الدول اليوم من التعويل على وسائل قتل المدنيين وتخریب العمار وحرق الناس وأموالهم وثمرات الأرض لتخضع خصومها وتجبرهم على لقاء السلاح !

الغارات المصرية
على الامنين

بل أين هذا مما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة الجوية بقنابلها ومدافعها الرشاشة لقتال بدو لا يملكون من وسائل الحرب غير بنادق من بقية القرن الماضي ، وتسليط هذه المدافع الرشاشة على بيوت من الشعر ، وعلى السائمة من الابل والغنم في مراعيها؟! حقا لقد آن أن يفرع الناس الى عقائدهم ، الى ما جاء به موسى وعيسى ومحمد ، لتكون للحرب حرمات وآداب تخفف من ويلها ، وقد كان الهمج يعرفون بعضها ويرعونه .

فرار الى اخلاق
الرحمة في الاديان

وأين ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن مما وصلت اليه الدعوة المحمدية من الآداب في الحرب ، وتقريرها أن ليس المقصود من الحرب

التنكيل والتخريب ، بل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الله لا تكون
إلا حقا وعدلا وانصافا شاملا للناس جميعا ؟ !

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرحمة على المسلمين في حروبهم أن يلجأوا
لقهر عدوهم بتجويع الأمة المحاربة ، أو منع أسباب الحياة من قوت
أو دواء أو لباس من الوصول الى غير المحاربين منها

ولقد بلغت القسوة في الحروب الحديثة أن الجيوش اذا انسحبت
من أرض دمرت ما بها ، ولو كان في ذلك هلاك أهلها فضلا عن أعدائها ،
وهو عمل لا تبيحه الشريعة المحمدية بحال من الأحوال ، فهي فوق أنها
لا يمكنها أن تتصور الاعتداء على ممتلكات أهلها ممن تتركهم الجيوش
الاسلامية وراءها ، ممنوعة قطعاً بدينها من أن تحرق الزرع أو تقطع
الشجر أو تحرم المدنيين المقيمين وسائل العيش في الأرض التي صارت ساحة
للجيوش المتقدمة والمتأخرة .

التخريب القاسي

ولا خلاف بين المسلمين في أنه يجوز في الحرب قتل المشركين الذكران
البالغين المقاتلين ، وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتل صبيانهم ،
ولا قتل نسائهم ما لم تقاتل المرأة أو الصبي (١) ، وإن اختلفوا فيما عدا
هؤلاء ، والنهج الواضح هو أنه لا يصح القصد بأذى لمن ليس شأنه
القتال ممن نسميهم اليوم المدنيين ، ولا تخريب العمار وحرق الزرع
وقطع الشجر .

حوادث
ونصوص

وروى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في غزوة غزاها ، فمر رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة ، فوقف
عليها ، ثم قال : « ما كانت هذه لتقاتل ! » ، ثم نظروا وجوه أصحابه
وقال أحدهم : « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا (أجيرا)
ولا امرأة » .

وروى مالك عن أبي بكر الصديق أنه قال : « ستجدون قوما زعموا
أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن
امراة ولا صبيا ولا كبيرا هرما » .

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام ابن رشد .

وقال زيد بن وهب : « أتانا كتاب عمر رضى الله عنه ، وفيه لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين » ، وروى كذلك عن عمر أنه قال : « لا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » . ويقول الامام ابن رشد : « انه ثبت عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : لا تقطن شجرا ولا تخرب عامرا » . ولا يجوز لأبى بكر أن يخالف رسول الله مع علمه بفعله من قطع نخل بنى النضير والفقهاء يفسرون ذلك بأن أبى بكر رضى الله عنه كان يعلم أن حادثة بنى النضير التى تشير اليها سورة الحشر كانت خاصة بينى النضير كما أنه لا يعرف عن رسول الله أنه قتل حيوانا ، والمسلمون متفقون على تحريم المثلة ، ولم يذكر الكتاب الكريم حادثة بنى النضير فى سورة الحشر بتفصيل غير الاشارة اليها فى سياق القصة والموعظة ، كما لم يشر الى حادثة بنى قريظة الا على سبيل العظة كذلك بهذه الآية فى سورة الأحزاب : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا » .

نظرات فى
أحكام الأسر
والاسترقاق

وليس فى القرآن الكريم نص واحد على قتل الأسير ، ولا على استرقاقه ، ولم يرو عن رسول الله أنه استرق أسيرا ، والنص الصريح هو تخيير الامام بين أمرين لا ثالث لهما : المن والفداء . يقول تعالى : « حتى اذا اثختموهم فشددوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » . ويقول الامام ابن رشد رواية عن الحسن بن محمد التميمي : ان اجماع الصحابة على أنه لا يجوز قتل الأسير .

فالتشريع العام اذن : هو أنه لا يجوز قتل المدنيين ، ولا قتل المحاربين بعد تسليمهم ، وما شذ عن ذلك فى الماضى ، أو ما يشذ عنه فى المستقبل من عمل الامام المسلم العادل انما يكون لظروف وأسباب خاصة تقتضى تخصيصا فى الحكم . وحادثة بنى قريظة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب نجهلها . أما المعلوم فهو أنهم خانوا عهدهم واستغلوا ظروف كرب وقع للمسلمين لما حصرت الأحزاب المدينة ، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فنقضوا عهدهم ، وطعنوا المسلمين من خلفهم .

حادثة بنى قريظة
وغموض بعض
ظروفها

وسبب آخر ، هو أنهم نزلوا على حكم سيد الأوس سعد بن معاذ ،
وهم من مواليه فحكم فيهم بما حكم ؛ فهم سلموا على شرط ، وكان الشرط
عليهم . وقيل كذلك : ان ما حكم به عليهم من القتل جاء موافقا لشريعة
اليهود ، وان سعدا حكم عليهم بشريعتهم . والحادث في جملته يشعر
بغموض يكتنفه ، مما يدعونا الى الظن بوجود أسباب أخرى مجهولة لنا .

وما يبرر به بعض الفقهاء قتل المشركين أو من في حكمهم بعة الكفر
أو الشرك وحدها ، لا يستقيم في نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه
في موضوع القتال ، ولا مع عمل النبي والمسلمين في فتوحاتهم أربعين سنة
من الهجرة الى نهاية أيام الخلفاء الراشدين .

لاقتل لعة
الشرك أو الكفر
وحدها

والقول بالقتل لعة الكفر لا يستقيم في دين يجعل لقتل رجل مشرك
من قوم لهم ميثاق ما للمؤمن من حق . يقول تعالى « وان كان من قوم
بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » . بل ميزه
على المؤمن من قوم ليس لهم ميثاق .

أدلة العقل

ولو كان القتل لعة الكفر أصلا كما يقول بعض الفقهاء لقتل النبي
مشركي مكة أثناء فتحها ، ولقتل مشركي هوازن بعد «حنين» ، ولما حالف
النبي صلى الله عليه وسلم خزاعة وهي مشركة ، ولكان المسلمون في
فتوحاتهم من الهند الى فرنسا وباء على العالم ما تركوا على ظهره هذه
الساحة من الكفار حيا . وقد روى عن رسول الله حوادث كثيرة في العفو
والرحمة مع خصوم أشداء ومع قتلة أعز أصحابه وأهله . ويكفي أن
تقرءوا في كتب السيرة معاملته بعد فتح مكة لعكرمة بن أبي جهل
وصفوان بن أمية ، وهما عدوان وابنا عدوين له ، وعفوه عن وحشى قاتل
عنه حمزة ، ولم يكن الا عبدا حبشيا لا في العير ولا في النفير ، وصفحه
عن أبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، بعد أن أسرف في خصومته
وهجوه . فهذه أمثلة واضحة على العدل الذي يأبى قتل المدنيين ، أو قتل
الأسرى ، أو من جنحوا الى السلم .

أدلة التاريخ

رفع اليه صلى الله عليه وسلم بعد احدى الوقعات أن صبية قتلوا بين
الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله

وهم صبية للمشركين ؟ ! فغضب النبي وقال ما معناه : ان هؤلاء خير منكم ، انهم على الفطرة . أو لستم أبناء المشركين ؟ فايكم وقتل الأولاد ! اياكم وقتل الأولاد !

ويروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة فقام لها النبي وقمنا ، فقلنا يا رسول الله : انها جنازة يهودى . فقال « أو ليست نفسا ! اذا رأيتم الجنازة فقوموا » .

فهذا احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص ، ولا يمكن أن يجيز قتل غير المحاربين ، أو قتل الأسرى لعل الكفر وحدها .

احترام للنفس
البشرية بدون
تخصيص

فنحن مطمئنون تمام الاطمئنان لما ذكرنا من تحريم وقتل المدنيين وتجويعهم ومن تحريم تخريب العمار والزرع والشجر ، وقتل الأسرى ، وتحريم المثلة والاجهاز على الجرحى .

ونعتقد أن الوسائل الحديثة من الغارات الجوية وما يترتب عليها ، والرمية بالمدفعية على غير هدى ومن غير انذار على المدنيين أطفالا ونساء ، شيوخا ومرضى ، زراعا وأجراء فى البر أو البحر أو الجو ، لا تبيحها الشريعة المحمدية .

وقد جاءت السنة والعرف بأداب أخرى كثيرة للحرب ، من مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى ، ومن الاحسان للأسرى بما جعلهم مستحقين للبر ، متساوين فى ذلك مع أيتام المسلمين وفقرائهم . يقول تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

اداب أخرى
للحرب

السلام الدائمة

السلام دائمة والحرب طارئة - دفع تهم واوهام - من
اسباب اضطراب السلام - نصوص في تدعيم حياة
السلام - روح سلمية واحدة في مكة والمدينة - شهادة
الاجانب - شهادة التاريخ

السلام دائمة
والحرب طارئة

لننظر في أساس العلاقات الدولية في نظر الدعوة المحمدية ، هل هو
قائم على فرض أن الحرب هي الحالة الدائمة بين جماعة المسلمين وغيرهم ؟
أو أنها حالة عارضة والسلام الدائمة هي أساس العلاقات الدولية ، ينقضها
العدوان والظلم وحده ؟

دفع تهم واوهام

يظن بعض الناس ، لما صحب الدعوة المحمدية في العصر الأول من
الفتوحات والحروب ، أنها دعوة قامت على السيف وتقوم به ، ويظنون
كذلك أن الاسلام بصفته دينا وبصفته دولة ، في حالة نزاع دائم مع من
يخالفونه في دياره وخارج دياره ، وأنه يشبه بعض الأديان الأخرى
اخصاصه بآله هو للمسلمين خاصة ، وهو معهم دون سواهم ، أو كبعض
الأديان التي جاءت في أول عهدها برسالة السلام على أشمل معانيها فحرمت
الحرب وأيضا صناعة الجندية ، ثم انقلب رؤساؤها الدينيون وانقلبت
مؤسساتها اللاهوتية الى النقيض ، فأباحت الحرب وباركت الحراب والمدافع
فضلا على الجندية ، ووصل بها الغلو في عهود طويلة الى اهدار دماء
المخالفين في الدين ، بل اهدار دماء المخالفين في بعض مظاهر الدين وطقوسه
لأهل الطائفة الواحدة ، بل وصل الحال بهؤلاء الرؤساء الدينيين أنهم
حرموا على الأمراء من دينهم أن يهادنوا مخالفهم في المذهب فضلا على
مخالفهم في الدين ، فجعلوا لأنفسهم حق فسخ العقود والمواثيق ونقض
الأيمان التي يرتبط بها أمير مع أمير أو مع ملك آخر ، أو دولة مع دولة ،
وان كان من شأنها أن تصون الدماء وأن تقيم العدل بين طوائف متناحرة ،

فلم تكن للمواثيق والأيمان في نظرها حرمة ، لأن الملحد والكافر ، بل المنشق والمخالف في المذهب مهدور الحق ، فلا حرمة لعهد معه اذا جازت مفاوضته ومعهده .

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله ، بل استحال قيام نظام دولي ، لأن زعماء الأديان كانوا يملكون حل الناس من أيمانهم وعهودهم ، وكانوا يفترضون أن الأصل هو الحرب مع المخالف ، وأن السلم عرض ينقض بمجرد القدرة على تقضه ، وأنه لا ذمة لكافر أو منشق على الإطلاق .

من أسباب
اضطراب السلام

وذلك كله عكس ما جاءت به الدعوة المحمدية ؛ فهي أولا تدعو الى اله هو رب العالمين ، منزّه عن الغرض والهوى ، خلق الجميع على فطرة واحدة ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو القاهر فوق عباده ، لا سلطان لهم على سلطانه يقول تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

هذه الدعوة من شأنها أن تفرض أن حالة السلم بين الناس دائمة وأنها هي الأصل ، وأن عدوان بعضهم على بعض هو وحده الذي يزعج هذه السلم ، ويضرم لظى الخصومة ، ولذلك اعتبرت الحرب حالة ضرورة يطلقها من عقالها العدوان والظلم ، ويبيحها التكافل البشري ، فتقع كذلك لنصرة مستضعف مظلوم مستصرخ .

وقد بينا فيما سبق كيف كان الاذن بالقتال ، وما هي أسباب الاذن ، كما بينا ماهية الحرب المشروعة ، مما يعين على تفهم الدعوة المحمدية ، ومما يبين أن الحرب التي أباحها الشريعة تقع استثناء للقاعدة العامة ، وهي السلم الدائمة بين البشر .

واليكم أدلة أخرى من الكتاب والسنة ، وما جرى عليه المسلمون . يقول صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية » . فهو ينهى عن الرغبة في الحرب وتمنيها ، حتى مع العدو ويسأل الله أن يديم نعمة السلم .

نصوص في تدعيم
حياة السلام

وفي البخاري أن رجلا جاء الى النبي ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال

صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وهذا واضح في تقض معظم أسباب الحروب التي قاسى العالم ويلاتها ، وحصرها في الحق والعدل الذي يريده الله ، وواضح في أن الأصل هو السلم .

وكان صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، والحرب قائمة ، ينقل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه ، ويحفر مع أنصاره الخندق وينشد :

لاهم (١) لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى هم بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا

ففى هذا النشيد تتجلى روح التقوى والتتزه عن البغى الذى يفعله الخصوم ، والدفاع عن حقه فى اختيار دينه الذى تريد الأحزاب أن تفتنه فيه وترده عنه .

فلولا هذا البغى لاستمرت السلم التى هى الأصل .

ثم انظروا وتبصروا فى هذه الآيات الجليلة بروحها ونصها .
يقول تعالى « يأيتها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ، ويقول تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » ، ويقول تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » .

ويقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » . « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

(١) بمعنى اللهم .

ثم انظروا الى روح السلم والمحبة التي تشع من هذه الآيات الجليلة .
يقول تعالى خطابا لرسوله « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ولا
تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ،
الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم الله
يجمع بيننا واليه المصير » .

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم ؟ فان أسلموا فقد
اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ » .

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما
كانوا يكسبون » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن ، الا الذين
ظلموا منهم » .

ويقول « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة
واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم
جميعا » .

« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين ! » .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

قد يقول بعض الناس ممن آمنوا أو ضلوا : ان الآيات المكية
تفيض بهذه الروح ، بينما الآيات المدنية تشتد على الكفار والمنافقين ،
وتحض على القتل والفتك ، وهو قول باطل لأن كتاب الله لا يتجزأ وقد
سبق أن بينا أن الحضر على الحرب في معظم آيات الحرب هو تحريض
على الصبر والاستشهاد والفتك في حرب واقعة فعلا ، ولم تنته الى مستقر
من السلم يطمئن اليه المؤمنون ، فهي نتيجة للحرب لا دعوة اليها . ومع
ذلك فاليكم بعض الآيات المدنية :

روح سلمية
واحدة في مكة
والمدينة

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

ويقول تعالى لرسوله : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » .

فالاسلام في جميع أدوار الدعوة في المدينة أو في مكة لم يعول إلا على الحجة ولم يلجأ للسيف إلا دفاعا بل إن تاريخ انتشار الدعوة المحمدية واضح في أن هذه الدعوة قد انتشرت في الآفاق ، واتصرت انتصارات باهرة في المشرق والمغرب في أضعف أيام الدولة الإسلامية ، بل في الانحطاط العسكري والمسلمون سائمة في يد برايرة المشرق ومتوحشي الفرنج في المغرب .

وفي ذلك يقول السير توماس أرنولد في كتابه (انتشار الاسلام) :
شهادة الاجانب :
ان الفتح الروحي الاسلامي لم يتأثر بسقوط الدولة الإسلامية ، ويضعف القوى السياسية ؛ ففي أيام هزيمته السياسية نال أعظم انتصاره الروحي .

وفي تاريخ الاسلام حادثان عظيمان يثبتان ذلك ؛ فحين وضع الكفار المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيين أقدامهم على رقاب المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي غزا الاسلام قلوبهم فاعتنقوا - وهم الغالبون - دين المغلوبين ، ولم يكن للاسلام عون من سيف أو سلطان .
واذا رجعنا البصر الى صلح الحديبية ، ذلك الصلح الذي حزن له المسلمون لقبولهم شروطا مذلة ، والذي قرر وضع السيف في غمده عشر سنين ، رأينا أن أعظم فتح معنوي للاسلام كان في أيام هدنة الحديبية ، وفتح الحديبية السلمي هو الذي هيا لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

هذا ولم يفكر المسلمون في اقامة جيش دائم ، ولا اعتبروا الجندية صناعة إلا تقليدا لعدوهم ، وقد صارت له معهم حدود وثغور لا بد للسلامة من الرباط فيها .

فلم تكن الدعوة المحمدية في حاجة لنقض السلم لتعيش ، ولا كانت في وقت من الأوقات معولة على الاكراه في الدين لتنتشر ، ولا رضيت بالحرب لعرض الدنيا ومنافعها وسلطانها وبسطتها ، ولا لسيادة جنس على جنس ، ورجحان طبقة على طبقة .

فالحرب عند المسلمين طارئة وللسلم الحياة الدائمة ، ولذلك كله فامت العلاقات الدولية في نظر المسلمين على أساس سلم دائمة بين البشر ينقضها العدوان وحده ، فعنيت الدعوة المحمدية كل العناية باقامة هذه السلم الدائمة على حرمة الأيمان والعهود .

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له - رأى في مسألة
التخيير بين الاسلام والجزية والسيوف - السلم بين
المؤمنين - الاسلام وطن المسلم - لا اقليمية في الاسلام
- عالية شاملة - يسعى بلمنتهم انانهم - أخوة اللمة
والمهد - حقوق الذمى وواجباته - الفهم أكثر من الغرم
- بين اللمة الاسلامية ونظام الحماية الحديثة -
الاستعمار الحديث لا يعرفه الاسلام - كفالة الله وشهادته
على العهود - اللعى في كفالة الاسلام اينما كان من بلاد
المسلمين - عهود الأمان والمنافع - من وصايا الراشدين -
الى الأخوة والوفاء - حق واحد للغالب - موجبات
الصلح - من حرب سنة ١٨٧٠ الى حرب سنة ١٩٢٩ -
حرمه العهود فوق صلة الدين - عبد يعاهد وخليفة
يقر عهده ! - امرأة تجبر والرسول يقر جوارها - تكريم
للغرد - مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب - متى يجوز
نقض العهد .

المسلم والمعاهد
ومن لا عهد له

أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على
افتراض أنهم اما مؤمنون ، واما معاهدون ، واما لا عهد لهم . فأما
المؤمنون فأخوتهم تامة ، وأما المعاهدون فيعاملون بمقتضى عهدهم ،
وأما من لا عهد له فأمره يختلف باختلاف أحواله ، ومصير العلاقات معه
يتبع أحوالا كثيرة . وعلى كل حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير انذار ،
ولا يكون هذا الانذار من غير سبب ، ولا يكون السبب هو الطمع في
ملك أو سلطان أو استغلال لخيرات أرضه ، أو تحكم في منافعه
وتجارته ، أو استئثار بما عنده من المواد الخام والمعادن ، أو أغراض
عسكرية واستراتيجية ، أو تهذيبه وتمدينه كما يدعى أهل الغرب في
العصور الأخيرة ، أو كى تكون أمة هى أربى من أمة ، أو جنس أعلى
من جنس ؛ فليست هذه الأسباب صالحة لمهاجمته حتى بعد انذاره الذى
تشرطه القواعد الدولية الاسلامية ، وليس هناك في الحقيقة سبب
للخلاف في نظر الاسلام بينه وبين الناس الا الفتنة ومنع الدعوة .

وقد قررنا سابقا بالاطمئنان أن الاسلام حصر أسباب الحرب في كفالة
حرية الدعوة ، فهو يكتفى بضمان حريتها ليكون في عهد يقر السلم

الدائم مع أى طائفة من البشر . وتاريخ الدعوة المحمدية واضح فى هذا الشأن ، فليس لازما كما يظن بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزم بالاختيار بين ثلاثة : الاسلام والجزية والسيف .

راى فى مسألة
التخير بين
الاسلام أو الجزية
أو السيف

وليست هذه الحالات الثلاث التى كانت تعرض على الأعداء آتية فى عمل المسلمين على سبيل الحصر ، فاننا نجد اتفاقات وعهودا وحالات سلم قائمة بين المسلمين وجيرانهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث . وهذه النظرية نظرية الخيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامة ، لأنها كانت شائعة فى العهد الأول من الفتوحات الاسلامية ، بينما الحقيقة أنه قد سبقتها عهود للرسول ولحققتها اتفاقات وعهود للدولة الاسلامية لم تستلزم احدى الثلاث . وحق امام المسلمين وجماعتهم فى عقد ما يرون فيه المصلحة من العقود متفق عليه ، فصلح الحديبية مثلا لم يشترط شيئا منها ، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر رضى الله عنه اعطاء للدينى فى الدين واذلالا للمسلمين قبل مشركين محاربين ، ولم يرض به الا طاعة وتقويضا للرسول صلى الله عليه وسلم .

واذا رجعنا للعهود المتنوعة والبيعات والمحالقات التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، رأينا فيها أمرا واحدا مطردا ، هو القصد الى نشر دعوته ، والوصول بهذه الدعوة الى الظهور ، وألا يعترض شيوعها وظهورها قوة . وكثيرا ما كان الوصول الى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها ، فلا يشترط له شىء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الاسلام مؤخرا ومانعا للفتاهم ، فتصدم الدعوة ، ويؤجل انتشارها .

ففى هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الاسلام مضرا ويكون فاسدا ، وعلى ذلك ليس حقيقيا أن امام المسلمين أو جماعتهم ملزمون بإقامة السلم على شرطى الاسلام أو الجزية والا كانوا فى حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الاسلام كدعوة عالمية .

* * *

قلنا ان العلاقات الدولية الاسلامية قائمة على افتراض أن الناس
مؤمنون أو معاهدون أو لا عهد لهم . فأما المؤمنون فالسلم بينهم أبدية
لا ينقضها الا الكفر والردة ، فان بغت طائفة على أخرى فهم جميعا على
الفئة الباغية حتى تفىء الى أمر الله وتقبل التحكيم ، فاذا قبلته كان
الانصاف والقسط ، لا الغلب والقوة ، هما الميزان الذي توزن به شرائط
الصلح . يقول تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقاتلتا فأصلحوا بينهما ، فان بغت
احدهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت
فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

الاسلام وطن
المسلم

فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض اخوان لا تفرقهم الأوطان
ولا العصبية ولا المذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية
ولا سبب من الأسباب ، للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حل وأينما
كانت الدار ، فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة
أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله .

فالمسلم في أى وطن من أوطان المسلمين وطنى له جميع حقوق
(المواطن) وعليه جميع الواجبات المفروضة على المواطن أينما وجد ، فان
فرض مثلا أنه وجد مارا الى الحج في مصر وهو آت من المغرب ، أو وجد
في العراق وهو قادم من الصين ، وكانت مصر أو العراق في حرب ، وجب
عليه الجهاد مع أهلها كما يجب عليه لو كان في بلده وقد هوجمت . كما
أنه لو انقطع به السبيل ، أو شق عليه الأمر ، فله في زكاة هذا البلد
فريضة ، وجماعة المسلمين تكفله ، بل له كافة ما لهم من حقوق . فالأخوة
الاسلامية كاملة بين الأسود والأبيض والعبد والحر ، ليس في ذلك أدنى
ريب ولا شك لدى أى طائفة من المسلمين أو أى مذهب من مذاهبهم .

لا اقليمية في
الاسلام

و على ذلك فالملايين الأربعمائة من المسلمين في الأرض هم اخوان
لا يمكن بمقتضى الشريعة الاسلامية تصور حالة حرب بينهم يخوضونها
في سبيل الله أو الوطن أو الدولة ، فاذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب
الله ، ولا بد للمسلمين من التدخل لانهاء القتال ، ولا تستقر ضمائرهم
حتى ينتهى على صورة مرضية بالقسطاس المستقيم .

ومن هذا يتضح أن الاسلام عالمي ودولي ، بمعنى أنه يضع قواعده على أساس علاقات بشرية عامة ، ومنفعة بشرية مشتركة . وهو كذلك ينظر بهذه النظرة العالمية للمخالفين في العقيدة ، فهم في نظره بشر ، وتكاد تكون مسئولية الفرد في نظامه العالمي كمسئولية الدولة ، فتبعية الفرد كتبعية الجماعة ، وحقوق هذا كحقوق هؤلاء ، ولل فرد في نظامه شخصية وسيادة تكاد تماثل شخصية الجماعة وسيادتها .

يسمى بلمتهم
أدناهم

فمثلا يسمح النظام الاسلامي للفرد أن يجبر ويؤمن ويعطى عهدا لفرد أو جماعة من الناس ، وأمانه وعهده محترم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » . فاذا تصورنا العالم الاسلامي اليوم وهو ممتد من المشرق الى المغرب ، وتصورنا أممه وطوائفه وأفراده ، وتصورنا ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنيهم ، وما بينهم من عهود واتفاقات ، وعلمنا أن هذه الصلات والعهود مرعية من المسلمين جميعا ، أمكن أن نتصور أن البشرية كلها كادت أن يشملها نطاق واحد من الأمان المشترك .

أخوة الدمة
والعهد

هذه هي الأخوة الاسلامية ، لها من القوة ما يكفل السلم الدائمة بين أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها . أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهدون منهم اما أن يكون لهم عهد ذمة ، واما أن يكون لهم عهد أمان أو تبادل منافع ؛ فأما عهد الذمة فهو عهد أبدي لفرد أو جماعة في دار الاسلام قبلها المسلمون في جوارهم وأعطوها ذمة الله ورسوله والمسلمين مقابل ضريبة سنوية تسمى الجزية . وهؤلاء هم الذين سرى عليهم لفظ الذمى ولو أنه مع شديد الأسف أصبح ثقيلًا فان أصله نبيل ، فالتسمية جاءت من ذمة الله ، وهي أكبر تأكيد لحقه في أن يتمتع بكامل حريته الدينية والادارية والسياسية ، وأن تصان له هذه الحقوق مقابل الولاء وقدر يسير من المال يتفق عليه لنفقات الدولة .

حقوق الذمى
وواجباته

هذا الذمى المعاهد هو جار المسلم يواليه ويؤاخيه ، لا ينقص من حقه شيئا ولا يتدخل في الشؤون التي له بعهدده ، فان احتكم اليه فعليه العدل الذي عليه للمسلم سواء بسواء ، ظلّمه حرام ، واضطهاده حرام ، واهاتته حرام ، وحرمانه من حقه حرام ، له دينه وللمسلم دينه ، وعلى

المسلم أن ينصره ويمنعه ويحوط حريته الدينية والشخصية وحرية جماعته
ويكفلها بقوته ، وليس نه عليه الا الوفاء والامتناع عما يضر المسلمين
في عقائدهم أو سلامتهم .

وليس أدل على ادراك المسلمين هذه الحقيقة وعملهم بها مما فعل
أبو عبيدة ، وقيل خالد بن الوليد (١) ، مع نصارى (حمص) فانه لما
علم أنه لا قبل له بدفع الروم عنهم ، رد ما كان أخذه من الجزية اليهم ،
وقال : انما أخذناها جزاء منعتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا ، وكذلك
فعل صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين حيث رد الجزية الى
نصارى الشام حين اضطر الى الانسحاب منها ، فلم تكن الجزية حقا
تعطيه القوة للغالب على المغلوب ، وانما كانت منفعة جزاء منفعة ، وأجرا
جزاء عمل .

غنمه أكثر
من غرمه

واذن فمجرد الاتفاق ودفع الجزية يكفل للفرد أو الجماعة المعاهدة
ما للمسلم من الحقوق ، بل لو دققنا النظر نجد أن هذا المعاهد بدفعه
هذه الضريبة ، وهى رمز ولائه ورضاه ، يتمتع بكافة الحقوق ، وليس
عليه كل التكاليف كتكليف الجهاد والزكاة ، فتبقى ضريبة الدم حملا
على المسلم وحده ، وضريبة الزكاة حملا عليه كذلك وحده ، مع جواز
حق المعاهد فيما جمع الامام من هذه الزكاة ، فانما الصدقات للفقراء
والمساكين مسلمين وغير مسلمين .

فاذا أراد المعاهد أن يقاتل فى صفوف المسلمين كان له ما لهم فى
الغنيمة .

بين الذمة
الاسلامية ونظام
الحماية الحديثة

واذا نظرنا فى عهد الذمة وعهود الحماية لبعض الدول اليوم فى بلاد
المسلمين وغيرهم ، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس الأخوة
البشرية ، يرعاه دين يدعو الى عبادة الله رب العالمين ، ويسوى بين الناس
جميعا فكلهم من آدم وآدم من تراب ، لا يلتفت للعنصرية ولا للجنسية
ولا للغة ولا للثقافة والأدب والعرف بل للحق الانسانى ، وبين عهد يقيمه
الغلب ويصونه القهر وتحدوه المنفعة ويديمه الاستغلال ويصعبه الاحتقار .

(١) لعل الخلاف فى الرواية نشأ عن أن كلا منهما قاتل الروم متعاصرين وكان أبو عبيدة
القلند العام وخالد فى امرته .

فهذا له حرمة من صميم الوجدان والعقيدة ، وذاك له قوة الغلب وشهوة الهوى والأثرة . وقد كان أثر الأول الحب ، فدخلت الأكثرية العظمى من أصحاب عهد الذمة في دين الجماعة الإسلامية راغبة متطوعة ، لأن نظام الإسلام عالمي ، واعتناقها لمبادئه لا ينافي كرامتها الإنسانية ولا عزتها القومية .

وقد بلغ من ذلك أن والي مصر في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز شكا إليه أن نصارى مصر وأهل الذمة فيها يتركون دينهم ويدخلون في الإسلام فتناقصت إيرادات الجزية ، واستأذنه في منعهم ، فكتب إليه الخليفة بتلك العبارة النيرة « قبح الله رأيك ! ما بعث الله محمدا جاييا ولكن بعثه هاديا » إذن كان الهدف الهداية لا الجباية ، والمساواة لا القهر والتفريق .

ولم تكن عهد الذمة ذات صلة بما يسمونه الاستعمار في هذا العصر ، فهذا المعنى لم يدر بخلد المسلمين في فتوحاتهم ، ولا تعرفه الشريعة الإسلامية ، وإنما تعرف حق المساواة لصاحب عهد الذمة ، له ما للمسلم وعليه ما عليه ، وله أن يعيش في حرية تامة بقوانينه وعرفه ونظمه . له أرضه وله ما تغل هذه الأرض . له ما على ظهرها وما في بطنها ، وليس عليه ضرائب غير الجزية مقابل المنعة وكفالة نظامه الذي يختاره وقيمه بكامل حريته ، غير مضار لمعاهديه من المسلمين . فستان ما بين النظام الإسلامي من حرية وإنسانية وما في الاستعمار من سلب للحرية ، واستباحه لكل ما يملك المغلوب وما ينتج .

الاستعمار
الحديث لا يعرفه
الإسلام

لا قيد في الاستعمار لإرادة الغالب ، وقيد الإسلام المسلم بعهد ، فلا ينقض ولا يتجاوز « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .

كفالة الله
وشهادته على
العهد

وكما أن المسلم حقا مساويا لحق كل مسلم آخر في أي وطن من أوطان المسلمين ، فإن الذمي المعاهد له مثل ذلك ، فعهد محترم في مشارق الأرض ومغاربها ، لما بين المسلمين من التكافل . وعلى ذلك فالمعاهدون أينما كانوا في سلم دائمة لا ينقضها إلا النكث والعدوان ،

الذمي في كفالة
الإسلام أينما كان
في بلد إسلامي

وكذلك تمتد ساحة السلم البشرى وتستقر بصفة خالدة بين الأجناس والأديان في ساحة البشرية بهذه المساواة التي تملئها الشريعة وتكفلها العهود .



ليست العهود من نوع واحد ، ولا هي جميعا كعهود الذمة التي أشرنا إليها ، فقد تكون عهود أمان ، وقد تكون عهود حسن جوار ، وقد تكون معاهدات صداقة أو تجارة أو أى نوع من أنواع التعاقد الدولي لاقرار السلم وتبادل المنافع .

عهود الأمان
وتبادل المنافع

فهي جميعا في نظر الدعوة المحمدية عهود مقدسة هي موثيق جعل الله عليها شهيدا وكفيلا ، لها حرمة دينية لا تسمح بالخدعة والتدليس والكذب .

كتب عثمان ، رضى الله عنه ، الى عماله وولاته عقب توليه الخلافة هذا الكتاب :

« أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل الا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها . لا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم من ظلمهم » .

من وصايا
الراشدين

ونظام العالم الذى يقوم على مثل هذه الروح ، وبعهود لها مثل هذه الحرمة ، هو نظام سلم حقيقية ، يستمر ما شاء الله ، واذا اضطرب فلا يعم خطره ولا يدوم شره أما ما نحن فيه من عهود تعقد لتنقض ، وذمم مخفورة وأثرة موفورة ، وأمم تتعالى على أمم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، فقد لقينا جزاءه في تلك الحروب العالمية التي لا تبقى ولا تذر ، هلك فيها البشر ، وعم الشر .

فالى الأخوة البشرية التي تعلو على الجنس والقبيلة ، والى الوفاء للعلاقة الدائمة التي يريدها رب الناس بين الناس : « يا أيها الناس اتقوا

الى الأخوة
والوفاء

ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .

حق واحد للغالب

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجة ولا خاتمة يرضاها الله الا السلام الذى يستقر على العدل والانصاف والأخوة البشرية ، وأنه ليس للغلب الا حق واحد هو منع الظلم . وكل ما يعقد من العهود نتيجة للحرب يكون مخالفا للروح الاسلامية ان أقام ظلما أو استعبادا ، أو أقر استغلالا واستباحة لما هو من حق الانسان بصفة كونه أخا فى البشرية ، يقول تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة » .

أى لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدخلى أى الفساد والغش الخفى لكى تكون أمة هي أربى من أمة ، أى أكثر مالا ورجالا وقوة وصولا مما يجعلها أرجح .

وليس المراد من معاهدات الصلح فى نظر الاسلام استدامة حالة الغلب الذى نتج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والاذلال للمغلوب ، بل الغرض الوصول الى اقامة العدل الذى يريده الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء . يقول تعالى :

« ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ولو أن دول الأرض فى العصور القديمة والحديثة اهتمت بهدى القرآن فى هذا المعنى لحصرت الحرب فى أضيق دائرة ، ولزالت معظم الأسباب التى تحرك الفتنة من مرقدتها ، وتثير النار من مكنيها .

وما يقوله اليوم كثير من الساسة وقادة الشعوب ، وما قالوه من قبل من أن الغرض من حربهم هو اقامة العدل والانصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدولة المحمدية ولو أنه لا يستند الى مثل الايمان والتدين الذى استندت اليه ، ففى الشريعة المحمدية كما بينا سابقا لا تجوز الحرب الا لدفع الظلم والعدوان ، ولا تنتهى الا بمنع الظلم والعدوان واقرار العدل والحق الذى يريده الله لا الذى تزوقه وتنمقه المطامع ، ولا الذى يوجبه الخوف من العودة الى الظلم والعدوان .

يقول تعالى : « وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

موجبات الصلح
فلا تملئ شرائط الصلح عوامل الخوف ولا عوامل الطمع ، لأن الله الذي نصر الحق وأيده بالمؤمنين كفيل بالنصر ما دام المراد وجه الله والبر والعدل .

من حرب سنة ١٨٧٠ الى حرب سنة ١٩٢٩
فلو كانت الدول الأوروبية وغيرها تقسط وتنصف ما انتهت حرب سنة ١٨٧٠ بما سبب حرب سنة ١٩١٤ ، ولا انتهت هذه بما سبب حرب سنة ١٩٣٩ ، وكنا نرجو أن تعقب الحرب الأخيرة حالة تسود فيها روح الدعوة المحمدية أفكار الناس وتستقر مبادئها في نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسى .

أما الرياء وابتغاء حسن السمعة والدعوى التي يراد بها الدخل والغش فلن تزيد أصحابها الا وبالا والعالم الا شتاتا والحضارة الا ضعفا والعمران الا خرابا ، وهى على النقيض تماما مما جاءت به الدعوة المحمدية . ولست فى هذا متهما قوما دون قوم ، ولا مدعيا بأن المسلمين الآن أحسن حالا وأصدق قولا ورأيا من أهل الملل الأخرى ، فليس هؤلاء وهؤلاء على شىء من روح الدعوة المحمدية ، ولا صدق الايمان ببيادئها (١) .

وقد حرم الاسلام الخيانة فى العهد سرا أو جهرا كتحريره الخيانة فى كل أمانة مادية أو معنوية ، فلا مجال عنده لإباحة تقض العهد بالخيانة فى وقت القوة ، كما أنه لا يرضى العهد الذى يمليه الغلب والظلم . فهل رأيتم أو سمعتم فى الزمن الذى نعيش فيه بعهد عقد وكانت له الحرمة التى يريدوها الاسلام ؟ ألا ترون وتسمعون كل يوم بالذم المخفورة ، والعهود المباحة متى قدر أحد المتعاقدين على استباحتها ، أو ظن فى ذلك نفعا له ؟ ما قيمة العهود والأيمان تعقد لتنقض ويحتال فى تفسيرها والخلص منها متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قريب أو بعيد ، أو ضمن

(١) لعل الصلح الذى عقد عقب الحرب بين الامامين يحيى امام اليمن وعبد العزيز ابن السعود ملك الحجاز ونجد رحمهما الله ، علامة على أنه لازال للروح الاسلامية السامية آثارها فى المسلمين وربما كان ذلك لان الامامين كانا على تقوى وعلم بالشريعة .

قوى بسلطانه وقدرته العسكرية أن يفسرها كما يشاء ، أو ينقضها كما يشاء ؟

أما ذلك الأدب المحمدي الذي جعل حرمة العهود فوق حرمة الدين فضلا عن عرض الحياة الدنيا فلسنا نحن ولا غيرنا على شيء منه ، فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه ، فللمشترك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد حق الدية تدفع الى أهله ، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين ميثاق دية .

حرمة العهود
فوق صلة الدين

وقد حرمت كذلك الشريعة نصرة المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم ، يقول تعالى : « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق ، وهذا هو الوفاء للأعداء الذي يبقى أبد الدهر للناس فيه الهدى ، هو الأدب العالي في علاقات الدول وعلاقات البشر ، هو الأدب العالي في السلم والحرب .

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقروا عهد الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يؤمن به طائفة من المحاربين : كتب أبو عبيدة رضى الله عنه وهو قائد الجيش الى عمر رضى الله عنه وهو الخليفة أن عبدا أمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيي ، فكتب اليه عمر : « ان الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تقوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » . وقد استمد عمر هذا الرأي من قوله صلى الله عليه وسلم : « ويسعى بذمتهم أدقاهم » .

عبد يعاهد
وخليفة يقر
عهده !

وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ » . وان اختلف المسلمون في قيمة العهد الذي يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشتروا اذن الامام فان الجمهور متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم .

امراة تجير
والرسول يقر
جوارها

ولا يخفى ما في هذا المعنى من سمو بمكان الفرد يتناسب مع المسؤولية التي وضعت على عاتقه ، مما يستلزم أن يكون على الجنب موفور الكرامة والأدب مع الخصوم وفي الجيش ، فهذه الثقة به وهذا التقدير

كرامة الفرد

لحسن تصرفه باعطائه حق التعاقد نيابة عن المسلمين جميعا يحدث في نفسه
عزة وتقديرا للحق يكفل استقامته خيرا من القوانين الزاجرة والعقوبة
الرادعة . وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشهرت فروسياتهم
في الغرب والشرق في الفتوحات الأولى وفي الحروب الصليبية .

وقد ضرب صاحب الدعوة المحمدية بنفسه أعلى مثل في التاريخ في
هذا الأدب العالي ، وفي الجد في عهوده وحب الصراحة وبغضه التحايل
والالتواء والكيد ، حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو في الحديبية ، فيبينما
كان يكتب عقد الهدنة جاءه ابن سهيل نفسه يرسف في الأغلال ، وقد فر
من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم ، وكان
هذا الابن ممن آمنوا بمحمد . جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو
مستصرخا وقد انفلت الى المسلمين من أيدي المشركين ، فلما رأى سهيل
ابنه قام اليه وأخذ بتلاييه وقال : « يا محمد لقد لجت القضية بيني
وبينك » أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا . فقال محمد صلى الله
عليه وسلم : صدقت . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأرد الى
المشركين يفتنونى في دينى ! فلم يغن عنه ذلك شيئا ، وردده رسول الله
وفقا للشروط التي اتفق عليها ولم يكن قد كتبها ، ولكنه كان قد انتهى
من المناقشة وقبل الشرط فلم يتحايل ولم يتردد . وانى لا أعلم في تاريخ
البشر مثلا لرعاية الكلمة التي قيلت ولما تكتب ولما تمض كهذا الذي
ضربه رسول الله في الحديبية على مرأى من خصومه وعلى كره من أنصاره!

أين هذا الأدب وهذا الجد بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء ؟
بين المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسهم وبين هؤلاء وهؤلاء من
تحايل ولجاج ! ذلك لأن الدعوة المحمدية تعلم أصحابها أن حسابهم مع الله ،
وأنه لا يغنيهم من الله شيء ، فلا بد لهم من الصدق في الظاهر والباطن
والقوة والضعف ، فلو أن أدب العهود الدولية في الحرب وفي السلم قام
على مبادئ لها حرمة الايمان وتقديس العقيدة لاستقر السلم على حرمة
العهد وخفت ويلات الحروب وتضاءل شرها .

والشريعة المحمدية لا تبيح نقض العهد للطمع أو تحقيق أغراض من عرض الحياة الدنيا ، أو لاستعباد وظلم ، ولكنها تبيحه للصالح العام متى خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق لديهم ختله وسوء قصده ، فعندئذ يجوز نبذ عهده : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » ولكن لا يجوز لهم أن يحتالوا في ذلك ، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير انذار وامهال . وهو أدب وعرف جاءت به الشريعة قبل أن يقره العرف الدولي الحديث ، ومع الأسف لم تبق له حرمة في السنين الأخيرة ، وقد جرى عليه المسلمون حتى مع من لا عهد لهم . وقد أوصى النبي والخلفاء الراشدون عمالهم وأمراء جيوشهم بالانذار قبل البدء بالحرب . وفقهاء المسلمين متفقون على أنه يجب انذار العدو حتى يعلم سبب نقض العهد ، وأنه ليس المراد منه سلب مالهم أو قتلهم أو سبيهم ، فربما أجابوا للمقصود من غير حرب ، وأن القتال من غير دعوة اثم يستوجب غضب الله . فاذا ساءت نية المعاهد وساء قصده فإن العزة التي جعلها الله للمؤمنين تأبى عليهم الذل والهوان والرغبة في السلم الذي يحل ما تحرمه الشريعة ، أو يقر العدوان والتسلط والقهر . وفي مثل هذه الحالة يقول الله تعالى « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » .

متى يجوز نقض
العهد

(٤)

في أسباب الاضطراب العالمى

الاستعمار

اثارة الرغبة في بحث شامل - مقاتلون ومحاربون -
الاسباب الاساسية للاضطراب - الاستعمار او الخراب !
- فرائسه هي فرائسه ! - سرايب ! - سبب الحروب في
القرنين الاخيرين - شر على الغالب - شر على المفلوب -
آثاره في الغرب وفي الشرق - محاولات لالتماس المخرج -
التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة - الدعوة المحمدية
تنكره - لا حجة على الاسلام الا من نصوصه وسنته .

اثارة الرغبة
في بحث شامل

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجهة النظر الاسلامية ،
ولمست نواحي عدة منها ، ورجوت من هذا العرض العاجل في كلمات
محدودة أن أثير الرغبة في القارئ ، سواء أكانوا من الأمة الاسلامية أم
الأمم الأخرى ، لبحث مستفيض فيما جاءت به الدعوة المحمدية ، لعلمهم
يجدون في أصلها وفروعها مخلصا من محنة المدنية الحاضرة ، وذلك
الاضطراب الذي أصاب البشرية بحرين شاملتين في مدى ربع قرن .

مقاتلون
ومحاربون

واذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب الأخيرة ، وقد عم الدنيا شرها ،
نجد ثلاث طوائف : طائفتان تقتتلان ، وثالثة تعتر لهما ولا نسلم من
شرهما .

فماذا تشكو منه الثلاث ؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت كل منهما
تدعى على الأخرى دعاوى لا سبيل لتحقيقها ولا فائدة من المناقشة فيها ،
فكل كان يقول انه مظلوم معتدى عليه ، وانه يحارب للحق واقامة صرح
الحضارة . فلندع هذه الدعاوى حقها وباطلها .

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة ، فبين محايد قد انتهكت حرماته ، وآخر
شاكي السلاح ، ساهر الليل تزخر أرضه بالقوى خشية أن تستباح .

فاذا نظرنا الى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة اجمالية خلال
القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عصرا بعد عصر ، وقد تكون بلغت
الذروة في الحرب الأخيرة اذ شملت القارات الخمس .

فما هي دواعى هذا الشر المتزايد ؟ وما هي الأغراض العقيمة التى
ظلت عصرا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق ؟

أهى الغرام بسعة الملك ، والتزاحم على حيازة الأمم المستضعفة
والاستشارة بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد ؟

أم هى النزاع والخصومة ، بين الطبقات على المصالح الخاصة والنظم
الاقتصادية .

أم هى الافراط فى النزعة الوطنية أو العنصرية وما يترتب عليها من
الأثرة وحب الانفراد بالعزة ، ثم انكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم ،
جيرانا كانوا أم فى أقصى الأرض ؟

أم هى طغيان المادية وحب الترف ، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام فى
جمع المال ، والانحدار فى المتاع العاجل كغاية للحياة ، فتباعد ما بين
طبقات الأمة الواحدة من الفروق ، وأغرى بعضها ببعض ، وآل ذلك الى
النزاع الداخلى والخارجى .

أم هى انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، مما ترتب عليه
تبلىل الأخلاق والعقائد والعرف الصالح ، فضاعت المروءة وقل الاخاء ،
وفشا الاستخفاف بالعهود والمواثيق ، وصار الغدر والخديعة من الأخلاق
الشائعة فى علاقات الأمم ، وحل الخوف محل الأمن ، ودأب الناس على
الاستعداد للحرب ثم المفاجأة بها ؟

أم هى أسباب أخرى أعظم أو أصغر ؟ أم هى هذه جميعا ؟

قد يكون هناك أسباب وحوادث كثيرة ، لها أثرها الوقتى . غير أن
نظرة فاحصة فى الأسباب التى ذكرت تهدى الى الاعتقاد بأن فيها أصول
الفساد العالمى ومسببات هذه الكوارث والحروب الطاحنة .

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبمعلاج لهذا الفساد ؟
ذلك ما سنحاول بيانه .

الاستعمار
أو الخراب

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حصره في كلمة واحدة :
هي الاستعمار الحديث . وليس أدل على ما فيه من فساد ، وعلى قوة هذه
الآفة من أن الحروب لم تكن عامة الا بعد ظهوره وانتشاره . وبعد أن
انتشر فشمّل القارات الخمس وصار مظهرا وسببا للصراع المادى انقلبت
الحروب الى شر عام . وبانتشاره تطاولت الأعناق اليه ، وظنت جميع الأمم
أنه سبيل الغنى والقوة ، فتسابقن وتحاسدن وحقدن ، ولم يصدها عنه
أن رأت بعضها في الماضى وقع فريسة له ، فلقد كان بعض فرسانه الأول
من الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين فرائس له . وفى فرسانه الآخرين
بعض العظاات .

فرائسه هي
فرسانه !

يقول (بيتى) رئيس وزراء ايطالية قبل ثلاث وثلاثين سنة (١) فى كتابه
(أوربا) « ان الطليان أنفقوا أربعة عشر مليارا ليشتروا غرارة رمل ! » —
يقصد ليبيا — فكم بلغ الثمن اليوم بعد أن أنفقت ايطاليا الفاشية ما أنفقت
فى ليبيا والحبشة وغيرها ؟ لقد استنزفت ايطاليا مالها ودماءها وكيانها
للاستعمار ولم تحصل الا على الخراب والدمار ...

سيدركون جميعا بعد هذه الحروب الدامية ، وقد أصيبت هذه
الحضار المادية بضربات معجزة ، أن الاستعمار سراب يجرون وراءه ،
ويتنازعون عليه ، حتى اذا جاءوه لم يغنهم عن العمل والكد والحياة
الطيبة شيئا ، وأنه كالتذيفة تلقى على الصخرة فتصيبها ، وقد تحدث بها
حدثا ، ولكنها كذلك ربما ارتدت فقضت على قاذفها .

والاستعمار سبب معظم الحروب فى القرنين الأخيرين ، وله أثره فيها
جميعا ، واستقصاء البحث فى كل منها يرشد اليه فى مكان ما من الأرض :
فى تراث أمة مستضعفة أو فى أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب
والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض ومعادنها .

سبب الحروب فى
القرنين الأخيرين

والمواقع ان الاستعمار الأوروبى على طرازه الحديث شر على الغالب
والمغلوب ، شر على المستعمر والمستعمر . والشعوب الغالبة تستدرج

شر على الغالب

(١) تولى نيتى الوزارة الايطالية قبل العهد الفاشيى سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ .

بسببه الى حياة التواكل فيصيبها الترف القاتل ، وتقع في خصومات مع الحاسدين والناقمين وتعرض كيانها القوى للزوال وما أصاب بعض الأمم منه في الماضي لا تزال آثار عالقة بها الى اليوم .

والاحتفاظ بالمستعمرات كيدان للاستغلال المادي يهبط بمستوى العيش في سكان هذه المستعمرات فيحد من مقدرتها على الاستهلاك ، فضلا على قلة روح الابتكار والنشاط والانتاج فيها ، ويضع بذلك قسما كبيرا من سكان العالم في منزلة السائمة ، فيصبحون عالة على البشرية . كل ذلك مع ما أشرنا اليه مما يحركه الحاسدون والطامعون من المكاييد والحروب ، يسرع بالحضارة الى الانهيار والزوال .

شر على المفلوب

ألم تكن حروب نابليون وما جرت من ويلات على العالم وعلى فرنسا نفسها منشؤها الحقد والحسد بسبب الاستعمار والرغبة في سبق الى أملاك المستضعفين ؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والنمسا .

آثاره في الغرب

ألم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعفين ؟ وحرب اليابان والروس في أوائل هذا القرن ، لم تكن لتحدث على بعد الشقة بينهما لولم يلتقيا في سبيل التوسع على حساب المستضعفين

وفي الشرق

والحرب العامة الأولى ، والحرب العالمية الأخيرة مهما ادعى لهما من الأسباب فان الحقد الدفين في صدور من فاتهم الغنائم ، والرغبة في التوسع وحياسة المواد الخام وأملاك المستضعفين ، هي من أهم أسس النزاع بين الأقوام الغالبة القوية .

أليس الشعور الباطني في نفوس الأمم الكبيرة بشر الاستعمار هو الذي دعاها بعد الحرب الماضية تتلمس المخرج في نظرية الانتداب ونظرية حرية تناول المواد الخام ؟

محاولات
لالتماس المخرج

سيستمر شر الاستعمار مستطيرا حتى يكتشف الناس بالتجربة والتضحية حلا مرضيا للأقوياء والضعفاء على حد سواء .

لقد كانت الحرب الماضية قاصرة على الجيران ، أو على دولة وأخرى ، فلما صار الاستعمار عالميا صارت الحروب كذلك ، فلا بد اذا من مبادئ

التضحية
بالاستعمار لنجاة
الحضارة

عامة لتسوية المشكلات العالمية . وستكون التضحية بالاستعمار ضرورة
لنجاة الحضارة الحالية . وهاهى ذى الشعوب الكبيرة تتلمس السبيل ،
فميثاق الأطلنطى وأشباهه من التصريحات التى جهر بها المتحاربون دليل
على ادراكهم ما جره الاستعمار من شر على الغالب والمغلوب .

هو شر على المغلوب ما يبناه ولأنه يفقد شخصيته وخلقه وعزته وثقته
بنفسه ومقدرته على العمل المنتج الكبير ، فيصبح لا أثر له فى تكييف
الحضارة العالمية . فكيف يستقر العالم من اضطرابه ، ومئات الملايين من
البشر قد صارت عبئا فى تفكيرها ونشاطها على العشرات ؟ !

الاستعمار لا شك شر على الجميع ، وإذا بقى الحكم للقوة فى مصير
الأمم بعد هذه الحروب فإن المأساة ستستمر وتتجدد .

الدعوة المحمدية
تنكره

ومن فضل الدعوة المحمدية أنها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة
لأغراض دنيوية فهمى لا تبيح الحرب لتوسع فى الملك ، أو للحصول على
المواد الخام ، أو لاحتكار الأسواق ، أو لدعوى تمدن الناس ، أو للمواقع
الاستراتيجية ، أو لاستعلاء وطن على وطن ، أو ملك على ملك ، أو عنصر
على عنصر كى تكون أمة هى أربى من أمة (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم
فى سبيل الله فتيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا
تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) .

وقد أشرت الى ذلك فى كثير من الفصول السابقة وسقت فى سبيل
بيانه الآيات والأحاديث وأمثلة من الواقع . ووجهة النظر الاسلامية
فى العلاقات الدولية واضحة ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل
لأحد على أحد الا بالتقوى والعافية ، أى حب السلام .

فالاسلام لا يعرف نزاعا ليس المقصود منه أن تكون كلمة الله هى
العليا ، وأن تكون الحريات للجميع مكفولة .

لا حجة على
الاسلام الا من
نصومه وسنته

قد يقول بعض الناس ان فى تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما تدعو
اليه . ونحن ندعو الى كتاب الله ودينه لا الى ما فعل بعض الدول والملوك ،

مما قد يشبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوروبيون ، وقد باءوا بالخسران
كما باء المحدثون .

فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة المحمدية ، وقد
ثبت الآن بعد نظرها ، بل ثبت سموها وغرضها الالهي بما فعل الاستعمار
بالناس قديما ، وبما يفعل في العصور الأخيرة ، وقد اتسع شره وعم
بلاؤه وجر الويل والخراب في حروب عالمية متعاقبة .

وانا لندرجو أن يستفيق الناس الى الهدى ، وأن يجدوا في هذا المبدأ
المحمدى وسيلة لاقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضى به نظريات
الاستعمار ، وأن تقوم هذه العلاقات على الاخاء وعلى تلك الروح الدولية
الاسلامية التي لا تعرف الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة ، ولا العلم
ولا الجهل ، ولا التقدم ولا التأخر ، ولا تعرف البشر الا اخوة من آدم .
وآدم من تراب .

نزاع الطبقات

التفاوت قديما وحديثا - امثلة من التاريخ العالى -
التقييد العصرى فى المذاهب والمذاهب - من آثار البخار
والكهرباء - الرأسمالية والعمالية - فى الدول الشيوعية
والنازية والفاشية والديمقراطية - البساطة الاسلامية
فى معالجة مشكلات المال - المبدأ ثابت والتنفيذ مرن -
الشرع مع المصلحة - مثلان رائعان من حرية التصرف
للعولة - أكبر مهام الدولة - لا نزاع متى خلصت النوايا
له - الايمان هو الحارس الاول على المصلحة العامة -
الزام الدولة بمنع النزاع وبالتامين الاجتماعى - العنصر
الروحى التهذيبى - محاربة الترف والبذخ - الرسول
الزاهد - المتاع الباقى - جمع بين الوجدان والسيف

التفاوت قديما وحديثا . نزاع الطبقات ظاهرة للحضارة الأوروبية ، وقد فشادائوه وعم بلاؤوه .
والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ فى هذه الدنيا ، منهم
الفقير والغنى ، والحاكم والمحكوم ، والضعيف والقوى ، والمريض
والصحيح ، يعيشون متعاونين متفاهمين فى حدود القبيلة أو مجموعة
القبائل ، أو اتحادات القرى حول مدينة ، أو مجموعات المدائن والقرى
حول أعظمها ، فكانوا بطبيعتهم مأخوذون بغريزة الاجتماع والتعاون
الذى أدركوه بالفطر والتجربة .

وكانت هذه المجموعات البشرية كخلايا النحل ، تتعاون للانتاج على
نظام مقبول من الجميع ، فان لم يكن مقبولا عن رضا فهو مسلم به
طوعية وعرفا .

وكان هذا النظام يضطرب ويختل أحيانا بعدوان مجموعة أخرى ،
أو بفساد داخلى ينشأ عن شذوذ أو ظلم بانحراف هيئة قوية أو فرد قوى
واستبداده وأثرته ، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقر بعودة الأمور
الى نصابها ، وسير التعاون فى الخلية على مقتضى الغريزة والعرف المتفق
عليه .

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصرا للاضطراب والخلل كما هو

اليوم ، ذلك النزاع الحاد الدائم بين الفقراء والأغنياء ، والعمال والصناع والملاك والمديرين .

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعوات قوية متطرفة كدعوة (المزدكية) في فارس ، وكانت تقول بالمساواة التامة في المعاش ، ونجد في أعقاب الدولة الرومانية نزاعا بين العامة والخاصة ، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار ، ونجد في صدر الاسلام أمثال أبي ذر رضى الله عنه يهجر الشام محتجا على الثراء وملكية الأرض ، ونجد الخوارج يشهرون سيوفهم ويستبسلون في سبيل نظرياتهم الاجتماعية ، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حكم الا لله ، وينكر ضرورة الحكومة مدعيا أن في طبيعتها الفساد ، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفي لاستقامة شئون المجتمع ، وينكرون حقوق الملوك ، وكان المعتدلون من الخوارج لا يورثون ملكا ملكا ، ولا يؤثرون به بيتا ولا قبيلة ولا سيدا على أحد من الناس ، ويقولون بامامة العبد ومساواته للقرشي والهاشمي ، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد ، حتى كادوا يسوون ما بينهم في المعاش ولو أنهم لم يحرموا الملك .

أمثلة من التاريخ
العمالي

وجدت هذه الدعوات على أنها شاذة ، ومع ذلك لم تصل الى شيء مما وصلت اليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية ، ولا أدعت ما أدعتا من المساواة في الرزق والكسب والملك ، ولم تقم على أنها نزاع طائفة من الصناع والعمال مع غيرها من الطوائف ، ولم تصل الى مثل النزاع الحديث والحرب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى .

التعقيد العصري
في المذاهب
والدعوات

فهذه الشيوعية ، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب (العمالية) والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة ، وهي أثر مباشر للنظام (الرأسمالي) الحديث .

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين ، فالجار الغني صديق جاره الفقير ، يعرفه شخصا ويعرف أولاده ، يتصلون جميعا في شيء من الاخاء ، تجمعهم قرى الدم أو قرى الجوار ، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية أو كبر جاهه هو شيخ الفقير والغني ، موصول

الود بالجميع ، وغناه واثرائه لا يتجه للزينة والترف والأثرة ، فعزه في الكرم وفخره في الايثار ، وأبنائه على عزتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية ، يلعبون كما يلعبون ويطمعون كما يطمعون ويلبسون طعاما ولباسا يشبه في جوهره ما يأكل الناس وما يكتسبون .

فلم تكن دوافع الحسد والغيرة تحركها مظاهر الترف والبذخ يتمتع به الكبراء والأغنياء ويسرفون في أذى عيون الناس وآذانهم ونفوسهم ، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في مستوى واحد .

فلما استخدم البخار والكهرباء تضخمت الثروة واتسع نفوذ أصحابها وأكثر عددهم ، وحلت المحركات الآلية محل اليد ، وسهل الانتقال وزادت السرعة في كل شيء ، فنمت التجارة ونما المال وبعدت الشقة بين الفقير والغني فانحط مستوى طبقة الصناع والعمال ، وبست الدنيا لملاك الآلة وملاك الأرض والسامسة والتجار والمسيطرون على وسائل النقل ، وحل النظام الرأسمالي الجديد بكل ما يصحبه من جفاء ازداد به الناس بعدا في الفكر والمظهر ، وانقلبوا أعداء .

من آثار البخار والكهرباء

وكان لا بد للطبقة المحرومة ، وقد هبطت الى نوع من العبودية للآلة وصاحبها ، أن تلتبس لنفسها سبيلا للحرية ، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئا ، فاحتقرت دساتيرها ، ورأت فيها وسائل ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، تمكن أرباب المال من التحكم واستخدام الشرطة للغلب ، غلب القلة المالكة الضعيفة على الكثرة المحرومة القوية ، فاتجهت الى الثورة ، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه عنصرا أساسيا من عناصر الاضطراب العالمي .

الرأسمالية والعمالية

وما كادت تنتهي الحرب العامة الأولى حتى ابتدأت ثورات جامعة وقتن دموية وصلت ضحاياها في الحرب الأهلية الروسية الى عشرات الملايين ، وفي الحرب الأهلية الأسبانية التي استمرت فارها أكثر من سنتين الى مليون ، ولم تسلم بقية الأقطار الأوروبية والأمريكية من فتن دموية ، ولا تزال الدعوة تلهب غيظ الفقراء على الأغنياء ، وطبقة الصناع والعمال والزراع على الملاك ، وتهدى الأرض لانفجارات أشد خطرا في كل مكان

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تلمس العلاج ، فذهبت مذاهب شتى ، فبعضها ذهب الى استئصال طبقة الملاك كما حدث في روسيا ، وبعضها الى استئصال دعاة العمالية الشيوعية كما حصل في أسبانيا وبعضها عول في القهر والاستبداد لاقامة الأمن والتوازن ، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل في ايطاليا وألمانيا ، اذ انتزعت الزعامة ، الدكتاتورية الأمر من يد الجميع .

وفي البلاد الديمقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهبات للطبقات المحرومة ، وتحاول للتخلص ، وقدرها لا يزال في السماء !

ومن الصعب جدا في مثل هذا العرض السريع أن ندخل في بحث النظام الرأسمالي ما له وما عليه ، كما يصعب كذلك متابعة المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوربيين والأمريكان فيما يعرضون من حلول ، وما يقاسون من ويلات نظام الربا والأثرة ، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئین لعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها .

ولننظر فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج لمشكلة الاجتماع في هذا العصر ؟

أولا مشكلات الاجتماع وأسباب النزاع هو الفقر ، وقد بينا في فصل التكافل والبر كيف عالجه الاسلام . ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن الاسلام مرن يسير على المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات ، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين :

البساطة
الاسلامية في
معالجة مشكلات
المال

الأول - أنها جعلت للمحروم حقه الثابت في أموال الناس جميعا ، وأقول جميعا لأن الحد الأدنى من المال أو الملك أو المنتجات ، الذي تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل ، فالنصاب في زكاة الفطر مثلا هو ما زاد على قوت يوم من خبز الشعير ، وقد جعلت فيه الشريعة حقا للمحروم .

وقد تنوعت الضرائب الشرعية في أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء

عليه ، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين ،
وليس للامام أن يصرفها في غير ما خصصت له .

ولم يبين القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من أموال ، ولا المقدار
الواجب دفعه ، وقد بينت السنة ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله
عليه وسلم لمن ولاهم أمر الصدقات ، وبين القرآن من تدفع لهم الصدقات
فقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم
وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم
حكيم » .

المبدأ ثابت
والتنفيذ مرن

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه ، والقرآن خصص الزكاة وعلى
الامام أن يوجهها حسب الحاجة ، فقد يجد ما كان ينفق لتحرير الرقيق
أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل في زمننا الحاضر معدوما أو قليلا فيوسع
في نصيب الفقراء ، وسبيل الله الذي يدل على معنى عام يجد الامام فيه
أبوابا كثيرة من البر الذي يوجه للمصلحة العامة في كل عصر حسب
مواضع أهله ، كالتأمين الاجتماعي الآن مثلا .

الثاني - لم تكف الشريعة بهذا الحق المعلوم في أموال القادرين
للمحتاجين ، بل جعلت الدولة كفيلة على اقامة التوازن الاجتماعي ، فرأس
الدولة مسئول عن هذا التوازن يعدله بالزكاة ، فان لم تكف فله باسم
المصلحة العامة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام ، وعليه أن يقيم
العدل بالقسطاس المستقيم .

الشرع مع
المصلحة

وحيثما كان هذا العدل فثم شرع الله ودينه . فاذا فرض أن هذا العدل
يقتضى أمرا لا نص فيه ولا أثرا شرعيا فعليه أن يجتهد برأيه .

واليكم مثلين من اجتهاد الامامين الكبيرين أبي بكر وعمر رضي الله
عنهما : كان أبو بكر يقسم المال بين الناس على السواء ، لا يفضل أحدا
على أحد ، ف قيل له : يا خليفة رسول الله ، انك قسمت هذا المال فسويت
بين الناس ، فمن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فهل فضلت أهل
السوابق والفضل بفضلهم ؟ فقال : « أما ما ذكرت من السوابق والقدم

والفضل فما أعرفنى بذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش ،
فالأسوة فيه خير من الأثرة .

فلما كان عمر وجاءت الفتوح فضل وقال : « لا أجعل من قاتل رسول
الله كمن قاتل معه » وعلى ذلك أسس ديوان الجيش .

مثلان رائعان
من حرية
تصرف الدولة
حسب الظروف

والمثل الثانى ما فعله عمر كذلك من تخصيص (١) ظاهر النصوص
القرآنية فى الغنائم والفيء ، اذ قال لما فتح الله على المسلمين العراق
والشام ردا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظ بالخمسة
فقط للمصالح العامة : « فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض
بعلوجها (٢) قد اقتسمت وورثت عن الآباء ؟ ما هذا برأى » . فقال له
عبد الرحمن بن عوف : « فما رأى ؟ ما الأرض والعلوج الا ما أفاء الله
عليهم » فقال عمر « ما هو الا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله
لا يفتح بعدى فتح فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على
المسلمين . فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما
يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل
الشام والعراق ؟ » فأكثروا على عمر وقالوا : « تقف ما أفاء الله علينا
بأسياقنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟ ! ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم
لم يحضروا ؟ ! » فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأى . قالوا :
فاستشر ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف
فكان رآيه أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر
رأى عمر ، فأرسل الى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس وخمسة
من الخزرج ، من كبارهم وأشرفهم ، فلما اجتمعوا قال : « انى لم أزعجكم
الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم

(١) لعل عمر كان فى ذلك مقتديا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر حين
قسمها بين جنوده الفاتحين والدولة فوزع نصفها عليهم وأوقف الباقي على المسلمين . فاتخذ
عمر استثناء الأرض من توزيعها على الفاتحين قاعدة لما فتح العراق والشام فجعل الأرض
لها وقفاً على المسلمين جيلاً بعد جيل . وقد أخذ مالك بما فعل عمر فى هذا ولم يأخذ به
الشافعى (انظر زاد المعاد لابن القيم (غزوة خيبر وما فيها من الأحكام) .

(٢) جمع علج وهو الواحد من كفار المعجم .

وأتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ،
ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق
بالحق ، فوالله ! لأن كنت نطقت بأمر أريد به الا الحق » قالوا : « قل نسمع
يا أمير المؤمنين » . فذكر لهم وجه الخلاف ، فأيدوا رأيه ، فقرر إبقاء
الأرض بأيدي أهلها ، وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعا
للرأى الغالب .

هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته في تخصيص أمر عام جاء
به نص وهو نفسه يسلم بهذا النص (١) . غلب عمر رضي الله عنه الرأى
الذى قضت به المصلحة العامة التى رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء
المسلمين أهل الشورى .

أكبر مهام
الدولة

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانّت المصلحة العامة ،
بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذى لن تتجاوزه .

فاقامة توازن اجتماعى يرفع به شر الحاجة عن المحتاج ، ويستقيم معه
العدل والتأمين الاجتماعى هو أكبر مهام الدولة الاسلامية ، ومسئولية
الامام وأهل الشورى فى ذلك واضحة .

لا خصومة ولا
نزاع متى خلصت
النيات لله

والدعوة التى لا يتردد صاحبها وأتباعه فى اقامة ميزان العدل
الاجتماعى على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقوم الخصومة بين
أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية ، فالمصلحة العامة لا تتجزأ ،
والطوائف لا وجود لها متى كان الكل عبيدا لله متساوين ، وكانت
مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد أو الطائفة .

(١) وفى رواية عن الزهري ما يدل على أن عمر فى استدلاله على ضرورة استثناء الأرض
وعلوجها من التقسيم والتوزيع على فاتحيها كان معتمدا على ما يفهم من عموم قوله تعالى :
« والذين جاءوا من بعدهم ... » (بعد سياق الآيات فى سورة الحشر من قوله تعالى :
« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ... الخ ») إذ ان آية : « والذين جاءوا من بعدهم »
عامة فيمن يأتى بعد من الذريات الذين رأى عمر أنه لا تحفظ مصالحهم ومصالح الدولة مع
توزيع الأرض على فاتحيها ... وعلى كلتا الروايتين قد أثبت عمر أن المصلحة العامة كانت
سبب تخصيص النص العام أو فهمه فهما آخر يتسع له السياق .

قد يقال ان أكثر ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة ، واذا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيح هذه المصلحة بكاف لمنع الخلاف ، وليست كلمة العدل ذات معنى واحد عند الناس ليكون للعدل ميزان ثابت . وهو اعتراض صحيح اذا كانت هذه المصلحة مطلقة بغير حد ، وكان هذا العدل متروكا لمجرد ظن الناس ، وذلك ما لم تتركه الدعوة المحمدية للهوى .

فالشريعة الاسلامية تستمد تعاليمها من الايمان برب العالمين اله الناس جميعا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ومن الاحسان الذى لا تقبل فيه الدعوى ، والذى يقصد به وجه الله .

فالجماعة المؤمنة اذن لا تستطيع أن تترك رأيها للشهوات ، والمصلحة العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذى يرضى خالق الناس جميعا ، فلها ضابط من الوجدان الطاهر البرىء . والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوة التى قررها الدين وجعلها شرطا لتمامه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . « كلکم من آدم وآدم من تراب » فعنصر الأثرة منفى بالعقيدة ، وفى هذه العقيدة أكبر ضمان .

والمصلحة العامة أيضا ليست موكولة للصدفة ، لأن على الأعمال حسابا يقتضى من اله عليم فى الدنيا والآخرة ، فهو يجازى الأمم المسرفة المفرطة المتخاذلة فى الدنيا ، ويحاسب الناس على أعمالهم فى الآخرة ؛ والعدل هو الانصاف بالحق موزونا بالاخاء والمساواة ، فليس عدلا ما يتنافى مع الاخاء والمساواة .

الايمان هو
الحارس الاول
على المصلحة

وعليه فالدولة الاسلامية التى يكفل فيها الامام التوازن الاجتماعى والتى تقوم على قوله تعالى « وزنوا بالقسطاس المستقيم » والتى أخذ فيها رأى عمر رضى الله عنه فى ظرف ما ، وخصص به أو فهم النص القرآنى تخصيصا أو فهم مبرره المصلحة العامة ، لا محل ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها .

قد يقال : ان ذلك صحيح ما دام خوف الله وطاعته أصلا فى اعتبار المصلحة العامة ، فما القول اذا ضاع الايمان وفسد الوجدان ؟ والجواب

أن ذلك هو ما أصاب العالم وجر هذه الولايات على الحضارة الأوربية ،
وجرها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ آمام طويلة .

ومع ذلك فالشريعة الاسلامية بما أوتيت من سعة الأفق وحسن
التقدير قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزجر والتعنيف لرد
الناس الى الحق ، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم ، ووكلت الى ولي
الأمر اقامة الحق بالقوة ، اذ لما ارتد العرب وأبوا أن يدفعوا للفقراء
حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه
لرسول الله لقاتلتهم عليه ! » فلم يكل أمر الفقير لوجدان الناس وقاتلهم
على حقه .

الزام السلطان
بمنع نزاع
الطبقات
وبالتأمين
الاجتماعي

والشريعة المحمدية حين خصصت بنص القرآن ايراد ضرائب الصدقات
للتأمين الاجتماعي ضد صنوف من الحاجة لم تكل الناس الى وجدان
الامام أو الدولة ، وزادت على ذلك أن جعلت للامام أن يفرض في أموال
الناس بقدر ما يؤمن الحاجة ، كما عليه التزامات لا مخلص منها لأصناف
من المصابين في المجتمع أشار القرآن البهم ، ولا بد له من أدائها من بيت
مال المسلمين . ويمكن أن يضاف الى هؤلاء الأصناف أصناف أخرى من
ذوي الحاجة بالقياس ، فعليه مثلاً علاج من لا عائل له من المرضى ،
وارضاع من أبت أمه ارضاعه ، وايواء من لا مأوى له ، واطعام من لا
عمل له ، واعانة القادر على العمل بتمكينه من العمل .

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده ، ولو أنها في
الحقيقة كانت حكيمة في استخدام الوجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة
الاجتماعية .

وقد أشرنا الى ضرائب الصدقات باعتبارها أداة لمقاومة الفقر وبالتالي
علاجاً للمشكلة الاجتماعية ، وأشرنا كذلك الى حق الامام في التشريع
والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوي العقول والعلم من أهل الرأي متوخياً
المصلحة العامة وحائلاً بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد

والبغضاء ، فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الامام ورأى جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر .

* * *

وقد عولت الدعوة على الوجدان تعويلا كبيرا وجعلت جزاء المحسنين الجنة ، فترى التحريض على اتفاق المال في سبيل المحتاجين اليه يتردد في آيات الكتاب في كل مناسبة ، وفي أقوال الرسول في كل حين . وليس هذا مقام سرد عشرات الآيات وعشرات الأحاديث ويكفى قوله تعالى « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلاق » .

العنصر الروحي
التهديبى

والتربية المحمدية تهذيب يرمى الى التكافل الاجتماعى ، ويجعل الغرض من العمل والحياة البر « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فكل شخص حسنت تربيته فهو مهياً تماماً للخدمة الاجتماعية ، وهذه التهيئة بالتربية المحمدية هى أفعل الوسائل في مقاومة آفات الاجتماع وأقدرها على جمع الناس ومنع النزاع .

واذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية أعمالاً ايجابية في الدعوة المحمدية لمنع حرب الطبقات ، فان الأسباب السلبية ليست أقل أثراً في هذا السبيل ، فبينما نجد أن الدولة الاسلامية هى أكبر مؤسسة للتأمين الاجتماعى ، يرأسها امام المسلمين ويقوم فيها أهل الشورى مقام مجلس الادارة في الشركة ، ونجد هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المحرومة ، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الايمان والدين الاسراف والترف لتتزل بمستوى البذخ الى مقام لا يثير الحسد والضعينة ، فتنعى على المترفين والمسرفين في شهواتهم وتحذرهم سوء المصير وعذاب الله والحرمان الأخرى ، بل لا تكتفى بذلك وتنذر المجتمع كله بالويل لتركه مسرفيه ومترفيه دون ردع ولا زجر . « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » « وكلوا واشربوا

ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

محاورة الترف
والبدخ

وبين أن من أسباب الخراب الاجتماعى كثرة المترفين فى الأمة « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (١) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أحلت الدعوة الطيبات من الرزق ، ولكنها حرمت على الرجال لبس الحرير والذهب كرمز لبغضها الترف والزينة الكاذبة ، وأباح للنساء الزينة ، ولكنها قاومت غلو المرأة باعطاء القوامه للرجال ، وبمنعها من الظهور فى تبرج .

وما زالت الشريعة تحد من الاسراف والترف وبذخ العيش حتى ظن الناس أن ليس لغنى سبيل الى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله وصار التقشف رمزا للتقوى .

الرسول الزاهد

ولقد كان رسول الله نفسه على ما أوتى من سلطة أكبر الزهاد : يقول ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه وقلت : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء نجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال « مالى وللدنيا ! ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ويروى ابن هشام عن زيد بن أسلم « لما استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما . فقام أسيد وخطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاجع الله كبد من جاع على درهم ! قد رزقنى رسول الله درهما كل يوم فليست لى حاجة الى أحد » .

وروى أن رسول الله دخل على فاطمة وفى يدها سلسلة من ذهب ، وهى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن — تقصد عليها زوجها — فقال صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس . ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ! » ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت

(١) أى امرناهم بأوامر التقى ونهيناهم من الآثام والفسوق والامر فى اللغة يشمل النهى

فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال « الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار » .

وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا »
أى لا يزيد عن الحاجة .

وعن أبى أمامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبى الدنيا فقال : « ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ ان البذاذة من الايمان . ان البذاذة من الايمان »
أى التواضع فى اللباس والزينة .

فالدعوة المحمدية قد قاومت الفقر والترف فقاومت البغض والحسد واستحال معها نزاع الطبقات . هوت بفضل الأموال والأحساب وسمت بفضل التقوى والقناعة ، وعوضت الناس عن كثير من متاعهم المادى بمتاع روحى فلا شك أن فاطمة حين باعت السلسلة وحررت العبد كانت تشعر بغبطة وسرور كلما ذكرت فعلها ، أكثر مما لو أبتت السلسلة فى يدها .

المتاع الروحى
أبقى

وهل كان عمر غالب قيصر وكسرى ، وهو فى ثوبه المرقع أقل متاعا بنفسه الراضية من المترفين الجبابرة فى قصور قيصر وكسرى ؟ كلا .

ولقد كان النجاح الذى أوتيته الدعوة المحمدية فى علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية أعظم أثرا فى اصلاح المجتمع من وسائلها الايجابية بضرائب الصدقات أو كفالة الدولة للمحتاجين بسطوة السيف والقانون .

والدعوة التى استطاعت أن تجمع بين السيف والوجدان ليتسلطا فى وقت واحد ، ويسيرا فى نهج واحد لغاية واحدة هى مجاهدة آفات الاجتماع ، هى الدعوة الموفقة التى ستظل حية على مدى العصور .

جمع بين الوجدان
والسيف

النزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديما وحديثا - الوطنية والقومية الحادة
عصبية حديثة - اثر التشديد في الحدود الجغرافية
والجنسية - انتقال العصبية الحادة الى الشرق -
نظريات اختلاف ادم - اضرار الهجرة الاجبارية -
بارود الحروب الحديثة - الاسلام لا يعرف وثنية
العنصر والوطن - وضع العلاقات البشرية على اساس
معنوى - خلاف اخف من خلاف - القوة ليست وسيلة
الاسلام لتحقيق اهدافه - لا سيادة ولا عبودية .

العنصرية
قديما وحديثا

ولننظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمى وهو الافراط
في النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد
بالعزة والسلطان ، وانكار حقوق الآخرين ، ثم النزاع والتسلح والحرب .
كان الناس يتنافسون قبائل ويتحاسدون ملوكا ويختلفون على الله
أو في سبيل الله ، ولم تكن نعمة الوطن ولا نعمة العنصر فاصلا حاسما بين
المجموعات البشرية كما أرادت المدنية الحديثة . وتاريخ العرب والترك
والبربر وغيرهم من الأقوام الاسلامية حافل بالنزاع القبلى ، بعيد عن
النزاع العنصرى ، وكذلك كان الشأن في أوربا وكانت الأسرة الملكية
تضم تحت رايتها باسم الولاء للملك أو باسم الولاء للمذهب
قبائل وشعوبا تتحد مصالحها وان اختلفت أصولها أو لغاتها ، وأحيانا
عقائدها . وكثيرا ما تكون هذه الأسرة غريبة ، أو تكون من الأقلية
القومية في الدولة ، فتكون تحت رايتها مجموعة تربطها القوانين وتتسع
لأقليات شتى تعيش تحت الراية ، ينالها من الشقاء والسعادة مثل
ما يصيب الجميع .

وكثيرا ما تكون هذه الأقليات أرغب في هذه الراية والولاء لها منها
لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت راية أخرى .
كان الأمر كذلك في كثير من الدول التى عاصرها كالدولة العثمانية
تحت لواء آل عثمان ، والدولة النمساوية المجرية تحت لواء آل هابسبرج ،
وقد شاهدنا شعوبا من العرب أشد ولاء واخلاصا لدولة آل عثمان منهم
لأمرائهم وأشرافهم من العرب .

وكان الأمراء كذلك في الدول القديمة ، وفي دول القرون الوسطى ،
كالدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة والامبراطورية
البيزنطية وكذلك عرفنا من الصقالبة في دول النمسا من كانوا أوفى لها
منهم لأبناء عموماتهم من الروس .

كانت الرغبة متساوية في السيادة أو العبودية للملك القاهر فوق
الجميع ، وكان يرقى سلم المناصب كل من سمحت له مواهبه وظروفه في
خدمة الملك أو السلطان ، فنجد البرامكة وآل طاهر الايرانيين ، أعلى
الناس مقاما في خلافة الهاشمين من العرب ، وعائلة (كوبرلي زاده) من
الأرثووط في خلافة العثمانيين من الترك ، بل لقد صعد هذا السلم من
العبيد في الدول الاسلامية عدد أكثر بكثير مما تأذن به نسبتهم العددية ،
وبلغ الذروة من الممالك ما بين مصر والهند في الدول الاسلامية عشرات
السلطين ممن لا تزال آثارهم خالدة في دلهي والقاهرة ، وفي تلك الساحة
الاسلامية العظيمة من الأطلسي الى الهادي .

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل ، وانما يتساءلون عن
عمل وخلق ودين . فمن الممالك الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة في
مصر والبلاد الاسلامية نجد الأرمني والروسي والصقلي والكرجي
والشركسي والتتري والتركي والفرنجي والسوداني والحبشي . ولو
تعقبنا أنسابهم لانكشف لنا عن جميع ألوان البشر .

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ، ولا القومية بعصبيتها الحاضرة
حدا فاصلا بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة .

الوطنية والقومية
الحادة عصبية
حديثة

فالوطنية والقومية بمعناها الحالي لم يكونا مع الأسف خطوة في
سبيل الاستقرار ، بل كاثقا عاملا لزيادة الاضطراب العالمي ، وسببا جديدا
لنزاع أوسع دائرة وأعصى حلا .

فان الوطن باعتباره مقاما جغرافيا لقوم من الأقوام لم يستطع أن
يحدد حدودا لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم ، ولم
تساعد الطبيعة الا نادرا على تحديد مساحة خاصة لعنصر خاص . ففي أوروبا

أنر التشدد في
الحدود الجغرافية
والجنسية

كلها لا تجد الا الجزر البريطانية التي حددها البحر . ومع ذلك فلم تخل
ايرلنده من نزاع مع بريطانيا على مقاطعة (ألستر) في شمال ايرلنده .

وقد مر قرنان على الأقل على أوربا ، وقد غرقت في دماء حروبها
لتعديل الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان ، وبين هؤلاء
والنمساويين ، وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالية ، وبين النمسا وإيطاليا ،
وبين البلقانيين جميعا ، وبينهم وبين الدولة العثمانية ، وبين روسيا وجيرانها
من الغرب أو الشرق أو الجنوب ، وبين التشيك والبولنديين والمجر
والرومانين .

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائما لا يستقر بل
يتزايد على مدى الأيام ، وعلى قدر الحدة في العنصرية والوطنية .

فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فصلت في الأمر بحر أو جبل
لا ينال ، كالهملايا بين الهند والصين فلا بد من النزاع .

انتقال العصبية
الحادة الى الشرق

وهذه المشكلة الأوربية المستعصية وما يتبعها من نزاع على الحدود
ونزاع على العنصرية وما تنطوي عليه من مشاكل الأقليات ، أخذت
تنتقل الى الشرق نتيجة لتأديه بأدب الغرب ، واعتناقه نظرية الوطن
والقومية ، فأخذنا نسمع في السنين الأخيرة بقضايا شبيهة بالقضايا البلقانية
على سنجق الاسكندرونة بين سوريا وتركيا ، وعلى شط العرب والحدود
بين العراق وايران . ولم يكن المسلمون بتريتهم المحمدية يتنازعون على
مثل هذه القضايا باعتبارها مشاكل عنصرية ، وستكون هذه المشاكل
سببا لبلاء الشرق كما كانت سببا للحروب الدامية في الغرب ، فيتنازع
العرب والترك والكرد والشركس والأذربيجانيون والایرانيون والأفغان
والهند (١) والأزبك والصين والمغول .. الى آخرهم ، على الحدود
والأقليات ، حتى يدخل الشرق جحر الضب الذي دخله الغرب !

(١) كتب هذا في سنة ١٩٤٣ ولم تكن القارة الهندية قد استقلت . فلما قسمت الى
دولتين وظهرت دولة الباكستان المسلمة وقع النزاع بينها وبين الافغان على أساس العنصرية ،
فرغم أن قبائل الباطان مسلمون فان لسانهم هو الباشتو ، وما أشبه هذا النزاع الآن بالنزاع
الأروبي على حدود الوطن .

والوطنية بالعرف الحديث شر جديد ، والعنصرية بلاء أعظم ، ولا دواء لهما الا بتهجير عشرات الملايين من منازلها الحالية ، وحصر كل منها في نطاق جغرافي خاص .

وقد أخذ بعض الأوربيين يسرف في الدعوة العنصرية ، فغالوا في معناها واشتطوا في مرماها ، فجعلوا عنصرا سيدا تقى الدم وآخرين دون ذلك . وهو أمر محال لا وجود له ، يزيد العالم اضطرابا وخصاما .

نظريات اختلاف الدم

ومن ذا الذى يستطيع أن يفرز الأقوام ويحلل دماءها ويكفى الناس شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية ، ويكفيهم بلاء الحدود التى لم تأذن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر ؟

وقد جرب اليونان والترك الهجرة الاجبارية ، ولم يستفد منها اليونان ولا الترك رغم ما صاحبها من اضطراب وقسوة في نزع الناس من منابثهم ومساقط رءوسهم . على أن هذا التهجير الذى كان محدودا وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه كقاعدة . ومع ذلك ، فلو فرض أننا ضمنا جيلا من الناس في سبيل هذه التسوية ، فان الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوينا ، لأن طبيعة الحياة تستلزم النقلة ، والمصالح تتبدل ، والأقوام تنمو وتنقرض ، فلا بد من اختلاط جديد وانتشار جديد ، ولا بد من العودة الى القسوة والتهجير الجبرى .

اضرار الهجرة الاجبارية

وقد حاولت عصبة الأمم حلا لمشكلة الأقليات فهل حلتها ؟ ألم تكن هذه المشكلة في السوديت واللورين ودانزج وترنسلفانيا وبسراييا والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها ؟

بلاود الحروب الحديثة

ولقد كان الغلو في معنى الوطنية والعصية القومية عاملا أساسيا في زيادة الاضطراب العالمى ، والتدرج بالحروب من نزاع موضعى الى شر مستطير أبعد مدى في الأرض ، وأوسع دائرة في الخطر ، أو بعبارة أخرى متناسبا مع الغلو في الأفكار القومية والوطنية .

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث ، فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية ، فهو يمتد مع العقيدة ، بل هو في

الاسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن

الحقيقة وطن معنوى كما أن الدين أمر معنوى . يقول الله تعالى « يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فإياى فاعبدون » والمسلم أخو المسلم أينما كان ، جاوره أم تباعدت به الأرض ، والمسلم أينما حل فى دولة اسلامية فقد حل فى وطنه ، واذا وجد فى دار حرب بين جماعة معادية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكاليفات أو سقط بعض ما له من حق فانه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوله عن داره ، أو بدخول أهل هذه الدار ، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين ، أو اشتراك فى الدولة .

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية . يقول صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » فالاسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة الله ، ولا يعرف الولاء الا للعلاقة الروحية . والناس من أى جنس أو لون أو وطن اخوان اذا اتفقوا فى العقيدة ، وولاؤهم انما يكون لأمر معنوى لا لأمر مادى . يقول تعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ويقول سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واهوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وضع العلاقات
البشرية على
أساس معنوى

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، فهى بلا شك أسمى من النظرية الحديثة التى جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك ، لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر وتشرفه بالعقل والروح ، بينما الأخرى تهبطه الى المادة فتشغل ناحية الحيوانية منه ، والعناية بحاجات الروح أدعى الى السلم والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان .

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى الى السكون والترحم .

قد يقال : ان ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين الناس على العقائد والرأى لا على البترول أو القطن ، وذلك لا يغير كثيرا من قيمة النزاع وشره ، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب وحروب عالمية . وذلك

خلاف أخف
من خلاف

صحيح لأول وهلة . ولكن نظرة في طبيعة الناس تعلمنا أنهم أشد انفعالا وأكثر تحفزا للشر حيثما يكون الأمر متعلقا بالمادة وماسا بحاجتهم البدنية، فالفلاح يقتل جاره لسقيه ماء يريد لها لحقله ، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي ، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي الى القتل الا في النادر الشاذ .

والدعوات الفكرية قد تصحبها الحدة في بادئ الأمر ، وينتهي شأنها الى الاستقرار والحجة وسعة الصدر ، لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى الا بحافز مستديم ، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية ، وكثيرا ما تكون حماسهم ثم فتكهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية . ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأمر ، فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنوي ، حرمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة . يقول الله تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

فلاسلام لا يأذن باستخدام القوة الا لضمان حرية الدعوة للناس جميعا وفرق بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الاكراه على تغيير الرأي . واذا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمي القائم على دعوى الوطن الجغرافي ، ودعوى القومية والعنصرية ، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح التي تدعو اليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى .

ولعل الناس يجدون في ذلك الهدى ، ولعل في نظام العالم بعد الحرب الأخيرة ، وبعد هذه العبر ما يقيمه على تلك النظرية السامية البعيدة التي جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بعد عن عصية الجاهلية ونشأ في المدرسة المحمدية يقول : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته » والتي يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور : « أنا أخو كل تقى ولو كان عبدا حبشيا ، وبرىء من كل شقى ولو كان شريفا قرشيا » .

القوة ليست
وسيلة الاسلام
لتحقيق أهدافه

لا سيادة
ولا عبودية

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في طفيلان المادية - سرعة
التطور المادي وبطء التطور الروحي - تباعد الفروق
بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادي - بلبلة وشتات
وتناكر - ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة -
نعم تستحيل إلى تقم - جرائم ترتكب باسم الحريات -
لابد من ضوابط أخلاقية قبل الكارثة الكبرى - توفيق
الإسلام بين الحياتين - المدينة تتحطم مرتين في ربع
قرن - أتعمر للتخريب ؟ - فلنرجع إلى منابع الهدى
والرحمة في الأديان - تصوير للحرب تسخر منه العقول -
أجهالات في مكان الكمالات ! - افلح من زكاه

سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي ، هو انهزام القوى المعنوية
أمام القوى المادية ، أو بعبارة أخرى تخلف القوى المعنوية عن اللحاق
بالتطور الفجائي للحياة المادية ، واختلال التوازن بين الروح والمادة .

وكان الناس وهم على الفطرة الأولى لا يسيطرون على المادة إلا سيطرة
محدودة ، ولا يطمعون في التغلب على الطبيعة طمعهم بعد اكتشاف البخار
والكهرباء ، ونفاذهم إلى القوى الكامنة في الذرة ، وإلى عناصر المادة
وتحويل تراكيب هذه العناصر . فلما افتتوا في استخدام الكيمياء
والميكانيكا ، واستخرجوا من ذلك قوى جديدة ، انصرفوا عما وراء
الطبيعة ، وعن عالم الروح إلى قهر الطبيعة والإيمان بالمادة وفعالها
دون سواها .

ففي أجيال معدودة تغير وجه الحياة وانعكست وجهات النظر ، فلو
خرج أجدادنا من أجدانهم لاستنكروا حياة أهل الحضارة الجديدة استنكار
سكان الكهوف لسكان ناطحات السحاب . فقد تغيرت أسباب العيش
وتغيرت كفاياته وتغيرت أغراضه ، وانقلب الناس إلى السرعة يطلبونها
وإلى الحركة الدائمة يستطيبنها ، فنفروا من الدعة والسكون بقدر ما كان
أجدادهم ينفرون من الضوضاء والسرعة .

تغير طرز الحياة فجأة ولما يستقر ، بل هو في تغير مستمر ، فالفرق بينى وبين أبى هو جيل واحد (١) ، ولكنه أعظم من الفرق بين أبى وبين آبائه قبل عشرات الأجيال .

هذا التغير المادى المستمر ، وهذه السرعة التى لا تزال تتضاعف دون أن تبلغ حدها الأقصى ، قد جعلت الانسان وهو يلاحق الحياة المادية الجديدة يغفل ، أو لا يستطيع أن يحتفظ بحياة معنوية مناسبة ، فهو لا يستطيع أن يساير هذه السرعة المتفجرة تفجر المادة الى أجزائها مسيرة يحتفظ فيها بترائه المعنوى ، فتخلفت الحياة الروحية التى كسبها الناس فى تجربة آلاف السنين عن الحياة المادية الجديدة التى كسبوها فى قرن واحد ، وتطورت هذه الحياة تطورا فجائيا ، وبقي الانسان مثقلا بتراث معنوى ضخيم لا يتحرك معه فخلفه وراءه .

سرعة التطور
المادى وبطء
التطور الروحى

فترى الناس مختلفى الحياة اختلافا كثيرا بعد أن كانوا فى أطراف المعمورة تربطهم صلات معنوية ومادية قوية ، ولا تختلف نظرتهم للحياة ولا كيفية عملهم فيها الا قليلا . والفرق بين أبناء الجيل الواحد فى بلد واحد أكثر مما كان من فرق بين انسان فى شمال أوروبا وآخر فى وسط آسيا منذ بضعة قرون . بل ان الفرق بينى هنا فى مصر وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتى ، وأنا لا أزال وثيق الصلة بأهلى ، هو أكثر بكثير فى طرز الحياة وطرز التفكير مما كان بين أحد أجدادى الأقربين وسكان المغرب الأقصى أو الأفغان . ولا أظن أن « ابن بطوطة » حين رحل من المغرب الأقصى الى الشرق الأقصى وجد من الفرق بين الناس ما يجده قروى لم يسبق له زيارة القاهرة اذا جاء اليها من ناحية قريبة فى الجزيرة مثلا . ففى الوطن الواحد أصناف من الأمم تباعدت أفكارهم وأخلاقهم ومعنوياتهم تباعدا متناسبا

تباعد الفروق
بين الناس تبعا
لحفظهم من
العلم المادى

(١) ولد أبى حسن عزام فى النصف الاول للقرن الماضى ومات فى أوائل هذا القرن (١٩٠٦) وكان شيخا ريفيا ثريا عظيما زعيما فى قومه متفكها فى الدين ممثلا لمديرية الجزيرة فى مجالسها النيابية . وكان أبوه سالم عزام حاكم اقليم (ناظر قسم) أى من بيثة مقصلة بالدولة ومع ذلك فان الفرق بيننا ما ذكرت .

مع قدرتهم على ملاحقة الحياة المادية المتحركة ، ومنهم من يتعلق بمركبها ، ومنهم من يجرى وراءها ، ومنهم من ينظر حائرا ، ومنهم من يثس وقعد واقطع ..

فالذين ملكوا المادة وصناعتها ، عليهم — وهم في موكب الحضارة — مسحة التجانس الظاهري ، ولو أن صلاتهم الروحية أضعف جدا مما كانت ، والمتخلفون أقل تجانسا .

بليلة وشتات
وتناكر

لقد صارت الأمم صنوفا من الناس متقاطعة ، وصار البشر مشتتين في عالم متناكر تبلبلت فيه الأفكار ، واختل العرف البشرى ، وتباعدت ألوان العيش المادى ، وتكاثرت صورته الذهنية ، وتناكرت الطبقات والطوائف والأقوام . وكلما امتد دور الانتقال تعددت مظاهر الأفراد والجماعات واستعصى الرجوع بها الى أصول مقبولة ومسلم بها من الجميع ، أو مسلم بها على الأقل من كتل كبيرة كانت تجمعها صلات روحية قوية في عقائد دينية مشتركة تشمل مئات الملايين من الخلق .

ولا يظن من أن الحياة المادية القائمة على السرعة وسيلة عاجلة لجمع البشر على نظرة موحدة للحياة المادية ، وعلى أسس معنوية مقبولة من الجميع قبول العرف والدين في مئات الملايين من الصينيين أو الهنود ، أمر قد يكون في سبيل التحقيق ، ولكنه لا يزال بعيدا جدا ، وسيلقى العالم أهوال أدوار الانتقال والاستقرار ، ولن يستطيع الناس أن يخلعوا التراث المعنوى والفكرى كما يخلعون الثياب ، ولذلك هانحن أولاء نشهد تشعب الأفكار والآراء واضطراب الحياة .

ضرورة التوفيق
السريع بين
الروح والمادة

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعمل السريع للتوفيق بقدر المستطاع بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياة المادية المفاجئة ، وتجنب أثر الصدمة التى تتولد منها هذه الانفجارات الهائلة بين الأمم وبين الطبقات فى الأمم . لا بد لنا كى تتمتع بشار المدينة الآلية ونستكمل نعمتها ، من بعث الحياة الروحية بعثا جديدا مناسبا للحياة المادية الجديدة . ففى هذه الحضارة نعم لا حد لها ، فقد تغلب الانسان بالآلة والعلم على كثير من

الصعاب والويلات ، زاد انتاجه وسهل انتقاله وقهر الأمراض الجائحة
واتقى القحط ، وتعددت مصادر لهوه ومرحه وتزينت له الأرض وأخذت
زخرفها ومشى فى قرن واحد بالحضارة المادية ما لا يقاس معه مشيه
فى القرون الماضية ، ولكنه فى قرن واحد كذلك قضى أو كاد يقضى
على تراثه المعنوى الذى كسبه فى عشرات القرون .

نسى الله فأنساه نفسه . ففى جيل واحد هزمت حياة الروح هزيمة
نكراء أمام حياة المادة ، وأخذت الآلة الصماء ، وقد سيطرت ، تفتك على
غير هدى وبغير ضابط من دين أو خلق أو عرف ، وبقي تراث البشر
المعنوى لا حراك له ، فشك الناس فى قيمته ، وهم اليوم ينظرون اليه شيعا
بعضها يعطف عطف الأحياء على الموتى ، وبعضها يشمت شماتة الغالب
بالمغلوب ، وبعضها يخلص له ولكنه فى الاشتغال بحاله يتخلف عن موكب
الحضارة السائر فى عزة المنتصر وزهوه .

والواقع أننا من غير تدبر اندفعنا فى سبيل قد حول النعم التى تتمتع
بها الى وسائل هلاك لنا ولحضارتنا ، فبدل أن نناصر القوى المعنوية
ونعطيها من جهودنا وهمتنا ما نعطي القوى المادية أخذنا نزيف آراء
ونخترع لها نظريات ونصدقها ، ولا نلبث أن نرتد عنها . وها نحن أولاء
بهذه الآراء الخطيرة نسير للهلاك .

نعم ننحيل
الى نعم

فباسم حرية المرأة ندمر هدوء المنزل وحياة الأسرة ، وباسم حرية
الوطن نمزق الأوطان ، وباسم حرية العمل وحرية رأس المال سنمحو
رأس المال ونستعبد الطبقات ، وباسم مقاومة هذه الحريات سنفقد حرية
الفرد وحرية الجماعة وحرية الرأى . ولم يكن أهل الرأى والعقل والعلماء
والفلاسفة أقل أثرا فى المجتمع البشرى منهم فى عصر سيطرة الآلة الذى
نعيش فيه .

جرائم ترتكب
باسم الحريات

هذا ولا تزال هزيمة الأديان والعرف والأدب القائم على تجارب
آلاف السنين لم تبلغ نهايتها ، فاذا بلغت ولم يحل محلها شئ آخر يسند
الحياة المعنوية والقوة الأدبية فأى ضابط يبقى لهذه الآلة الجامحة والقوى

لابد من ضوابط
أدبية قبل
الكلالة
الكبرى

المتفجرة التي أطلقها الانسان من عقل الطبيعة وعجز عن أن يوجهها للخير وحده ؟ ! فلا بد للعقلاء من صيحة أرجو ألا تضيع في ضوضاء الآلة . لا بد للعقلاء من الصبر والكفاح في سبيل الحياة الروحية ، في سبيل أن تساير القيم المعنوية القيم المادية ، وأن تزدوج الحياتان لا أن تتنازعا وتتفارقا .

توفيق الاسلام
بين الحياتين

لقد كان الاسلام أبعد نظرا حين دعا الى هذا التزاوج فيما يؤثر من ميراثه ، بقوله : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . « والدنيا مطية الآخرة » .

فلتكن الحياة المادية الفانية التي تغير وجهها في قرن واحد كل هذا التغير ، مطية للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمة . قد يقول بعض الناس : انك تكاد تنكر الرقى الأدبي والمعنوى الذي صاحب هذا التطور المادى الفجائى وتنكر نعم المدنية الجديدة ، وانى لا أنكر شيئا من فضلها ، ولكنى أنعى هزيمة القوى المعنوية وهزيمة العقل أمام الآلة الصماء المتحركة التي تحملنا في جوفها وتشملنا بين أجزائها . وقيم الأشياء بآثارها والأعمال بنتائجها .

مدنينا تتحطم
مرتين في ربع قرن

ونحن الذين شاهدنا ويلات الحروب العالمية مرتين في ربع قرن أحق الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدنية التي هذه بعض آثارها ، ولنا كل الحق في أن نقف لنتدبر ونرجع البصر كرتين الى القوى المعنوية للأديان ، لعلنا نستمد منها تسليح الوجدان البشرى ضد طغيان الآلة الصماء ، لنرجع الى تلك القوة المعنوية التي كانت توجهنا الى الخير العام بقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فجعلت هدف الحياة هو فعل الخير ومقاومة الشر .

أتمير للتخريب

أما أن يكون غرض الحياة الحصول على المواد الخام ، ثم تقديمها للآلة الصماء ، ثم النزاع على الأسواق لتوزيع منتجات الآلة ، ثم القتال على المادة كى تستمر في حركتها ، ثم نطلب المزيد فننتزع لمنتجاتها الأوطان أسواقا ، ونفتح الأرض لمخزون الركاز فيها ، ويتقاتل عبيد الآلة من أجل

السبق الى حاجاتها ، ثم ينتهى الأمر الى حروب عالمية تسلط فيها قوى الآلة كلها لتدمير نفسها وتدمير الحضارة البشرية — فأمر لا يمكن أن يدوم ، وهو عندى من نتائج خذلان القوى المعنوية أو جمودها ومناصرة القوى المادية .

نعم لنرجع الى الأديان نستمد منها الهدى ، ولنوفق بين هذه الأديان لنستمد من وفاقها القوة ، لتتوازن الحياة المعنوية والحياة المادية ، ولكى توجه الأولى الأخرى فى سبيل الخير العام ، وقد دعانا الله الى ذلك بقوله :

فلنرجع الى منابع الهدى والرحمة فى الأديان

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ولتصوروا مقدار الخطر من فقدان هذا التوازن ومقدار الحاجة الى العقل والروح فى أحسن عصور الحضارة المادية ، تصوروا أنكم دعيتم لمشاهدة معركة للقطط فى جبل المقطم ، وقد اصطفت القطط صفين ، ثم هجمت تتقاتل ، ألا تضحكون عندئذ من القطط ؟ ألا تهزءون بعقولها ؟ ألا تسخرون من سخفها ؟ بل تنقلبون من السخر الى الرثاء لها ثم البكاء لما أصابها .. ؟ !

تصوير للحرب يسخر منه العقول

فاذا قيل لكم ان قطط أحد القارات قد تعلمت علما يمكنها من الحركة فى السماء وتحت الماء ، والمخابرة والتفاهم مع قطط باقى الأرض بالآثير ، وأنها استخدمت علمها وكتبها وعقلها وأدبها ، فجمعت قطط العالم لمعركة عامة بينها واتخذت ميدانا للمعركة أوسع من جبل المقطم : سهول أوروبا والصين وجزر آسيا وجبال افريقية وصحراءها ، وكل مكان تعيش فيه طائفة من القطط ، وأنها حشدت كل شئ لدوام معركة لا نهاية لها ، ثم علمتم أن القطط نجحت فى خططها ، ودعيتهم بصفتكم ملائكة هذه الأرض لتشهدوا حيوانية القطط المتمدينة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء ، أكنتم تسخرون من عقول القطط ؟ أم تعجبون بمدنيتها وعلمها ؟ أم كنتم تكونون لما أصاب القطط من الضلال ؟ أظن أن الملائكة فى السماء ورسلا

الله منا ، الذين جاءوا بالهدى هم كذلك في السماء يكون لما يصيب
الناس في هذا العصر وما أصاب القوى المعنوية من الهزيمة أمام الآلة
الصماء .

ان انهزام القوى المعنوية بسيطرة المادة هو انهزام العقل والمروءة
والوفاء والفروسية والتقوى والرحمة والقناعة . واذا انهزم أولئك جميعا
حل الجهل والعدو والخيانة والأثرة والرياء والفتك محلها واضطرب لذلك
النظام العالمى .

والدعوة المحمدية حين عنيت بالروح وتزكيتها ، وحين وازنت بين
مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، وأقامت الشريعة على ميزان من العدل
تزن بين حاجات الروح وحاجات البدن ، قاومت الطغيان المادى فمنعت
سببا من أسباب الاضطراب العالمى ، « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها
وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

ثالث الفساد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم - فاسفة
سياسية خطيرة - آية قرآنية يفخر بها المسلمون -
تشبيهه بليغ - نصوص وحوادث - الغدر غير الخدمة
في الحرب - قبح الغدر حتى بين الأشقياء - الله لا يهدي
كيد الخائنين - الكذب والنفاق في السياسة - المكيافيلية
ينكرها الاسلام - سياسة الوضوح - صفتان أدنا من
الكفر - أسماء على غير مسمياتها .

قلنا ان هناك أسبابا أخرى للاضطراب العالمى قد تكون أقل شأنًا ،
ولكنها عناصر هامة كذلك في عدم الاستقرار الى سلم دائم وعلاقة حسنة
بين الشعوب والأقوام .

والآن نتخير من الأسباب الكثيرة الخلقية أسوأها أثرا في المجتمع
البشرى ، وهى الغدر والكذب والنفاق . وهذه الصفات الثلاث ، على
سوءها وضررها في حياة الأفراد ، أبعد أثرا وأعظم ضررا في علاقات الأمم ،
ولذلك عنت الدولة المحمدية عناية كبيرة بمقاومتها في أخلاق الأفراد
وصلات الشعوب . وقد فشت مع الأسف الشديد هذه الصفات المزمومة
بنسبة عكسية مع ضعف الحياة الروحية وسيطرة المادة ، وأصبح الناس
لا يستحيون من الغدر استحياء آبائهم ، لما كان يصحب الغدر ، من ضياع
الشرف والهيبة ، بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظرتة الى الكيس المبدع
في حسن التصرف ، وقيس فضله بنجاحه غير عابىء بالوسيلة وان كانت
أخس الوسائل . واذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها فشا الغدر
في صلات الشعوب واضطربت العلاقات الدولية أيما اضطراب .

والمتعقب للسياسة الدولية في مدى نصف القرن الأخير يستطيع
أن يشبر الى عشرات المواقف الغادرة ، وقل أن يجد حلقة نقية في سلسلة
الغدر الخبيث . فالمفاجأة والنكت بالعهود كادا أن يكونا القاعدة بعد
أن كانا ، حتى في الجاهلية وبعد أن انتشرت مع انتشار الاسلام والعرب
آداب القروسية في القرون الوسطى ، من الصفات التى تحط من قدر
الأفراد والشعوب وتمرضها للزراية العامة .

آثار الثالث في
حياة الأفراد والأمم

فلسفة سياسية
خطرة !

ولم يزل الكتاب الكريم يسفه الغادرين ويحض على الوفاء حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدين كما أشرنا الى ذلك في موضع سابق .
وهذه الآية الجليلة « وان استصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » تبقى أبد الدهر فخر المسلمين في حرمة العهود وحرمة الوفاء !

وزرارة القرآن على الغادرين في قوله تعالى « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ، انما ييلوكم الله به » وتشبيهه الغادر بالمرأة السفيرة تنقض غزلها بعد أن أبرمتها مثل بليغ للذين يعشون بعهودهم ، يهوى بهم الى درك السفاهة ، تلك السفاهة التى يترتب عليها فى الحقيقة اضطراب العالم كله اذا حل الغدر محل الوفاء .

تشبيه بليغ !

روى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة » .

نصوص وحوادث

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طول حياته ، فى صلاته بالأفراد والجماعات ، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان فى مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبى نفسه .

كان مطعم بن عدى من أشرف قريش المشركين ، وكان رسول الله حين رجع من (الطائف) بعد أن لقي من (ثقيف) منكر القول والفعل ، قد طلب جوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمنا على حياته ، فأبوا وقبل مطعم أن يدخلها فى حمايته ، فلما كانت واقعة بدر بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدى . وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

أباعين فابكى سيد القوم واسفحى بدمع وان أنزفته فاسكبى الدما !
وبكى عظيم المشعرين كليهما على الناس معروف له ماتكتما

فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبي مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها وقحطان أو باقى ببيعة جرهما
لقالوا هو الموفى بجيرة جاره وذمتـه يوما اذا ما تدمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم على مثله فيهم أعز وأعظما !
مات مطعم مشركا مقاتلا الرسول ، ولكن الوفاء فى هذا المثل يرثى فيه
حسان عدوا مشركا ، والرسول يسمع ولا ينكر ، يدل على أنه صلى الله
عليه وسلم أنزل الوفاء فى مكان من القداسة لا ينزله عنه خلاف فى الدين
ولا قتال وعداء . فالرسول حين يسمع الى شاعره يبكى المروءة فى عدو هو
أحد صرعى القتال من المشركين المعتدين يسن لنا فى الرجولة والمروءة
والوفاء مثلا قد علا فوق كل شيء ، ويحط من صفة الغدر الى الدرك
الذى لم يصل اليه أحد قد بقى له من الايمان والخلق شيء .

وقد روت عائشة أن عجوزا جاءت الى النـبى فقال لها : من أنت ؟
فقلت : جثامة المزنية . فقال : أنت حسانة ! كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟
كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير . بأبى أنت وأمى ! فلما خرجت قلت :
يا رسول الله : تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ! قال : « انها كانت
تأتينا زمن خديجة ، وان حسن العهد من الايمان » .

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية ، واعتبر حسن العهد من
الايمان لو فر على نفسه ويلات كثيرة .



قد يبدو الغدر أول وهلة وسيلة من وسائل الظفر ، وطالما تحدث
الناس بأن الحرب خدعة ، وشتان بين الخيانة والنكث بالعهد أو المفاجأة
والأخذ على غرة وبين الخدعة فى القتال ، فالخدعة حيلة يعرف الخصم
أنه معرض لها وليس له وعد باجتنابها ، وهى دائما فى حدود الحرب
المرعية ، وقد تحدثنا عنها من قبل ، فاذا ألقيت فى روع العدو أنك ستأتيه
بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث اليها الا الأقل ، وحولت الكثرة لناحية

أخرى ، فليس هذا غدرا وانما هو خدعة لا تتنافى مع المروءة وحسن الخلق .

فبح الغدر حتى
بين الأشقياء

حكى لى أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن وعده ألا يدل عليه ، والغدر منقصة حتى بين الأشقياء ، فسألت عما يقول الشيخ فى ذلك ، فقليل : انه قال : « الخونة عونة » أى أن الخيانة مما يستعان به . وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوى أشد الانكار . وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ « الخونة عونة » الذى يقول به شيخ من قساة البدو ، والذى ينكر الناس اتخاذه مع شقى من الأشقياء فى حادث سلب أو نهب ، يفشو فى علاقات الأمم الكبيرة فتغدر وتفاجىء لتفتك فى غفلة ، متجاهلة حرمة العهود وحرمات المروءة . فكما أن مبدأ « الخونة عونة » جعل الحياة قديما بين بعض القبائل فى اضطراب مستمر فسلبها الأمن ، فهو بين الأمم المتحضرة يمد هذا الاضطراب بالوقود .

ولا أظن أن اتخاذ الغدر وسيلة من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جلية فى زمن من الأزمان ، فهو قد يكسبهم المعركة الأولى ، ثم يرتد عليهم ، ولا بد أن يتحقق فى الغادرين قوله تعالى « ان الله لا يهدى كيد الخائنين » .

الله لا يهدى كيد
الخائنين

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر فى علاقات الشعوب، يؤدى قطعا الى التربص وسوء الظن ، فيفقد الناس نعمة الأمن فى السلم والحرب . وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوى بويلات الحرب ليخرج منها الى الخوف والاستعداد لحروب أخرى . ذلك هو الجزاء السماوى . ولذلك يحرص الاسلام على الوفاء حتى مع الغادرين ، فوفاء بغدر خير من غدر بغدر .

أما الكذب والنفاق فلا تقول ان الناس أكثر تحريا للاخلاص والصراحة مما كانوا ، ولا ان الكذب من الأخلاق التى ظهرت فى العهد الآلى بأسوأ مظاهره ، ولكننا لا نستطيع كذلك أن نقول ان الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى ، وانما الذى تنعيه فى هذا العصر هو الكذب فى السياسة . ونستطيع أن ندعى أن الكذب والرياء من عناصر الاضطرابات فى العلاقات الدولية أكثر مما كانا فى الماضى .

الكذب والنفاق فى
السياسة

مكيقللى فى كتاب (الأمير) مثلاً يجر بنظريات لا ترتضيها قواعد المكيقللى ينكرها
الاسلام
الأخلاق والمروءة ، والناس الآن يطبقون آراء (مكيقللى) وليس لهم
صدق فى اعلان رأيه . وعندى أن كتاب (الأمير) نفسه دليل على أن
الناس فى العصور الوسطى كانوا أقرب الى الصدق ، منهم فى العصر الذى
يستتكرون فيه المكيقللية ويعملون بها .

وهذا الكذب والنفاق فى السياسة الذى يظنه بعض الناس مبرراً سياسة الوضوح
ويفتنون فى تزويقه وتميقه ويعدون له لازماً للدبلوماسية ، يبغضه الاسلام
وينفر منه . وتاريخ الفتوحات الاسلامية مثل باق من الصدق والجر
بالحق للعدو والصدق ، وسير الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية ،
والذين لم يقعوا فى أساليب الفرس وأساليب بيزنطة ، تفيض ببساطة
الصدق ووضوح الحق ، فاذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا هم أو سفراءهم
أو ولايتهم ، وجدت قولاً واضحاً يتحرى أن يكون بعيداً عن التأويل جلياً
لا ينمق ولا يمارى . يقول رسول الله « أنا زعيم بيت فى ربض الجنة لمن
ترك المراء وان كان محققاً ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان
مازحاً ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

ولقد أراد الاسلام فى جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك
الوضوح ، فتجده مطلوباً فى كل شيء . وعدم الوضوح فى العقود وتعريضها
للتأويل والمشاحنة كان سبباً فى تحريم كثير منها .

ويكاد القارئ لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق
صفتان أدنى من
الكفر
أخط من الكفر ، فقد لعن الكاذبين وجعل المنافقين فى الدرك الأسفل من
النار . ولأول وهلة قد لا يدرك الانسان حكمة هذه الشدة ، فاذا نظر فى
أثر النفاق من الناحية العامة ، وتجاوز برهة أثره على المنافق نفسه ، وجد
أنه عنصر جوهري فى فساد النظام العالمى .

وليفظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالمى ، أليس
النفاق من أهم أسبابه ؟ ولو كان القائمون على (جمعية الأمم) مثلاً
— وقد اشترك فيها أو فى تأسيسها كل الذين قتلوا فى الحرب الأخيرة —
قد بنوا مؤسستهم على الصدق وعلى الاخلاص آكانت تنهار كما انهارت ؟

أكان انهيارها يجر الى هذا الفساد الكبير الذى وقع فى الحرب العالمية الأخيرة ؟ ولو أن الدعوة التى يدعيها الناس من حب الخير العام ، ولو أن الحرمة التى للحقوق البشرية كانت حقيقة فى نفوسهم وكانوا صادقين غير مرأئين ، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير أنعام كما يختلفو اليوم ؟.

أسماء على غير
مسمياتها

ان النفاق قد ألبس الأمر على الناس ، فاذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة : الحرية . المساواة . العدل بين الناس . حق الجميع فى عيش سعيد وسلم دائم ، اذا قيلت ، ظنوا أن المقصود غير ما قيل ، والتبس الحق بالباطل .

وأثر النفاق ، وان قل شأنه فى علاقة فرد بفرد ، يتضاعف أضعافا كثيرة الى أن يصير شرا مستظيرا اذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفر فى سياسة شعوبها ، أو فى علاقاتها بدول أخرى .

والسياسة التى تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرمها الشريعة المحمدية وتآبأها الأديان السماوية كلها ، لأنها تغذى الاضطراب العالمى وتعين على تقويض العمران .

(٥)

في البحث عن سند روحى للحضارة

الوصاية على الحضارة

للأقوى أم للأتقى؟

الشعلة المتقدة بين الأجناس - قصور « علم الإنسان »
- أدوار الحضارة ومن مثلوها - من « علم الإنسان »
- الفروق البنائية لتكيف الحضارة - الفنية ليست
اختصاصا لقوم وحدهم - هي أثر للحالات النفسية -
قانون قرآني - مساواة تامة بين الأرواح - وحدة
التكيف الديني ومغزاها - دعوى هي أصل الاستبداد
والتفاوت - ميراث النفس الطيبة

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدأين متعارضين : الأول سند الحضارة المادية ، والثاني سند الحضارة الإسلامية . ولعل في هذا البحث ما يكشف عن العوامل الخفية لسقوط الحضارة ، وما يفسر بعض أسباب الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن .

فما هو الحق ... هل هو للأقوى أم للأتقى ؟

الشعلة المتقدة
بين الأجناس

إذا استعرضنا تاريخ الأقوام منذ بضعة آلاف من السنين ، نجد أن الحضارة لم تثبت في مكان واحد ، ولا دامت لقوم وحدهم ، فهي كسلعة الذهب ، تمر بأيدي الناس جميعا ، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوف الكرة الأرضية .

فالمدينة متاع مشاع يكسبه من قدر على الاحتفاظ به عهدا ، ثم لا يطيق حمله فيتخلى عنه فيقع على كسف الأصلح لحمله ، حتى إذا خارت قواه تخلى الأصلح وهكذا . فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول ، ويأبى أن يشهد لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصالح الذاتي أو الاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثية وملازمة للعنصر .

قصور « علم
الإنسان »

وكذلك إذا استعرضنا (علم الإنسان) « أنثروبولوجي » ونظرنا في الأجناس البشرية نجد هذا العلم على حدائته وغموض بعض نواحيه ،

يرشدنا الى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم ، ولو أنه لا يساعدنا على ادراك الفروق الروحية والذهنية وقد نخرج من محيط العلم الصادق الى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعده على أساس الفروق النفسية والروحية بين قوم وقوم ، لنستخلص منها مؤهلات هذا العنصر دون ذاك لرسالة الحضارة والمدنية ..

نعم ان بعض الأبحاث « الأثروبولوجية » الحديثة قد تعين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر ، ولكنها لا تعين على تحديد الصفات المعنوية الكثيرة ، والفرائز المتعددة ، ومظاهر هذه الفرائز ، بذلك لا تهدي الا الى أقل العناصر النفسية شأنًا في تكييف قيمة عنصر وآخر لحمل رسالة الحضارة التي تتطلب مجموعة من المعاني والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة .

فاذا كان (علم الانسان) هياً لنا قدرا من العلم نعرف به صفات نرد بها الناس الى بعض أصولها القديمة ، فان هذا العلم لا يزال فيما عدا ذلك يتخبط بنا في المجاهيل . واذن فليس لدينا دليل علمي يجعل أحد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العمران والحضارة والعلم .

ولننظر أولا في الفروق العنصرية بين الأقوام التي قامت على أكتافها المدينيات المختلفة منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شاهدا على الشأو البعيد الذي بلغوه في المدنية وسبقوا به الناس كافة .

ادوار الحضارة
ومن مثلها

قامت مصر بالدور الأول ، بل الدور الأهم في تاريخ الحضارة البشرية ، فهي التي علمت الناس الزراعة والبناء والكتابة .

ثم جاء السوماريون والبابليون والفينيقيون والأشوريون والكلدان والفرس واليونان والقرطاجيون والصينيون والرومان والعرب ، ثم الأقوام الأوربية والأمريكية الحديثة ، يضيفون الى الحضارة ويجددون . فاذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا — اذ ليس عندنا دليل على البداية أو علم بالنهاية — وتجاوزنا مؤقتا عن نصيب الأقوام الصفراء وأثرها في حضارة هذا الشق من الكرة الأرضية ، أمكننا

حصر الحضارة التي تشير اليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال افريقية وفي أوروبا وأمريكا ، وقد اتفق علماء الأجناس (الأثروبولوجي) على أن هؤلاء البيض ثلاثة عناصر أصلية ، بينهم اختلاف بدني واضح من «علم الانسان» ومحدد ، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الغرب الى الشرق .

في الساحة الشمالية نجد الشماليين (النورديك) وجنوباً منهم (الألبين) وجنوباً من هؤلاء (المتوسطيين) ، أو قوم البحر الأبيض المتوسط ، وهم سكان ما حول هذه البحيرة .

فالشماليين الأجسام الطويلة ، والعيون الزرق ، والرءوس المستطيلة ، ولالألبين الرأس المستدير ، وللمتوسطين الرأس المستطيل ، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين ، وسواد العيون والشعر . ولا حاجة بنا للخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر ، واستدلوا على وجودها قديماً وأثرها حديثاً ، فانها لاتغنيا كثيراً في تكييف الحضارات القديمة ، اذ ليس بين أيدينا أدلة قاطعة على حقيقة الأقسام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب ، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلنا على ميزات بدنية بين العناصر الثلاثة التي يتكون منها الجنس الأبيض الكبير ، دلنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها في وطن معين خالص له ، ففي بريطانيا نفسها ، تلك الجزيرة الشمالية ، توجد العناصر الثلاثة ، وليست حتى بنسبة بعدها عن هذه الجزيرة ، بل ان (المتوسطيين) فيها أكثر نسبة من (الألبين) . وكل ما نستطيع تحقيقه علمياً هو أن ثبت رجحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر ، على صفاتها الأخرى .

وحتى ان استطعنا تقرير ذلك علمياً من الناحية الجسمانية كما قلت ، فاننا لا نزال بعيدين جداً من قياس العوامل والآثار النفسية في شعب من الشعوب ، وادراك هذه الآثار باعتبارها نتائج لتفاعل الدماء الموروثة من الأقسام المختلفة .

واذن يصح لنا أن نتساءل : لمن هذه الحضارات ؟ وهل يجوز نسبتها لجنس دون جنس ؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسها ، وأقدمها الفرعونية المصرية منذ آلاف السنين ، كما هي اليوم ، خليطا من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط ؟ وما هي البضعة آلاف من السنين التي تعرف شيئا قليلا عنها منسوبة الى عشرات الآلاف في التاريخ البشرى الذى لا نعرف شيئا عنه ؟ وسواء قامت بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا اليها والتي حددها علماء الأجناس فى الناحية الغربية من الأرض ، أم على أقوام متوالدة من اختلاطها ، فإن أمرا واحدا لا شك فيه ، هو أن المدنية ليست امتيازاً ولا اختصاصاً لعنصر منها ، ولا هى لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة ، فليست نتيجة للقوة الطبيعية الموروثة له ، وليس سندها هو حق الأقوى بحال من الأحوال .

المدنية ليست
اختصاصاً لقوم
وحدهم

والحضارة اذن بجميع نتائجها المادى والأدبى أثر لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم . ولو أننا ذهبنا بعيدا وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول ، وقلنا ان الصفات البدنية تشير الى خصائص نفسية لا تزال بعيدين عن علمها ، فإن ذلك لا يغير من الحق ، وهو أن العناصر التي نعرفها ، لم تخص على طول التاريخ البشرى بالعقل أو العلم أو الابتكار ، حتى تنسب شيئا من هذا الى صفتها العنصرية ، ومن الواضح أن النفس وحدها هى التى تضىء فتتبر ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة ، وتهيات لها بيئة روحية خاصة . فسند الحضارة هو الروح والخلق لا القوة المادية .

هى اثر الحالات
النفسية

وما أصدق القانون القرآنى فى هذا المعنى فى قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

قانون قرآنى

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تورث كما تورث الصفات البدنية فإنه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هى التى تكيف القوى الذهنية وأن العقيدة والآداب القوية هى المنشئ والحارس للمدنية .

اتنا نجهل كنه الروح وحقيقة النفس ، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومداهها وآثارها ومصادرها وعواقبها ، مما يمنع تقرير أصول علمية نميز بها بين صفات الأقوام النفسية كما نميز بين صفاتها البدنية .

وكل ما يمكن تقريره بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي يشير الى استعداد متشابه عند جميع الأقسام لتلقى العلم أو الأدب ، أو بعبارة أعم ، لتلقى الحضارة كيفما تلونت ومن أى جهة جاءت .

واذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تحدثها البيئة والمناخ في بعض الحالات ، فانا نستطيع أن نطمئن الى القول بالمساواة التامة بين الأرواح البشرية ، أو بعبارة أخرى ، اننا لا نعرف دليلا على عدم المساواة . وتداول العلم والابتكار ، بل وتداول الجهل والفساد ، دليل على استعداد مشترك ومتساو للخير والشر . واذا كان كل ذلك من آثار العيش تحت عوامل مختلفة فانه يشير الى وحدة الروح ، أو بعبارة أخرى ، وحدة القوى الذهنية ، أو تمام تشابهها .

وهذا يكفي لنفى امتياز بعض العناصر البشرية على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رجحانا دائما .

ويحق لنا أن نقول : انه ليس في الصفات البدنية ولا الصفات الروحية ما يدلنا على خلاف يجعل المدنية حكرا لطائفة من البشر ، أو يمنع من المساواة في التكاليف التي جاءت بها الشريعة المحمدية .

ومتى وضع ذلك انهارت الدعاوى العنصرية ، وانهار معها مبدأ القوة كسند للحضارة ، لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيأت قوما دون آخرين للعرفان والعمران ، لجاز أن يحمل هذا القوم غيره على احتذائه ، بل لكان في سيطرته وقهره غيره فائدة عامة .

وكما أن العلم لم يثبت لأحد رجحانا ، كذلك التجربة دلت على أن الأقسام انما تستخدم ما أوتيت ، من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارضة ، وقد بينا أن الغلب ليس ناشئا عن صفات أصيلة طبيعية في عنصر ما . وكذلك دل تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبها بل قد تندثر بسبب هذا الغلب .

فالقول بالحق للأقوى ، هو قول يرجح بعض الأقسام على بعض دون سبب طبيعي ، ويبيح الاستبداد للقادرين عليه ، ويمحو حق المستضعفين .

دعوى هي أصل
الاستبداد
والتفاوت

وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كل الإباء ، فهي التي جعلت الناس
سواسية ، وجعلت الحق للأتقى والأبر ، وقررت أن الناس أسرة واحدة ،
أكرمهم عند الله أتقاهم .

وهي التي يقول رسولها العربي الأمين « لا فضل لعربي على عجمي
الا بالتقوى والعافية » — أي حب الخير والسلام . فليس أكرم الناس
أقواهم بدنا وأضخمهم ميراثا ، ولا أكثرهم عرفانا ، بل أطيبهم نفسا ، لأن
النفس الطيبة هي التي تملكها التقوى فتمنعها من فعل الشر وتحضها على
فعل الخير .

ميراث النفس
الطيبة

قيام المدينة ودوامها

مداولة الأيام بين الناس - التفسير المادى للتاريخ -
التفسير العنصرى للتاريخ - مناقشة التفسيرين -
التفسير الروحى هو الصحيح - من القرآن - بارود
القذيفة - ساعة انفصل بين التقدم والتأخر - نظرة
تشاؤم الى الممنية الحاضرة - بين المنية والحق -
الانهيار الفجائى - عوامل هناء المنيات - الترف -
الضعف عن حمل أمانات الحضارة - هل جاء وعد الله ؟

بيننا أن سند الحضارة الاسلامية هو حق الأتقى والأبر ، وقلنا ان
الأرواح متساوية ، وان « علم الانسان » لا يزال قاصرا عن بيان حقيقة
القوى الذهنية وكيفية انفعالها بالمؤثرات ، وأثبتنا أن الفوارق العنصرية
الظاهرة فى أجسام البشر لم ترشد الى امتياز بينها فى خلق الحضارة ، وهى
قطعا لاتجعل لقوم امتيازا على قوم فى الاختصاص بها .

مداولة الأيام
بين الناس

والتاريخ البشرى يشير الى الحضارة كأنها شعلة متقلبة ، ويدل على
أن الأقوام التى أخرجت أعظم المدينيات ، ما لبثت أن هوت من شأهق
مجدها الى الحضيض .

فاذا تعقبنا الأمم أمة أمة فى مدى خمسة آلاف سنة نجد أن هناك
قاعدة لا تتخلف ، وهى أن الأمة ترتفع ثم تهوى كما تقذف بالحجر الى
أعلى فيصل الى مداه ثم يقف ثم يهبط عموديا الى الأرض ، وكأن الأمة
التي ارتفعت شئ آخر غير التى هوت وتحطمت . بل ان بعض الأمم التى
لا يزال أثرها يدوى قد بقيت سلالتها ذاهلة عن عزتها ، كأنه ليس بينها
وبين آبائها صلة ! فما الذى رفعها وما الذى خسفها ؟

التفسير المادى
للتاريخ

لقد تعددت الملل ، فالذين يفسرون التاريخ تفسيراً اقتصادياً يعللون
هذا التداول الذى عبر عنه القرآن أوجز تعبير فى قوله تعالى « وتلك
الأيام نداولها بين الناس » بعلل مادية ، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب
تنحصر فى المسادة ، فاخصاب الأرض لسبب طبيعى ، أو تحول المطر أو
زيادته أو تغير الجو ، أو اكتشاف طرق جديدة يتبعها تغير سبل النقل

للتجارة ، أو اكتشاف أرض جديدة ، أو ابتكار آلة ، أو استخراج معدن ،
أو استخدام وسيلة ما ، أو غير ذلك مما يغنى ويزيد في القوى المادية ، هو
العنصر الذى يدفع الى التحضر وحياة العمران ، كما أن فقدان الرجحان
الاقتصادى يتبعه التدهور والانحطاط .

التفسير العنصرى
للتاريخ

ويرى آخرون أنه سبب ظهور أمة ما ، هو في ذات جنسها وما يحصل
من تزايد القوى الكمية في ميراثها العنصرى ، وذلك بأن تمتزج مع قوم
آخرين قريبين منها فيخرج من التوالد عنصر أقوى يندفع الى أعلى بما
هو كمين فيه من القوى الموروثة ، فيسمو ويضيف للتراث البشرى علما
ومدنية .

مناقشة للتفسيرين

وهى أقوال لا تكفى لتفسير الواقع ولا تحل اللغز ، فكثيرا ما قام
بالحضارة قوم ، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكون العوامل الاقتصادية
سببا في الظهور والاختفاء . بل ان قدماء المصريين وهم رأس الحضارة
البشرية ، وقدماء البابليين ، هم الذين زرعوا الصحراء ولم تكن الصحراء
هى التى زرعتهم .

وخروج العرب من شبه الجزيرة وانتشارهم ، ووصلهم بين حضارات
الأقدمين والحضارة الحديثة ، وابتكارهم وافتنانهم في العلوم والصنائع ،
لم يكن لأسباب اقتصادية محلية ، كما أن سقوط العرب والرومان والمصريين
والبابليين لم يكن لأن أرضهم أجذبت ، ولا لأن جوهم تغير ، ولا لأن طرقا
جديدة أو أوطانا جديدة قد اكتشفت .

وكثيرا ما كان الحرمان المادى سببا لظهور أقوام وتغلبهم على المادة
وحصولهم على ما يريدون بكفاحهم ليخرجوا للعالم حضارات ضخمة .
ومثل اليونان والعرب والفينيقيين واضح ، وخيرات أمريكا وأفريقية
الوسطى لم تبعث قوما جددا في آلاف السنين ، وانما بعث أمريكا المغامرون
المحسرومون .

كذلك لم يقم دليل علمى على أن توالد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم ،
سبب في انحطاط هؤلاء القوم ، بل بالعكس .

نعم لقد قيل ان ظهور الحضارة المصرية القديمة كان عقب ورود قوم من أسلاف العرب امتزجوا مع أهل الوادى وصاروا قدماء المصريين الذين بنوا الأهرام ، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاش قوم من الأقوام كان لازما لمثل هذا الحادث .

فلا النظرية الاقتصادية ، ولا النظرية الأثرولوجية « نظرية علم الانسان » كافية لأسباب ظهور المدنية أو سقوطها ، لأن كلا من النظريتين قد يفسر حالة ، ولكنه لا يترد مع الحالات الأخرى .

وإذا دققنا النظر نجد أن الأسباب الروحية والمعنوية هى التى ساعدت دائما على الظهور أو الاختفاء ، ونجد العلل الأدبية ملازمة لجميع الحالات فى كل الأقوام . والقرآن كما أشرنا فى الفصل السابق يؤكد هذا المعنى فى كثير من آياته فيقول « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم . ان الله قوى شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا يا ويلنا ان كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعمران الا كانوا مهئين لهذا بايمان قوى وأدب قوى ودعوة قوية ، وما من أمة تضاءلت

عقائدها وانحط أدبها وتذبذبت الا أصابها ما أصاب من قبلها فهوت كأن لم تكن شيئا مذكورا .

فالعقيدة الصالحة والأدب القوى والعرف الصالح كقوة البارود في دفع القذيفة ، تدفع الأمم بقدر ما فيها من قوة واستقامة .

وإذا أسمينا العقائد والآداب والعرف بالقوة المعنوية ، فإن هذه القوة الدافعة تسوق الأمم الى الأمام ، حتى اذا ما تبددت بقيت الأمم حيث أوصلتها الدفعة الأولى ، ثم هوت الى الأرض كتلة لا تعي ، وكأنما سلبت حياتها . والتاريخ يشهد على أن انحطاط كل قوم من الأقسام يتبدىء حيث تبلغ السيطرة الروحية والمعنوية . أو بعبارة أخرى حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح . تلك هي ساعة الفصل بين التقدم والتأخر .

ساعة الفصل بين
التقدم والتأخر

وأكثر المتشائمين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من الغربيين قد بلغوا هذا الدور ، ولا يغترون بمظاهر القوى المادية ، فلا الثروة ولا العلم ولا ما ينتجون من طيارات ودبابات ومدافع ووسائل سيطرة على الحياة المادية بمانة من هزيمة المدنية واندثار الأقسام التي تذبذبت عقائدها وضل أدبها واقلب عرفها .

نظرة تشاؤم الى
المدنية الحاضرة

ويرى بعض العلماء أن سلامة العقل البشرى ليست لازمة للرقى المادى ، فقد يسير هذا الرقى عهدا ما ، وقد سلب الناس العقل الراجح والميزان الصحيح ، ويكون سيرهم واندفاعهم مما يقرب قضاء الله فيهم وسنته فيمن خلا قبلهم من المترفين ، ومحققا لقوله تعالى « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » .

بين المدنية والحق

واتيان أمرها ليلا أو نهارا هو الإشارة الى معنى المفاجأة ، فإن انهيار المدنية وسقوط القائمين عليها لا يكون عليه دليل ظاهر من الأحوال المادية ، ولكنه خفى خفاء القوى الذهنية والعوامل النفسية التي لها الأثر الأول في قيام الحضارة وسقوطها .

الانهيار الفجائى

ومن العسير جدا في مثل هذه العجالة أن نخوض في تفصيل عوامل فناء المدنية ونستقصى أسبابها وأثرها وسرعتها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن نشير الى سببين قد يكون مجعما عليهما .

الأول : الترف ، فان الأمم متى تهيأت لها بيئة روحية صالحة سبت واندفعت الى العمران والعلم فأتتجت واستقامت لها الأمور بما يسكها من ايمان وأدب يوحد بينها ، ويحدد مسلكها ، ويقوم معوجها ، ويحفظها من التردد والقنوط ، فتجد نفسها بعد حين قد نعمت بالحياة ودانت لها طيبات الرزق ، فتلهاوا بهذه الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتنساق في شهواتها وتثقل رسالة الحق عليها ، بما تفقد من الصبر وما تجد من لذات عاجلة ، فيداخلها الشك في دعوة منشىء حضاراتها ، وترتاب في كل تراثها الأدبي ، وتجد غضاضة في التقيد ، فيضيع العرف الذي يسكها ، وتتداعى القوى الرابطة لكيانها ، فتفكك العرى وتحل الفوضى ، ويستخلف الله للمدنية قوما آخرين خماص البطون ، يحبون الحق كما يحب المترفون كأسهم وغوانهم .

وهذا الترف يتولد منه السبب الثانى للانحطاط فان رسالة القوم الأولين تكون بسيطة وهم قادرون عليها بتفرغهم لها . أما أعقابهم فان أعباء رسالتهم تتزايد بطبيعة نمو الحضارة نفسها ، وبطلبها مجهودا أشق ونظرا أدق وعناية لا تنقطع . فقائد الكتيبة في جيش الفاتحين الأولين يحل محله بعد جيل قائد الجيش في دولة الحضارة الإمبراطورية ، ومدير المصنع بعشرات الألوف من العمال ، ومدير المصرف بآلاف الملايين من الدراهم .

وتستلزم المدنية عندئذ من أربابها قلوبا متفرغة وعقولا صافية وأبدانا رياضية ويثقل حملها ، بينما يكون النعيم قد سلب الناس العقل اللذة قد قضيت على الفراغ « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » فيضعف ايمانه بنفسه ويهوى الى الأرض مسلوب الروح ضحية الهوى والضلال ، وكان آباءؤه في نهضتهم شهداء الحق والمروءة والعزة يحبون الموت كما

أحب أخلافهم الحياة ، فعاش الأولون مشكورين وماتوا مذكورين .
أما هؤلاء فماتوا مدحورين وعاشوا مغمورين منسين .

فلا شك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتحدها التقوى هي
القوة الأولى لبناء المدنية ، وضياعها نذير بدمار المدنية .

ثم لا شك أن الايمان القائم على صورة من العقائد الصالحة لل عمران
يسير في ركابه عرف صالح وأدب صالح يستمد سطوته من العقيدة
والايمان . فهو القوة المنظمة والمخرجة للدور الحاسم في الحضارة . وقد
جرت سنة الله على أن النفوس البشرية يستهوئها المتاع والنجاح بما يهيء
لها من خيرات الأرض وطيباتها ، فاذا تهأت استغنى الانسان عن الكد
وطغى وصار الى عاقبة الأمم الأولى .

وانه ليحزننا أن يكون ما نرى في الدنيا نذيرا بأمر الله ! فلا الأمم
المتأخرة من المسلمين ، ولا المتقدمة من المسيحيين واليهود ، على شيء
من التقوى . تذبذبت العقائد ، وذهب العرف وساد حب الدنيا ، وعم
الترف ، فهل جاء وعد الله ؟ انا لندرجو أن يتدارك الله هذا العمران بقوم
خماص البطون يحبون الحق كما يحب المتحضرون المال والمتاع ، ويرثون
هذه الحضارة فيضيفون للعلم والعمران ، ويردون الى الدنيا ذلك العقل
الضائع والايمان القوى .

وسيجد هؤلاء في الدعوة المحمدية كما وجد الأولون الروح والعقل
والتقوى والهدى . نعم سيجدون الهدى ذلك الذي هزئت به قریش
وقالت « ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » ولما اتبعوه خطفوا
من أرضهم لا للهوان ، ولكن لسيادة الدنيا !

نظام جديد للعالم

صوت مع أصوات الدعاة - فلنتحرر من النظريات
القديمة - المدنية في رأى (كبلنج) - وطاة العيش في
عصور الانتقال - هل نستطيع وضع نظام المستقبل ؟ -
ماذا بين اب جاهل وابن عالم ؟ - بين جاهل معاصر
وجده الفرعوني - لنحتر عقوبة الفرور - الى نظام
سلبى مؤقت - لا أمل في شيوخ الساسة وفي العامة -
الامل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الانسانية -
فلنؤجل النظم المثالية المجردة - من تاريخ الاصطدام
بين المثل العليا والواقع السيء

صوت مع
أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التى نظنها صالحة لنظام جديد
يرضاه الأفراد والطبقات والأمم غير مقيدين فى رأينا بما يقوله الدعاة فى
جوانب العالم ، وعاملين جهد الطاقة على التحرر فيما نبدى من رأى من
العصية لعنصر أو مذهب من مذاهب الاجتماع . فاذا وفقنا ففى هذا
كل الخير ، واذا أخفقنا فانا نرجو أن يكون هذا الجهد ضمن الجهود المماثلة
التي يستعان بها على الوصول الى الحقيقة والهدى .

فلنتحرر من
النظريات القديمة

ولا بد لنا من أن نروض تفكيرنا على التخلص من النظريات القديمة
التي كانت فى عهدها حقائق صحيحة ، والتي جعلها تطور الحياة
الاجتماعية ، وتقارب الأوطان بتزايد سرعة النقل ضارة بسير المدنية .
ولا شك أن العالم يمر فى محنة غير مسبوقة النظير ، فاننا لا نعلم فيما بين
أيدينا من تاريخ البشر مثل الذى دهمى العالم هذا الجيل . فليست غارات
(التتر) التي لا يزال الناس يدركونها قرينة للويل ، شيئا مذكورا بالنسبة
الى الدمار والقتل العام التي استطاعته الأسلحة الجوية ، والفناء الذى
يستطيعه تسخير العلم الحديث ، فلا بد اذن من نظام جديد لهذا العالم
يتداركه من سقطته ودماره .

فما هو النظام ؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه فى كل مكان . ولعلنا
إذا ابتدأنا بحثنا كما يتبدىء الطبيب بالفحص عن أسباب العلة سلطنا
الطريق المستقيم الى تكييفها ثم الى علاجها .

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل : ما الذى جعل مدنيتنا الحديثة مع ما وصل الناس اليه من علم ومعرفة مصحوبة بهذا الشر المستطير ؟ !

يقول كبلنج « ان المدنية هي النقل » وهو قول يستحق التفكير ، فلننظر اليه من هذه الناحية . فكم من القرون قضى الانسان ليتعلم تسخير الحيوان في النقل ؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العجلة ويربط بينها وبين الحيوان ، وليشرع للسفينة شراعا ويستخدم الريح ؟ وفي كل هذه القرون كم زادت سرعة حركته ؟ فاذا قسنا ذلك بتسخير البخار في القطار والسفينة أدركنا المفاجأة التى فوجئ بها العالم حين ظهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن . فاذا أضفنا الى ذلك استخدام الكهرباء واكتشاف اللاسلكى والسيطرة على الجو بالطائرات ، ونظرنا الى تطور سرعة النقل فى السنوات العشرين الأخيرة ، أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتى .

المدنية فى رأى
كبلنج

ان متوسط السرعة قبل مائة سنة لحركة الانسان فى الانتقال من مكان الى مكان لم تزد على ثلاثين ميلا فى اليوم ، ومتوسطها الآن قد وصل الى أكثر من مائتى ميل فى الساعة (١) ، ولا يزال يزداد باطراد .

فاذا كانت المدنية هي النقل كما يقول (كبلنج) ، واذا كانت السرعة هي القياس لما بينها من فروق ، فان ما بين مدنيتنا ومدنية أبنائنا سيكون على هذه النسبة .

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالى فسيفصل اللاسلكى ، وكذلك هذه السرعة المتزايدة فى الجو عالمنا من العالم المقبل .

ومن سوء حظ هذا الجيل أن يكون صلة بين عالمين ، وأن يذهب ضحية الانتقال العنيف . وعلى ذلك هل نحن ، أهل هذا الجيل ، حقيقة جديرون أن نضع نظاما عالميا لمن بعدنا ؟ قد يكون النظام الذى يرتضونه بعيدا عن تصورنا بعد نظامنا عما قبل استخدام البخار .

وطأة العيش فى
مصور الانتقال

(١) زاد فيما بين هذه الطبعة لهذا الكتاب والتي سبقتها مائتى ميل أخرى وذلك فى

بضع سنين

هل نستطيع
نحن وضع نظام
للمستقبل ؟

ومن ناحية أخرى فانا نحن الذين لا نزال نجهل تفوسنا فلا نصرفها
ولا نملكها ، ولا نحيط الا بقليل مما أودع فيها من القوى الذهنية والقوى
الروحية ، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا ؛ فالانسان
فيه حيوان أوتى من القدرة ما يسمح له بالتصرف في نطاق محدود .

لقد سار العالم آلاف السنين على وتيرة واحدة . كانت الحضارة
تتقدم ببطء وتنتقل من وطن الى وطن ، وفي كل نقلة تنطوي مئات السنين
قبل أن تدبل ، وتنقضي مئات أخرى قبل أن تزدهر في قوم جدد ، فكان
العقل البشرى مستطيعا في نطاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر الى حد
كبير على مقدرات مدنيته فلما تفجرت فجأة ينابيع العلم الحديث :
زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها فبهت الانسان وقال مالها ؟!
ففى جيل واحد انقلب وجهها ، وتناكر القديم والحديث .

ماذا بين اب
جاهل وابن عالم ؟

ولنضرب لذلك مثلا : شيخ في قرية بجوار (طيبة) في صعيد مصر
يعيش كما عاش آباؤه في مصر القديمة ، بعث في أوائل هذا القرن بابنه الى
أمريكا فنشأ هناك وتزوج ورجع بأسرته الى قريته ، فوجد أباه حيا يفلح
أرضه بمحراثه الفرعونى ، ويأوى الى بيت لا يزال على طراز العهد
الهكسوسى ، ويفكر كما كانوا يفكرون أيام خوفو ؛ لا شك أن الابن
وأباه حين التقيا تناكرا ؛ فكأنما هبط الابن من كوكب آخر ، فلن يستطيعا
أن يتعاشرا ولا أن يتعاونوا على شيء ...

بين جاهل
معاصر وجد
الفرمونى

ولنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان (طيبة) من قبره .
بعث شيخ بلد من عهد (رمسيس) من أجدادهما ، ليشهد الحفل العائلى
للابن العائد من أمريكا ؛ فهل يجد الناس أن شيخ البلد الذى بعثه الله من
قبره بعد غياب ثلاثة آلاف سنة ، أقرب الى شيخ القرية ، أم الى ذلك الابن
الذى ولد في القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط ؟

سيجد شهود الحفل أن الجد الفرعونى أقرب الى قلب الأب وعقله
وطراز حياته ، من ذلك المولود فيهم ، القادم عليهم من العالم الجديد .
ثلاثون سنة فعلت بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرنا ! وهى لم
تفعل ذلك في مصر وحدها بل في العالم كله . قرن واحد بدل وجه الأرض
كما يبدله الزلزال وفصلنا عن ماضيها بعنف ، وكأننا نقلنا الى كوكب آخر .

واذن : فهل حقيقة نستطيع ، نحن ضحايا هذا الانتقال ، نحن الذين ملكنا الآلة وملكنا ، وأصبحنا نسيرها الى مجهول وتطوينا في ثناياها الى مجهول أعظم ، هل نحن حقيقة جديرون بوضع نظام لعالم المستقبل ؟

اذا ظننا ذلك فاني أخشى عقوبة الغرور . وقد يكون من الخير والصواب أن نكتفى فيما نسميه « النظام الجديد » بعمل سلبي ، هو نظام نمتنع فيه بتاتا عن تسليط ما بأيدينا من قوى للتدمير والتخريب ، وعن مضاعفة العوامل التي اضطرب لها وجودنا كله .

لنحذر عقوبة
الغرور

الى نظام سلبي
مؤقت

يجب أن يكون هدفنا فيما نسميه « النظام الجديد » تخفيف ويلات عهد الانتقال .

لقد شاهدنا الحرب العامة الماضية ، وسمعنا وتحمسنا لأحاديت عن نظم جديدة لعالم جديد . ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حربا أعظم وحديثا أشهى ولكن هل بين العقل الذي سيطر على أداة الدمار الماضية أربع سنين ، من ١٩١٤ — ١٩١٨ والعقل الذي سيطر عليها ، أكثر من أربع سنين من ١٩٣٩ — ١٩٤٥ فرق ؟ هو هو العقل العاجز أسير الماضي والحاضر ، غلبته الآلة والمادة ومدنية النقل المتزايدة السرعة ، فحار فيها وناء بحملها .

أقبلنا شبانا على أقوال عن عالم جديد فتحمسنا لها ، فاذا سمعناها اليوم بعد تجربة ، ملأنا خوفا وتشاؤما ، لما ظهر لنا من الكذب والعجز . مشيت الحضارة البشرية القديمة في تطور بطيء مئات القرون فهضمتها العقل البشرى ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج الى وقت طويل ليهضمها العقل البشرى .

اننى قليل الرجاء في شيوخ الساسة وفي نضوج العامة لتحمل المسئوليات الجسام المتجددة ، ولكننى عظيم الايمان بالقدرة العليا التي تدير هذا العالم ! ففى الطبيعة نفسها كل الرجاء ، فقد خلق الانسان وفيه من القدرة على الافاقة من الصدمة ، وله من المصانة والمحاكاة والتطور ما يضمن بقاء النوع واستمرار رقيه ، وسيكتشف الانسان بغيره حب

لا أمل في شيوخ
الساسة والعامة
الامل في القدرة
العليا وفي مرونة
الطبيعة الانسانية

البقاء بعد تجارب مروعة قاسية نظاما عالميا مناسباً متجددا يساير العصر الآلى ، عصر السرعة المتزايدة ، أقول نظاما مناسباً متجددا ؛ اذ ليس من الصواب فى شىء أن نحاول املاء نظام كامل ثابت لا يتغير ، فالأشكال والأوضاع والمستحدثات كلها تحمل فى طبيعتها التغير بل الزوال والفناء . وأكثر ما يقع فيه الانسان من كوارث هو عقوبة الغرور والجهل ، وأكثر ما يصيبه من شر هو رد الفعل لاقترائه وادعائه .

فلنؤجل النظم
المثالية المجردة

فاذا حاولنا أن نعطى الناس نظاما عالميا مثاليا ، وتجاهلنا غرائز حب الظهور والسيطرة والتعالى ، مما هو كامن فى صميم النفس الانسانية ، فاننا نحاول اقامة هذا النظام على بركان من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة . واذا فكل نظام عالمى لا يرضى الغرائز البشرية ، ولا يعين على توجيه الدوافع الانسانية ، هو نظام تقضى عليه الغرائز نفسها ، أو تتخذه وسيلة لاشباع شهواتها ؛ فمن شأن الطبيعة الانسانية أن تقلب كل نظام مثالى وأن تكيفه ، والا أصبح بالنسبة لها نظاما لا تطيقه .

من تاريخ
الاصطدام بين
المثل العليا
والواقع السيئ

وليس أدل على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية الى فلسفة سامية . خذ مثلا دعوتين بينهما ألفا سنة : المسيحية والشيوعية ، فماذا صنعت بهما غرائز الانسان الفطرية الحيوانية ؟ ألم ترد كل دعوة منها أن ترسم نظاما مثاليا ساميا ؟ فماذا بقى من المثل الأعلى فيها ؟ بقيت تلك المأساة التاريخية الطويلة ! فقد سفكت باسم المسيحية وفى سبيل المسيحية التى تحرم الحرب دماء أغزر مما سفك فى سبيل أية دعوة هى وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين .

ماذا بقى من وصايا المسيح الجميلة الرحيمة المتواضعة ؟ ألم تصنعها غرائز الغلب والقهر والزهو والاستعلاء صنعها ، وتستخدمها فى اشباع النوازع البشرية ؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة ، فهى أخت (المزدكية) الفارسية ونسخة منها ، دمرت المزدكية فارس فيما مضى ، وسفك فى سبيل الشيوعية الحديثة من الدماء ما لم يسفك من قبل فى سبيل النهب والسلب فى قوم من الأقوام ، ومع ذلك فماذا يبقى من الشيوعية المثالية ؟

الظاهر أن النظام المثالي الكامل خيال في هذه الدنيا ؛ فان الطبيعة البشرية تأباه . فهل يحسن بنا أن نجرى وراءه أو نلج في طلبه ؟ أم الأولى بنا أن نقنع بنظام دنيوى يؤدى بين الطوائف والشعوب وظيفة أشبه بوظيفة القانون العادى بين الأفراد ، فيقتص من أطراف الشر ، ويديم السلم ، ويحصر أذى الحرب ، ويوجه الغرائز وجهة ترضاهها ، فتشبع شهواتها من غير طريق العدوان ؟ نظام ييسر للجميع العيش ، وتسنده المصلحة المشتركة للفرد والجماعة والشعوب فى عالم جعل منه النقل السريع وطنا واحدا .

وبعبارة أخرى : نظام هو مجموعة قواعد عامة تصبح عرفا عامة يرضاه الناس ولا يعصونه .

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين في العالم - جمعية انجليزية تضع دستورا
لحقوق الانسان - استفتاء عظيمين من مفكرى الشرق -
راى غاندى - غضب ويلز على غاندى - راى نهرو -
مع راى غاندى - - فلنجرب طريقة غاندى - طريقة
مجربة في الاصلاح - تحويل التصور البشرى - اعلاء
الغرائز وتحويلها - تربية يطرد بها روح الاديان

شغل المفكرين
في العالم

قبل انتهاء الحرب الأخيرة وبعدها ، بل وقبل نشوبها ، أقبل كثيرون من المفكرين المخلصين في العالم ، فرادى وجماعات ، على التفكير في نظام يرضاه الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم التي أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمى التي استعرضناها في الباب السابق .

جمعية انجليزية
تضع دستورا
لحقوق الانسان

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل الفضل في (لندرة) يرأسها المحامى الشهير (اللورد سنكى) ويقوم بدعوتها الكاتب المعروف (ه . ج . ويلز) .

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعا أعلنت فيه حقوق الانسان ، واقترحت أن يكون دستور العالم بعد الحرب الأخيرة .

وقد تضمن هذا الدستور احدى عشرة مادة ، وهى في نظر الجماعة حقوق الانسان التي يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عرف ولا أى نظام محلى لقبيلة من القبائل أو شعب من الشعوب ، فهى القانون الأساسى الذى يجب كل تشريع مخالف له .

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة الملك ، وحق التعلم ، وحرية العقيدة ، والحرية الشخصية ، وحق العمل ، وحق القاصر في حماية الجماعة ، الخ ..

استفتاء عظيمين
من مفكرى
الشرق

وقد بعثت هذه الجماعة بمشروعها لرجلين عظيمين من مفكرى الشرق : هما المهاتما (غاندى) والزعيم الهندى (جواهر لال نهرو) تسأل رأيهما ، فأجاب غاندى بما يأتى ، قال :

رأى غاندى

« ما هى النتيجة العملية لاعلان هذه الحقوق ؟ ومن ذا الذى يرها ويحرسها ؟ وسواء أكنتم تقصدون الى الدعاية وحدها أم الى تنوير رأى العام العالمى فقد ابتدأتم من الطرف المخطئ ، وانى أقترح عليكم وأرى أن الصواب هو فى أن تبتدئوا باعلان « واجبات الانسان » . ولا شك عندئذ أن الحقوق ستتبع كما يتبع الربيع الشتاء .

انى أكتب اليكم عن تجربة وخبرة ، فقد بدأت حياتى مهتما بحقوقى وكان جهدى منصرفا لتقريرها والحصول عليها ، وسرعان ما أدركت أن لا حق لى حتى قبل زوجتى . فأخذت أنظر فى واجباتى وما على قبل زوجتى وولدى واخوانى والمجتمع فأديتها ، وأنا اليوم أجد نفسى ولى من الحقوق ما ليس لرجل آخر أعرفه فى هذا العالم » .

وقد أثار جواب غاندى غضب (ويلز) فحمل عليه حملة منكرة ، وعده ابناء منه للتعاون ، وتمشيا مع مذهبه السلبي ، واتهم غاندى بالتأخر وبعدم ادراك ضرورة العصر .

ولكن هل أنصف ويلز غاندى ؟ ثم أليس فى كلام غاندى ما يستحق النظر والتفكير ؟ ذلك ما سنبحثه .

رأى نهرو

أما (جواهر لال نهرو) فقد أرى جوابه ويلز ، فقال عنه : انه عملى وانه يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه فى أمور غير جوهرية .

يقول نهرو : « سمع الناس كثيرا مع الاعجاب موثيق وبيانات أعلنت حقوق الانسان واتتهت الى لا شيء ، وأحقها بالذكر ميشاق (بريان — كيلوج) الذى حرم الحرب » .

ولقد نظرنا فى بيانكم عن حقوق الانسان فأزعجنى أن لا أجد فيه ما يهدى الى كيفية تحقيقه .

أنا لا أقصد التفاصيل ، بل أقصد الأصول التى يقام على قواعدها العالم اجتماعيا واقتصاديا واذا كان من الحق ، وهو عندى الحق ، أن مآسى العالم الحالية ترجع قبل كل شيء الى فساد نظامه السياسى .

والاقتصادى ، فلا بد من تغيير هذا النظام كى يستطيع تطبيق ما تريدونه من الحقوق التى أعلنتموها .

ان بيانكم ، يا مستر ويلز ، ليس قابلا للتحقيق بحال من الأحوال ما دام النظام الاستعمارى والرأسمالى يسودان العالم . تقولون ان لكل انسان كذا وكذا من الحقوق ، وهو كذلك ، ولكن أنى لهذا الانسان أن يصل الى حقوقه تحت النظام الرأسمالى ؟ ثم أنى له أن يتمتع بشيء منها ما دامت أمة أو طبقة تسيطر على أخرى وتسخرها ؟ ان الطريق الى الخلاص هو الاشتراكية ، وأن يقوم النظام العالمى الجديد على أصولها ذلك هو جواب (جواهر لال نهرو) وهو من الشخصيات العالمية المحترمة وسنعود الى ما يشكو منه فى الفصل المقبل . أما جواب غاندى فانه كما قلت ، رغم اعتراضات ويلز ، يستحق النظر والتفكير .

فحقوق الانسان كثيرا ما أعلنت ، وكثيرا ما انتهكت وما دام الأقوياء مع راي غاندى لا يرتدعون بداع من التربية والعرف والوجدان ، فانها تبقى حيث هى غير قابلة للتحقيق .

فلنجرب طريقة
غاندى

ويصح لنا أن نجرب تربية جديدة وطريقة جديدة ، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد ، فبدل أن نحاول المساواة بين الناس فى الحقوق ، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب ، فربما كان ذلك أفعل فى رد العدوان وفى احترام حق الغير .

فلو أنا عودنا الناس بالتربية اكرام القسائم على واجبه أكثر من المطالب بحقه لجعلنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية وأنشأنا نظاما جديدا لعالم أحسن من عالمنا الحالى ، لأن التربية التى تجعل القيام على الواجب غاية الانسان الراقى ، تنتهى باحترام حق الغير احتراماً أحفظ وأنفع للحقوق من كل قوة تستخدم لكسبها أو المحافظة عليها ولعل هذه الطريقة فى التربية هى التى تتناسب مع تاريخ الاصلاح البشرى ، ففى طريقة الأنبياء والمصلحين الذين وجهوا همهم الى تعريف

طريقة مجربة فى
الاصلاح

الناس بواجباتهم فليس من المتعسر الرجوع اليها ولا خلق ذهنية جديدة أساسها فضل من يؤدون واجبهم على سائر الناس .

حرم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب ، فشرعوا بذلك واجبات أساسها النهي . فاذا أخذنا في التعرف الى ما نحرمة على أنفسنا ، وجعلنا هذه الحرمة عامة ودولية ، كان ذلك عملا ايجابيا حاسما في سبيل اقامة نظام جديد ، ولو كان ظاهره دعوة سلبية أساسها النهي والتزام الواجب .

فمثلا لو أن الناس أدبوا وعلموا أن لا يفرقوا بين القتل والقتال ، لأن الواجب يحتم على الانسان المذهب المحترم أن يمتنع من ازهاق أرواح الناس لغير جريمة ارتكبوها ، وبغير قانون وقاض يقضى فيها ، ولو صار الامتناع عن القتل في الحرب كالامتناع عن القتل في غير الحرب واجبا ، من يتعداه يعتبر مجرما ، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعال في منع الحروب من كل الموائيق والنظم .

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة الجلاد في نظر العامة سواء بسواء .

نعم ان تحويل التصور البشرى للأمور عمل شاق ، ولكن ألم يتبدل في جيل أو جيلين تصور الناس لأمر كثيرة تبدا تاما ؟ فلم لا يستطاع بالتربية والتدريب خلق عرف عام عالمي أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف ؟ ..

تحويل التصور
البشرى

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التي نشكو منها في افساد النظم المثالية وجهة الفخر بأداء الواجب .

فالانسان يزهو بانقاذ غريق أو التعرض للخطر في اطفاء حريق فاذا صار العرف أن هذا العمل هو الذى تستحق عليه أعظم ألقاب الشرف ، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة ، لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور في الخير العام .

ولم لا يخلد ذكر الذين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بدل الذين ظهرت قدرتهم على الافتراس والفتك بالغير ؟ فقد نصل عن طريق

تعليم الواجب وتقديسه الى اقامة صرح الحق وتخليده ، ونكون قد اصطلحنا مع الغرائز الفطرية ، فنعدل عن كتبها واستفزازها الى توجيهها واستخدامها في تدعيم النظام الجديد .

ولا أظن أحدا من جيلنا الذين شهدوا هذه الحرب والتي قبلها يمكنه أن يتصور نظاما جديدا يستحق البقاء لا يحرم الحرب تحريما باتا .. فهل لذلك من سبيل أصح من سبيل الأنبياء : سبيل التحريم عن طريق تعليم الواجب ؟

فاذا لم نعلم الناس وتربهم على احتقار القتال احتقارهم القتل ، فأنى لنا أن نكفل السلم بتجريد أمم من السلاح أو وضع أمم مسلحة حراسا عليه اذا لم تكفل ذلك التربية التي أساسها تقديس الواجب ..

اعلاء الغرائز
وتحويلها

ليست هذه التربية مستحيلة ولا هي خيالا ؛ فان في حياتنا الأولية كثيرا من الفخر بضبط النفس والحرمان ، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلازم الناس في كل جيل ، وهذه المروءة بما تنطوي عليه من نكران الذات تعلمها الناس بالاجتماع وبالدين ، فصارت فطرية لأن الغرائز التي ترضيها المروءة هي ذات الغرائز التي يرضيها العدوان ..

فحين كان فخر الناس بالكرم ، كان اشباع غريزة حب الظهور في الذل والعطاء ، ولما صار فخرهم بالأثاث والسيارات والمقتنيات ، صار على السلم ؟ ومن ذا الذي يضمن أن لا يقتل الحراس طمعا فيما ائتمنوا اشباع هذه الشهوة بالأثرة والأنانية ..

ولو علمنا أولادنا أن زهوهم واعجابهم ليس في أن يلبسوا ثوبا جديدا في العيد ، حين لا يجد أولاد عموماتهم أو جيرانهم ثوبا مثله ، وعودناهم أن زهوهم وظهورهم في أن يمتنعوا مختارين عن لبسه تأسيا بأهلهم ، فان غريزة حب الظهور تتدرب على اشباع غرضها بالامتناع وتجد حظها في أداء الواجب .

ولن يكون هذا جديدا في حياة الانسان ، لأنه يتناسب مع روح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل .

ان فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة ، فالنفس البشرية تتكيف حسب مقتضيات التربية والعرف العام لترضى الكمين من الغرائز فيها . ولا سبيل لانكار الغرائز الفطرية لمن يفكرون فى تنظيم العالم . ونهج الأنبياء الذين وجهوا الغرائز وجهة ترضى المروءة والمصلحة العامة ، النهج المستقيم فاذا نحن اليوم بدل أن نعلن حقوق الانسان ، أعلننا واجباته ، الى نظام صالح جديد . وليكن القانون الأساسى لهذا النظام متضمنا واجبات الانسان نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجنسه والمخلوقات الأخرى وقد يكون ذلك أبقى للعرف العام ، وأثبت على مر الأيام .

علل النظام الحالي

اجتماع على فساد الرأسمالية الحالية - خطر رأسمالية
الآلات بركات كثيرة اللعنات - مادية لا سند لها من
الروح - مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية - رجال
الكنيسة الانجيلية يتحولون الى اليسار - الى التوازن
الاسلامي - الاستعمار الحديث - ويلات عالية - شاهد
منهم - شاهد من العالم الجديد

يقول (نهرو) : ان سبب فساد العالم يرجع في معظمه الى فساد
نظامه الاقتصادي والسياسي الحالي ، وانه لا سبيل الى الاصلاح ما دامت
الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة ، والاستعمار يسخر أمة لأمة .

وقد وافقه (ويلز) ، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا الرأي .
فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابتذلت ، لا تزال تعبر عن نظام
يقوم على الربا ويهدى الى الترف والاسراف .

وهي وان كانت باستنادها الى حقوق الملكية الفردية قديمة العهد ،
فانها تتكىء اليوم على ملكية الآلة للعمل .

وهي بالانقلاب الصناعي الكبير الذي نشأ عن استخدام البخار
والكهرباء حديثة بعيدة الغور في حياة الانسان ونظام المجتمع . بل تكاد
الرأسمالية الحديثة تكون شيئاً آخر غير نظام الملكية القديمة في آثارها
ومظاهرها ، والى هذه الرأسمالية ينسب الاشتراكيون كل مساوئ النظام
العالمى الحالي ويعدون البطالة والبؤس والترف والاسراف من مظالمها .

لا شك أن ملكية الآلة ، وحسن استخدامها ، ودوام التحسين في
إنتاجها ، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع .

فبدل أن تكون وفرة الانتاج وسهولته بركة من بركات عصر البخار
والكهرباء ، وبدل أن يكون استخدام الآلة والقوة سبباً في بهجة الحياة
والسعة في أوقات الفراغ ، انقلب الخير في ظل النظام الاقتصادي الحديث
الى شر مستطير ، وحرّم الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء

المناسب له ، واختص (الممولون) بجهد محدود وثمرات وفيرة ، فارتفعوا فيه الى مستوى الأمراء في عهد الاقطاعي ، وسارت الكثرة تنظر الى مباحج الحياة ولا تشترك فيها ، بل فقدت طوائف المتعطلين والذين على حافة التعطل هناة العيش وهناة الايمان ، في ضوضاء الآلة ، وكان الدين من قبل يمد المعوزين بالسلوى والعوض في الدار الأخرى ، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين وذهب مدده من العزاء .

مادية لا سند لها
من الروح

نعم كانت الأديان تخفف من آثار الملكية بدعوتها القوية الى الزهد واشتراك المحرومين في ثمرات الكسب بقوة القانون ، كما فعلت الديانة المحمدية ، أو بتحريم ملكوت السماء على الأغنياء كما فعلت المسيحية .

مشكلة التعطل
في الامم الرأسمالية

وكأنما النظام الرأسمالي الحديث ، وقد سلب السند المعنوي والروحي ، يتجه بعنف نحو الأثرة والاستزادة من الترف والاسراف ، فيقذف بلا رحمة في هاوية التعطل فريقا ، ويسخر فريقا آخر . وليس أدلى على ما وصل اليه الخطر من أن المتعطلين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب عدة ملايين ، وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم ومن أهم مراكزه الصناعية ، وتنفرد فوق ذلك بملك لم يؤته بلد في العالم ، تجبى اليها الأموال من القارات الخمس ومن الأبيض والأسود والأصفر .

رجال الكنيسة
الانجيلية يتحولون
الى اليسار

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادي الرأسمالي ! وليس أدل كذلك على تداعى هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سند العناصر المحافظة جيلا بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين الى اليسار يتقنون أن يغمرهم سيل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية ، فنزعوا الى التأويل أو رجعوا الى المسيحية الأولى .

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرار مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الانجيلية ، وهي قرارات لو نشرت في أول هذا القرن لظن أنها مما أوحى به (كارل ماركس) أو بعض تلاميذه ... وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فانه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب وانا لنرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأي في البلاد الاسلامية ، فان شريعتهم هي الشريعة التي وفقت كل التوفيق في تناولها هذه المشكلة المعقدة .

الى التوازن
الاسلامى

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى الى تقليد الغرب من الرجوع الى الاخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات ، ذلك التوازن الذى أقامته شريعتهم على أساس أن البر حق معلوم فى أموال الأغنياء ، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى مسئولية الامام وسلطته الواسعة فى النظر الى حاجات المسلمين . وليس المقام مقام استرسال فى نواحي الشكوى من النظام الحالى ، فالصيحة تتردد من أوائل هذا القرن فى جوانب العالم كله ، والفتن يأخذ بعضها برقاب بعض ، فلا بد اذا من نظام اقتصادى جديد يحل محل النظام الحالى .

الاستعمار
الحديث

ولنرجع النظر الى العنصر الثانى لفساد المجتمع الحالى فى رأى (نهرو) وهو الاستعمار ، واذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفة بها سند ، فان الاستعمار حديث ، والفطرة تأباه وتبغضه ، وقد عملت كل الأمم فى كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبى .

واذا قلنا ان الاستعمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والملوك لم تتقاتل على الأرض وملكيتهما ، أو على الملك وسعته ، فذلك قديم ، وانما الجديد فى الأمر هو ذلك الطغيان العام باسم التمدين ، وقوامه الأمم الأوربية على العناصر الملونة كما يقولون .

سادت الأقوام الأوربية الأصل الدنيا ، وأصبحت الكرة الأرضية كلها فى متناول الاستعمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة .

وكان فيما مضى زحف (تحتمس) من النيل للفرات غير مسبوق ، وسير الاسكندر من الفرات الى السند أعجوبة التاريخ . كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرائق الأثرة والاستغلال أولية .

ولايات عالمية

أما اليوم فولايات الاستعمار عالمية وآثارها تشمل الكرة الأرضية . وقد أنصف كثير من الكتاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين ، ورثوا لحالهم قبل الحرب الماضية ، ولعلمهم اليوم يرثون لما أصاب الغازين أنفسهم فهم يستحقون كذلك الرثاء .

شاهد حق

قال الكاتب الانجليزى المشهور (مدنى لو) سنة ١٩١٢ يصف

الاستعمار : « ما أشبه غالب الدول الأوروبية في سلوكها هذا الذي ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات ازاء الأمم الشرقية بعصاة من اللصوص يهبطون على المحال الآمنة فيشخنون فيها ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب . وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوى الشاكي السلاح يحق له الاتقضا على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة ! ففي خلال عشرين سنة ثارت ثائرة الاستعمار في أوروبا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضا . »

ذلك ما قاله (سدنى لو) قبل الحرب العالمية الماضية ، وقد توالى حملات الاستعمار على العالم الشرقى آخذا بعضها برقاب بعض .
لو أن (لو) كتب في الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه للمستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين .

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العامة الأولى الكاتب الأمريكى (لوثرروب ستودارد) في كتابه « حاضر العالم الاسلامى » (١) بهذه العبارة : « ان مبادئ الحرية التى سادت فى العرب ونودى بها غالب القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شرمزق ، وبددت صورها كل مبدد ، اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى . واشتد نهم أوروبا وجشعها للتوسع فى الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثل » .

شاهد من العالم
الجديد

فلو أن (ستودارد) كتب بعد أن وقعت الحرب العامة الثانية وشهد ويلاتها ، أما كان يرثى هو أيضا للغالبيين كما رثى لحال المغلوبين ؟

(١) عربى الأستاذ عجاج نويهض ، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الامير شكيب أرسلان رحمه الله .

ان السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة انما تسعى لاشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخام . وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمى الذى قد يقضى على الحضارة كلها .

فلا بد اذا من نظام اقتصادى وسياسى جديد .

وحين يقول (نهرو) ويوافقه (ويلز) ان النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار الذى يعيش فى ظل سيطرة طبقة على طبقة ، وأمة على أمة ليس نظاما صالحا للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما ، وانما يأتى الخلاف حين يقترح العلاج .

مقترحات

البدء بتقرير قواعد بسيطة - يجب تطور الرأسمالية
والاستعمار - عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه - هيئة
عليا عالمية لقيادة مشتركة - التدرج الى حكومة عالمية -
البدء في قلوب الطفولة - من التربية القومية الى التربية
العالمية - التدريب على الغضب للمصلحة العالمية -
فلنتعهد النواة الصالحة في « هيئة الأمم المتحدة » .

البدء بتقرير
قواعد بسيطة

مما تقدم يتضح أن رسم نظام كامل لحياة عالمية سعيدة ، أو وضع
تفصيلات لنواحي هذا النظام ، ليس من شأنه أن يعين على قبوله أو كماله ،
فنحن لذلك أميل الى البدء بتقرير أسس وقواعد بسيطة يقوم بعضها على
« الامتناع » ومعرفة الواجب وأدائه .

تطور الرأسمالية
والاستعمار
واجب

وقد وضح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الحديثة قد
تطورت من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرا بالغا
في تقسيم الناس الى أمم مهيمنة مستغلة ، وأمم مغلوبة مسلوقة ، كما
فرقت الجماعات في هذه الأمم الغالبة والمغلوبة الى طوائف وطبقات حاكمة
متعادية ، وقد أدت هذه النظم دورها في تجارب البشر ، ولا بد لها من
التطور لمسايرة عهد السرعة والانتاج الآلى .

فهذا التطور من شأنه أن يمهّد السبيل لعهد جديد أساسه الاخاء
العالم ، وهدفه التعاون على الخير والبر .

* * *

عالم واحد
لا تتجزأ السلم
فيه

هيئة عليا عالمية
لقيادة مشتركة

وعالمنا الجديد ، وقد أصبح في حيز الامكان الطواف حوله كله في يوم
أو ليلة ، واتصلت أطرافه باللاسلكى والراديو في لحظة ، عالم واحد
لا تتجزأ السلم فيه ، ولا سبيل لسعادة قوم منه على رؤس الآخرين ، ولا بد
له أن ينتهى الى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات
منها لقيادتها ، فتولد عندئذ الحكومة العالمية التى نرى فوائدها فى نظام
« الأمم المتحدة » ، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يقر

الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية ، ويدينون لها بولاء مماثل لولائهم لدولهم .

هذه الهيئة العالمية التي تتدرج الى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم .

التدرج الى حكومة
عالية

فمثلا تكون مبادئ المساواة والاخاء بعض قواعدها ، فيكون ما ترسم للناس مقيدا بحقوق المساواة وحقوق الاخاء .

ومثلا يكون فيها حق العيش وتأمين الحاجة حقا طبيعيا يهدف اليه الجميع ، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع ، فيكون اطعام الناس ، وتأمينهم من الخوف واجبا على كل الناس .

مثل هذه القواعد الفطرية ، اذا درب الناس على تقديسها تقديسهم لأديانهم وأوطانهم ، ولقنوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئتهم في المدارس ، تنتهي حتما الى اقامة صرح نظام عالمي عليها ، موطن القواعد ثابت الأركان .

البدء في قلوب
الطفولة

واذا اتفقت جميع الدول في (هيئة الأمم المتحدة) على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة ، وجدت كل دولة في بث هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها ، مكن ذلك (الأمم المتحدة) من التطور الى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة .

من التربية
القومية الى
التربية العالمية

ان أثر الدعوات الانسانية وأثر التربية واضح في تاريخ البشر وضوحا حاسما ومؤثرا في حياتهم ، فالدعوات الدينية التي غلبت الدهر وعاشت القرون واستمرت تفعل فعلها في نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية ، شاهد على قابلية البشر لقبول الدعوات الانسانية السامية للتآخي والتعاون ، وان ما حرمة هذه الدعوات استقرت حرمة

فى نفوس الناس ، فكبحت من جموحهم ومن شهواتهم ، وحولت الدوافع والفرائز لتتخذ لمظاهرها أشكالا وألوانا أخرى . فاذا دعونا الى تحريم الحرب وتمكنت هذه الدعوة من النفوس ، استحال تسير الجيوش للمقتال الا بقدر ما يحدث من الشذوذ ضد ارادة المجتمع ، من تكوين عصابات من القتل للسلب ، ويصبح الوجدان الانسانى أشد تقورا فى التوجه بالأذى والقتل الى شخص مجهول له ، أكثر من شعور الفرد العادى حين يهم بجريمة القتل ضد أحد المارة .

وهكذا اذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم ، واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملا من أعمال السرقة ، فان الوجدان البشرى ينتهى الى اعتبار هذا الاستغلال بأنواعه اجراما ، كما يعتبر السارق الذى يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرما .

فعلى الدعوة والتربية العامة التى نجعل الناس ينظرون الى هذه المبادئ البشرية نظرتهم الى القواعد التى تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد فى أسرة أو وطن ، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمى الجديد الذى لا بد منه لتطور الحضارة ، ولاجتناب الفناء الذى هيأت أسبابه سيطرة الانسان المتزايدة على المادة ، وعلى مجرى الأمور فى سلم المجتمع العالمى .



التدريب على
الغضب للمصلحة
العالية

ويجب أن يعلم الناس الغضب لأشياء عامة ، وفى المصلحة البشرية كما علموا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية ، فتكون غيرتهم واتفعالهم للعدوان على حقوق الغير ، أو للتقصير فى عمل الواجب نحو الناس كافة ، موجهة بالغريزة كتوجهها فى الماضى للدفاع عن حق الأسرة وشرفها .



فلنتعهد النواة
الصالحة فى هيئة
الامم المتحدة

وأخيرا ان وجود « هيئة الأمم المتحدة » فى شكلها الحالى ، ورغم المؤثرات التى رافقت ميلادها يفسح المجال لآمال كبيرة فى الاتجاه الذى نشير اليه ، فهى نواة صالحة اذا تعهدت بالاحترام والثقة فيها ، وأدركت الدول أنه لا سبيل الى التخلّى عنها ، بل اتخذتها محكمتها

ومرجعها في كل نزاع ؛ حتى يشعر الناس تدريجيا بضرورتها لسلامة عيشهم وأمنهم ، فيضحوا عن طيب خاطر في سبيل استمرارها وقدرتها ، كثيرا من حقوق السيادة التي أظهرت الدول فيما مضى غيرة قوية على التمسك بها . بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة ، لضمان أمنها أو يسرها ، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية .

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم .

ولنحذر اليأس ، ولنتعلق بأهداب السعى المتواصل لتمكين « الأمم المتحدة » من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد (١) .

(١) كتب هذا الحديث السابق عن (الأمم المتحدة) في الطبعة الاولى لهذا الكتاب في أول نشأتها سنة ١٩٤٥ فانقضى الآن نحو عشرين عاما ولا زلت عند رأيي في الصبر والمثابرة والمحافظة على هذه الهيئة كرتيب على السلام ومرجع عال للبشرية ، رغم ماظهر من أن الانسان لا يزال ، مع دروس الحرب الاخيرة وخطر الهلاك المنتظر ، تمليه مصالحه الذاتية ، أو بالاحرى ما يظنه مصلحته ، عن الهدى .

فقد اتخذت الأمم الكبيرة وبعض الطوائف ذات النظم الدولية هذه الهيئة العالمية ميدانا للدعاية ، أو سبيلا لتحقيق آمال وأحلام ومقتضيات سخط تاريخي ، أو لاعلاء دعوى الشيوعية على دعاوى الديمقراطية ، أو تغليب نظام على نظام دون استعداد للنظر في الامور من وجهتها الموضوعية ومحاولة علاجها على هذا الاساس تحت تأثير عامل مشترك هو الخوف على الحضارة ، والرغبة الخالصة في الانتقال بالعالم الى حال جديدة تستبعد استخدام العنف والحرب كوسيلة لتسوية المشكلات .

لم تتقدم (الأمم المتحدة) في سبيل الهيئة العالمية المرضية الحكومة كما كان منتظرا . وواضح أن الشيوعية من ناحية والاستعمار من ناحية أخرى ، والآمال الكاذبة للصهيونية العالمية التي أكملت خديعة يهود العالم حين انتصرت على العرب في ساحة صغيرة وفي ظرف موات لها ، فاستطاعت أن تشرذم مليوني من العرب لتحل محله مليوني من اليهود ينتهي أمرهم الى نفسها البؤس الذي صار اليه العرب يوما ما ، فتكون قد نجحت فقط في الاساءة الى العرب والى اليهود . هذه الصهيونية كأنصار الشيوعية وأنصار الاستعمار هي القوى الثلاث التي أثرت في توجيه (الأمم المتحدة) وجهة أبعدها عن نزاهة القصد ، وزعزت ثقة الاقوام فيها .

(٦)

في النظام الأساسي للدولة الإسلامية

بعض أسس الدولة الإسلامية

الإمامة الشورى السيادة

دلالة الفقه الإسلامى - المبادئ العامة محدودة وقاطعة - من هم أهل الشورى ؟ - المجمع عليه فى الإمامة - تجربة المصنوع - الأصول المقررة فى رئاسة الدولة الإسلامية - مفهوم السيادة فى الإسلام - صورة لا نظير لها - حدود سلطة الإمامة - لا سند لما ينقض العدل والحق

(١) ظهرت فى السنوات الأخيرة دول إسلامية مستقلة متعددة فى آسيا وأفريقية ، وظهرت معها وفيها وهيئات وأحزاب تريد أن تقيم نظمها على مبادئ الشريعة الإسلامية وأصولها ، وتعددت الآراء فيما هو نظام الحكم الإسلامى ، وفى كيفية إنشاء دساتير تتفق ومقتضيات الإسلام ، وتحقيق غايات الشريعة المحمدية .

والدول الإسلامية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب تشمل أقواما وثقافات وعرفا وعادات وطرائق للحكم ، وتختلف فيها الحاجات باختلاف الأقاليم واختلاف البيئات الاجتماعية وضرورتها ، فحكمتها بطريقة واحدة أمر عسير ؛ لأن استيفاء حاجاتها ومصالحها وسد الذرائع فيها يحتاج لتفصيل واجتهاد يجعلان من العسير أن يفى بحاجاتها دستور موحد ونظام حكم واحد بالمعنى الحديث للدساتير ، يحقق الغرض الذى ترمى اليه الشريعة فى كل مكان . بل قد يكون أدنى الى تحقيق غرض الشريعة المحمدية أن تتعدد أشكال الدساتير ونظم الحكم على أساس أن تسودها المبادئ العامة للشريعة الإسلامية وأصول الآداب والأخلاق التى جاءت بها رسالة الإسلام واهتدى بها البشر من أقدم العصور ؛ لأن اختلاف القوانين المنظمة للشئون العامة قد يكون فى ذاته ضرورة محققة لأغراض الشريعة ولمصالح المسلمين فى مختلف ظروفهم ، وأدعى لتحقيق المصلحة ، من الإصرار على دستور موحد شامل يطبق فى كل مكان .

(١) هذا الفصل مزيد فى هذه الطبعة .

ولعل الفقه الاسلامى فى نشوئه وتطوره وتعدد آراء المجتهدين فيه متأثرين قطعا بظروف البيئة وظروف الزمن ، هو الهادى الى ما نظنه الصواب فى هذا النظر ..

فالدساتير الاسلامية التى يطالب بها الاندونيسيون أو الباكستانيون أو المصريون أو غيرهم من الأمم الاسلامية ، يمكن أن تكون فى جوهرها متفقة متقاربة ، وان اختلفت فى فروعها وتفصيلاتها وما يتفرع من ذلك من قوانين ومراسيم واجراءات تقتضيها المصلحة وتسد بها الذرائع ..

وعليه ؛ فما هو هذا الدستور أو هذا النظام الاسلامى الذى يوحّد بين المسلمين من غير أن يعوق التطور التشريعى والاجتماعى وفق مقتضيات العدل والمصلحة فى مكان ما أو زمان ما ؟؟

إذا نظرنا فى الكتاب والسنة وتاريخ المسلمين فى أيام خلفائهم الراشدين نجد أن الاسلام محدد قاطع فى كل ما هو من المبادئ العامة الصالحة لكل زمان ومكان وقوم ، فاذا كان الأمر تنفيذا لهذا المبدأ واقامة لأصل من أصول الاسلام ، تجلت مرونة الشريعة الاسلامية وتفويضها لعقولنا واجتهادنا ، وصارت الشريعة وكأنها تشير الى هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « أتم أعلم بأمر دنياكم » فيفسح مجال الرأى ويكون الفصل بالنسبة للصواب أو عدمه لحكم العقل والتجربة الهادين الى المصلحة العامة والمتجنبين المضرر .

المبادئ العامة
محددة وقاطعة

ولعل ذلك هو فضل الاسلام الذى يجعل منه شريعة خالدة للناس جميعا ويحقق قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » اذ لو كان الاسلام غير ذلك ما كان دينا يسرا ، ولضاق بالناس فى مختلف أزمانهم وأوطانهم وحاجاتهم المتغيرة .. فوضوح الاسلام فى الأصول العامة ومبادئ الأخلاق السامية وتركه الكثير من الأمور للرأى والاجتهاد لم يكن سببا للمضعف فى شريعته ، بل سببا لاستمرار الحياة والخلود لهذه الشريعة وعظمة الفقه فيها .

في الشورى

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة : كره الاسلام أن تقوم الدولة على السيطرة والجبروت من شخص أو جماعة ، وأرادها أن تقوم على الرضا والتعاون ، فأمر بالشورى فقال « لست عليهم بمسيطر » « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » فجعل الشورى مبدأ عاما لا مفر من اقراره واعتباره في كل دولة أو جماعة اسلامية في أى مكان وأى زمان وأى قوم وقد دلت تجارب البشر على اضطراد هذا المبدأ وتفعه ، ولكنه لم يرد أن يشق علينا بتعيين نظام واحد لهذه الشورى أو تعديد صور له لنختار منها ما يقتضيه المكان والزمان ، فترك لنا الاختيار والتنظيم للشورى معتمدا في ذلك على اخلاصنا لديننا واخلاصنا لأنفسنا ، وعلى أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ، ولنقرر في حدود هذا الأصل أشكال هذه الشورى وكيفياتها وفق حاجاتنا كي نكفل للأمة الاستقرار والرضا العام . ولذلك نجد كبار الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة والفقهاء قد اجتهدوا في هذا الأمر وتركوا لنا آثارهم فتعدد الرأى في كيفيات الشورى : —

١ — فنجدها مرة بعرض الأمر على العامة في المسجد أو الخاصة في ندوة .

٢ — ونجدها مرة ثانية بدعوة لعدد من كبار الصحابة لتبادل الرأى .

٣ — ونجدها ثالثة بعرض الأمر على من حضر من أهل الرأى والمقام في ظرف معين .

٤ — ونجدها رابعة مقتصرة على واحد أو أكثر يختارهم الامام ويثق في سداد رأيهم ويشعر بمشاركة العامة اياه في ذلك .

وهكذا كان المعول في الأمر كله على حسن نية ولادة الأمر ومراعاتهم لأمر الله سبحانه وتعالى في الشورى وخشيتهم له ، فأدوها بالكيفية التى تطمئن لها نفوسهم حسب مقتضيات الظروف والأحوال .

وقد اصطلح المسلمون على أن أهل الشورى هم جماعة من أهل الحل والعقد « وأهل الحل والعقد » هم من إذا أبرموا وعقدوا أمرا أبرمه الناس ، وإذا تقضوه وحلوه تقضه الناس ..

فلو علمنا من هم أهل الحل والعقد الذين إذا قالوا قال الناس ، وإذا رأوا رأيا تبعهم الناس لكان فيهم كل الكفاية للحصول برضائهم على الرضا لعام ومثلت الأمة خير تمثيل ؛ ولكن المشكل الذي ظهر في مدى العصور الاسلامية هو الاتفاق أولا على من هم أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم مثلا البيعة للامام ، وثانيا على كيفية اختيارهم ؛ ولذلك تعدد الرأي ؛ فحصرهم البعض في العلماء ، والبعض في العلماء وغيرهم من المتبوعين في أقوامهم ، والبعض فيمن تتوفر فيهم صفات الاجتهاد من العلماء .

والواقع أن تعيين أهل الحل والعقد ليس أمرا هينا ، فهم في المدينة غيرهم في البادية ، ، وهم في الريف غيرهم في العواصم ومراكز الاكتظاظ والصناعة ، وهم في عصر من العصور العلماء المتبوعين ، وفي غيره المتغلبون النافذون في العشائر والأوطان والممالك ، وفي عصرنا قد يكونون بين رؤساء الأحزاب والطوائف والنقابات وغيرهم .

وهكذا يختلف النظر بالنسبة لأشخاصهم وبالنسبة لاختيارهم وتعيينهم باختلاف الأقوام والعرف والعادات والأزمان ، ليكونوا أهل الرأي في البيعة ، وأهل الشورى في كل حين .

ولذلك نظن أن الدستور الذي يوضع لتمكين أهل الحل والعقد من ابداء الرأي ، وتمكين الامام ورئيس الدولة الاسلامية من اختيارهم واستشارتهم يتغير بتغير ما أشرنا اليه . وقد يكون في دستور أية دولة من الدول الاسلامية غيره في دستور دولة أخرى .

هذا مثل قد يوضح في أذهاننا ما هو موضع الرأي وما هو موضع التقليد فيما نختار من النظم والديساتير لتكون موافقة للشريعة الاسلامية وأغراضها . .

في الامامة

ومثل آخر هو : مسألة الامامة واختيار رئيس الدولة ، وما يجب أن يتوفر في الامام من شروط ، وما له وما عليه من واجبات ، ففي هذا أيضا نجد الشريعة الاسلامية واضحة فيما هو ثابت ومستمر من أمر الامام والامامة ، وتاركة للرأى والاجتهاد والمصلحة ما هو متغير وغير ثابت وتقتضى المصلحة فيه هذا التغير وعدم الاستمرار .

الجمع عليه
في الامامة

فمنذ اجتماع المسلمين في (سقيفة بنى ساعدة) عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والبيعة لأبي بكر رضى الله عنه وموضوع الامامة محل خلاف بين المسلمين ، تعددت فيه الآراء والمذاهب . وان اجتمعت الأكثرية العظمى على رأى أهل السنة فان هذا الاجتماع لا يخلو كذلك من خلاف على تفصيلات كثيرة . ويمكن القول بأن المسلمين لم يجمعوا الا على أمر واحد : هو وجوب الامامة منعا للفوضى واقامة لحدود الله .

وليس القصد هنا تناول هذا الموضوع من الناحية النظرية ، ومناقشة المذاهب والآراء التى لا تزال ممثلة في طوائف كثيرة من أهل السنة والشيعة والاباضية ، وانما القصد هو الاشارة الى هذا الخلاف ليتبين للناس اتجاه الشريعة الاسلامية ببيان المفروض والمتروك لهم ، ليقرروا بشأنه ما يشاءون وفق المصلحة وحسب مقتضيات معاشهم وزمانهم وأوطانهم .

فاذا تتبعنا ما اختلفوا فيه نجده قد تناول الكثير من أمر الامامة ، حتى اللقب نفسه ، فسمى المسلمون رئيس الدولة خليفة ، كما سموه أمير المؤمنين ، واماما ، وسلطانا .

وقد بلغ الخلاف في الموضوع أنه لما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمع الناس في السقيفة لم يكن الأمر واضحا لهم ، حتى قال الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » وقال المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » أى قال قوم بوحدة الامام وآخرون بتعددده . ثم اجتمع الرأى باختيار أبى بكر لفضله ، ولأنه لا تتناول اليه الأعناق كما قال عمر رضى الله عنه . ولا يعنينا هنا أن نخوض في أصل وجوب الامامة وكونه عقليا أو شرعيا

وغير هذا ، ما دام المسلمون قد فصلوا في ذلك الوجوب باجماع الصحابة ، ومارسوا الأمر ، ثم اجتهدوا فيما يجب للامام وما عليه لاقامته وتمكينه من حراسة مصالحهم الدينية والدنيوية ، في مجتمع ولد نتيجة للدعوة والارشاد والكفاح المحمدي على أسس جديدة غير مألوفة في ذلك العصر ، فهو مجتمع متكافل متكامل ، الناس فيه عيال الله ، وأكرمهم ألقاهم ، وهم سواسية كأسنان المشط ، وليس لأحد عليهم سلطان الا بقانون مرجعه الشرع الاسلامي ، فهو بذلك مجتمع جديد في عصره وفي عالم كان يقتسمه قيصر وكسرى كارباب من دون الله .

في هذا المجتمع نشأت الامامة ، وسادت الشريعة واستقرت مبادئ وأصول ونظم لها كل القداسة ، وهي بذلك الدستور الدائم للمسلمين الذي لا يوهب ولا يسلب ، تتعين فيه الحقوق والواجبات العامة للجميع ، ولا تملك قوة في الأرض ، حتى الأمة نفسها ، له تغييرا أو تبديلا ، ففيها الامامة مثلا أمانة وأمين عليها يتصرف في حدود الأصول العامة للشريعة وفق مصلحة الكافة .

والامامة كنظام اسلامي فريد غير مسبوق ، لا تؤتى أحسن ثمارها الا في أمة صالحة ، ينظم أمورها وفق الشريعة دستور واضح ، يتطور بإرادة الأمة وفي حدود الشريعة لتجلب به المصالح وتسد الذرائع .

وقد دلت تجربة العصور على أنه اذا فسدت الأمة ، واذا فشا فيها الجور فلم يقف الناس عند حدود الشريعة ، فسد الأمر كله ، فضاع حق الراعي وحق الرعية ، وكثرت الفتن وانطوت سيادة القانون ، فلا بد لاتقاء هذا من نظام ودستور اسلامي ترضاه الكافة ، ويكون حدود الله بين الناس ، فيه ما هو ثابت خالد من الأصول ، وما هو متغير وفقا للمصلحة من الفروع ، لأن الشريعة تركت لنا الاختيار والاجتهاد في شأنه وفي صورته وأشكاله وما يتفرغ عن ذلك من المسائل لدوام الأمن والرضا والعيش الكريم

تجربة العصور

وأخيرا وبعد مراجعة الكثير من آراء الأئمة وفقهاء المسلمين في مختلف مذاهبهم ، ومتابعة التاريخ الاسلامي ، أشعر أن الشريعة الاسلامية

الاصول المقررة
في رئاسة الدولة
الاسلامية

لم تقرر لحكمة سامية في أمر رياسة الدولة الا بعض أصول قليلة : كاقامة الامام ، وأن يكون بالغا ، عاقلا ، مرضيا عنه من الأمة مستعينا بصالحها ، مشاورا لأهل الحل والعقد فيها ، وأن يكون بعد ذلك حارسا على مصالح المسلمين مقيما لشريعتهم . وينتقض أمره بمخالفته أوامر الله ومصالح المسلمين . وأظن أنه فيما عدا هذه الأصول القليلة قد ترك للناس أن يجتهدوا ويضعوا من النظم ما يصلح أمورهم ، ليتناسب ذلك مع دعوة الاسلام العامة وأن هذا الدين للناس كافة .

في سيادة الأمة

ومثل ثالث : هو أمر « سيادة الأمة » وكونها مصدر السلطات بالمعنى المتعارف عليه في هذا العصر . فللاسلام في هذا منهج غير نهج الدساتير الحديثة .

ان الاسلام دين عام ، لا يتقيد في أصول العقائد والآداب والأخلاق والمبادئ والحقوق بالأوطان الخاصة ولا بنعرات الجنسيات والقوميات والألوان ، ولهذا فالسيادة عنده للشريعة : أي لتلك الأصول التي قامت عليها دعوته ، وليس للأمة مجتمعة أو متفرقة ، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة ، ممثلة في برلمان أو في هيئة تأسيسية أو غير ممثلة ، أن تتصرف فيما جعله الله حقا أو واجبا للأفراد أو للمجماعات في وطن ما أو للناس كافة في الدنيا كلها .. اذ لهذه الأصول وحدها القائمة على ما شرع الله من حقوق وواجبات عامة للانسان ، السيادة والخلود ، لأنها دائمة بإرادة الله لا غيره . وهذا أصل اسلامي عظيم يجب دائما أن لا يغيب عن أذهان الباحثين الاسلاميين ، وأن ينوه به في هذا العصر خاصة ويعلن عنه ، لأنه جعل من رابطة الانسانية رابطة أعلى من الروابط العنصرية والوطنية ، وجعل من الحقوق البشرية ما يسمو على السيادة أو المصلحة القومية .

مفهوم السيادة
في الاسلام

فالسيادة بمعناها العصري عند الآخرين أو مقلديهم من المسلمين غيرها في النظام الاسلامي ، فهي فيه مكونة من عدة قوى يجتمع بها سلطانها : هي الشريعة ، والأمة ، والامام حارس الشريعة ومختار الأمة ،

ولذلك يسمو النظام الاسلامى على ما عداه ، فهو يكفل أصول المبادئ الأخلاقية العامة ، وأسس العدل العام والمساواة بين الخلق والاخاء البشرى، فيقيم الحقوق والواجبات البشرية على قواعد الشمول والخلود بأمر الله تعالى واراذه ، فيقطع بذلك السبيل على الهوى والتعصب والتحزب ، اذ ليس للأمة ولا للملوك ولا للرؤساء ولا للعامة سبيل الى نقض حقوق الانسان وواجباته بدعوى حرية الأمة وسيادتها فى وطنها .

فمفهوم السيادة فى الشريعة الاسلامية غير مفهوم السيادة الشعبية فى دساتير الأقوام الأخرى ودساتيرنا المنقولة عنها ، اذ هى لا تتحقق كما قدمنا الا باجتماع العناصر الثلاثة التى ذكرناها : الشريعة الاسلامية ، والأمة ممثلة فى أهل الحل والعقد ، والامام المختار ففهم مجتمعين السلطان الذى يسمى حق السيادة Sovereignty وقد كانت قديما للملوك وصارت حديثا للشعوب .

وهذه الصورة الاسلامية للسيادة مانعة من الهوى والتردى فى مزالق الرأى ، وهى ضمان للحقوق والواجبات الانسانية لا نظير له فى مذاهب الأمم السابقة واللاحقة للاسلام .

صورة لا نظير لها

والتعبير عن هذه السلطة لا يتأتى بارادة واحدة كما يحدث ، باسم الشعب ممثلا فى حزب الأكثرية ، أو باسم الملك ، أو باسم الدكتاتورية شيوعية أو غير شيوعية ، بل لا بد للتعبير عن هذه السلطة من اجتماع ارادة الله : أى شرعه ، و ارادة الدولة : أى الأمة والحكومة فمن هذه الارادات الثلاث تنتظم الحقوق والواجبات فى جميع الأوطان والأزمان . فمثلا اذا قالت الشريعة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » لم تستطع الأمة ولا الامامة ولا هما مجتمعين أن يتجاوزوا ما أرادته الشريعة من عدل وانصاف ، ولو كان ذلك باسم سيادة الأمة وحققها فى تقرير مصائرها .

وإذا لا تكون الأمة مصدر السلطات بمعنى أنها طليقة تفعل بنفسها ووطنها أو غيره ما تشاء ، فهذه المشيئة محدودة بمبادئ الأخلاق العامة ومبادئ العدل وحقوق الانسان وواجباته كما أرادها الله

أما أن للأمة أن تكيف نظمها وتضع القوانين والدساتير في حدود هذه السيادة المشتركة ، فأمر لها فيه كامل الحرية ، فهي سيدة في كل ما لا تجده ارادة عليا هي ارادة الله مصدر الوجود ، الذي استخلف الانسان في الأرض ، وحمله أمانة الحكم ، وجعل هذه الخلافة تقصد الى العدل والحق « ياداوود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » .

نعم ان الأمة مصدر السلطات ، وليس للملوك ولا للرؤساء من أى نوع كانوا في الشريعة الاسلامية من الأمر الا ما تريده الأمة ، فهي التي تقيم الدولة ، وهي التي تنظمها ، وهي التي تختار أولياء الأمر فيها ، وهي التي تقدر مصالحها وتدرأ مفسدها ، فهي في هذا كله مصدر للسلطات : تلك السلطات التي يحدها ويحيط بها نطاق الشريعة الاسلامية .

ومن هذا المثل أيضا في أمر السيادة يتضح بعض ما له صفة الخلود ، وبعض ما هو مقيد بارادتنا ومتغير بمشيئتنا واختيارنا من الأشخاص والقوانين والنظم والدساتير .

وسيادة الشريعة فيما هو متعلق بأوامر الله لا تنقض برأى فرد ولا جماعة ولا قوة . وكل رأى أو قوة تحول بين الناس وبين العدل والحق كما جاء بهما الاسلام ، لا مبرر له ولا سند من الدين الاسلامي ، ولو كان له سند من السلطان والأمة . فليس للأمة أن تتجاوز مصالح الناس في أوطان أخرى ، وأن تفعل بقوانينها وشرائعها ما تشاء ، أو أن للأغلبية فيها أن تشرع وأن تتصرف بظلم في حقوق الأفراد والجماعات بما يقتضيه رأيها باعتبارها معبرة عن الارادة العامة للأمة في زمان ما .. فهذه الصورة التي في أذهان المعاصرين من الشعوب الاسلامية وغير

الاسلامية ، والتي توحى بحرية التصرف الكامل طبق المصلحة الوطنية ليست صحيحة من الوجهة الاسلامية النظرية ، فان الاسلام قد جاء بشريعة للناس كافة ، ولا يتقيد بما يسمى المصلحة الوطنية اذا كانت هذه المصلحة تتعارض مع مصلحة الناس كافة ، وأن تكون بها « أمة هي أربى من أمة » اذ قصده للخير العام يجب ما قد يبدو من خير خاص . وهنا يتخصص ويتقيد الحق الناشئ من دعوى « السيادة الشعبية » كما يقول به فقهاء الدساتير الحديثة الديمقراطية ، بالحق العام للناس كافة كما يقرره الاسلام .

(وبعد) فهذه أمثلة ثلاثة قدمتها في الحديث عن النظم الأساسية للدولة الاسلامية ، وهي الشورى ، ورياسة الدولة ، وسيادة الأمة ، وهي الأصول الكبرى التى تقوم على بيانها وبيان التفرع عليها الدساتير . وقد قدمها الاسلام وتاريخه وآراء فقهاءه ، واضحة محددة فيما هو ثابت خالد ، ومتغيرة مرنة فيما يحسن فيه التغيير والتطور والمرونة .

وأنى لأرجو أن أكون فى هذا الفصل الموجز قد حفزت همم العلماء والفقهاء وأهل رأى لاستقصاء البحث والتوسع فيه ، اذ كل قصدى ، وقد أخذ الناس فى كل أقطار المسلمين يتحدثون فيما هو نظام الحكم الاسلامى والدستور الذى يبين هذا النظام ، لا يكلفهم شططا ، وأن صور الدساتير الاسلامية قد تعدد جلبا للمصلحة ودفعاً للمضرة ما دامت فى حد الأصول الاسلامية الخالدة .

فما دام المسلمون فى أى قطر من أقطارهم أو دولة من دولهم ، يعملون بنية خالصة محترمين شرعهم ومقيمين نظاما دستورية تتناسب مع أحوالهم ، فانهم يحدثون بذلك نظاما اسلامية هي خير لهم من تلك التى يقلدون فيها ما يسمى بالديمقراطيات الشيوعية أو الديمقراطيات الرأسمالية . فيكونون بذلك أمة الوسط كما سماهم القرآن ويوفقون الى حل ما استعصى على غيرهم ، ويجمعون بين حاجات الروح وحاجات البدن ، معطلين الحضارة والحياة الانسانية السنين الذين لا بد منهما للسلم والاستقرار والرخاء ، اذ ليس الانسان حيوانا ليكون كل همه فى بطنه ،

و لا ملكا ليكون كل أمره في روحه . وقد امتازت الرسالة الاسلامية
باختيار الوسط من الأمور ، فأخذت في الاعتبار حاجات الروح والبدن
الدائمة وسنت لها أصولا خالدة لا سبيل الى نقضها ، وتركت الفروع
تتغير طبق المصلحة المتغيرة في الدنيا ، وقد نظرت في المصلحة العامة
للانسانية كلها ولم تغلب عليها أية مصلحة قد تدعيها أمة لنفسها ، وجعلت
السلطة التي تنشئ الحقوق والواجبات الفرعية مقيدة أولا باجتماع
العناصر الثلاثة التي أشرنا اليها وضرورة موافقتها للمبادئ العامة الانسانية
التي يجب أن يتضمنها أى نظام اسلامى . وقد نهت الأمم كافة عن السعى
الى أن تكون مصلحة أمة أربى وأكثر من مصلحة أمة أخرى ، وفي هذا
يقول القرآن الكريم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

(٧)

في انتشار الدعوة

إنتشار الدعوة في الوثنيين

شهرة باطلة - خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة - فتح مكة بجيش المستضعفين الطرودين - الدعوة السرية والجهرية - الدفاع عن النفس مشروع - الموقف في الحديبية يشهد - تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة - الموقف في خارج الجزيرة - رواية الكولونيل (فردريك بيك) - فتنة واعتداء - مع الروم في شرق الأردن (مؤتة) - دليل فذ من أدلة التسامح الاسلامي - فتح مكة - لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها - الفرض من فتحها - صورة من التسامح المحمدي - دليل على انهيار النظام الجاهلي - الفتح السلمي قبل الفتح الحربي - دليل من اسلام ابي سفيان زعيم المشركين - الوفود تتوالى من الجزيرة على الرسول باختيارها - الخدمة الوحيدة التي اداها السيف للاسلام - ابيع الدين بدراهم معدودات ! - ما بعث الله محمدا جابيا - قصة تكشف عن روح عصرها .

شهرة باطلة

استقر في أذهان كثير من الناس ، المسلمين وغيرهم ، أن الدعوة المحمدية ظهرت وانتشرت تحت ظلال السيوف ، وأن القبائل التي حملت كتاب الله في رقابها حملت سيوف الحق في أيديها ، وانطلقت للمغرب والمشرق ، فحكمت السيف حتى دان الناس للكتاب المعلق في الرقاب ، وليس أبعد من الصواب ولا أدل على البحث السطحي المعتل من هذا الظن ! لهذا يحسن أن تتناول هذا الأمر بشيء من الاقازعة وتتبع انتشار الدعوة في العصور المختلفة ، ليستقر الحق في نصابه ، ويتبين الرشيد من الغي . ولعل ذيوع هذه الفكرة الخاطئة عن انتشار الدعوة المحمدية بالسيف جاء من اقتران ظهورها خارج الجزيرة العربية بظهور الدولة الاسلامية ، وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسية والدولية بتاريخ الفتح الديني ، مما جعل الناس يخلطون بين دخول الأقوام في الايمان وقبولهم رسالة التوحيد وبين خضوعهم لسلطان الأمة الجديدة التي كانت السابقة الى قبول الرسالة المحمدية .

خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة

فتح مكة بجيش الطرودين

وقد نسي الناس أن الفتح المحمدي لمكة وغيرها ، انما كان بجيش قوامه آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح ، ممن أسلموا سرا

واضطهدوا جهرا ، وهاجروا من أوطانهم قهرا ، وعبروا البحر مرتين
لاجئين الى الحبشة ، وفروا الى المدينة ، واحتتموا في جوار كل ذي حول
أو طول .

الدعوة السرية
والجهرية

دعا محمد صلى الله عليه وسلم ، أول ما دعا الى الاسلام ، آل بيته ،
فمنهم من آمن ، ومنهم من عصى . دعا سرا فدخل في دعوته من أشرف
القوم وصناديد الجاهلية ، كما دخل جماعة من المستضعفين والعييد ، ولم
يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يحموا رسولهم ، وألجأته قريش الى قبول
النفي الاختياري مع آلهم في الشعب حيث بقوا حقة من الزمن مقاطعين
منبوذين من أهل مكة وأحايشها وأشياعها من ثقيف وغيرها ، ثم خرج
من هذا الحصار ، وقد فقد زوجه وعمه ، وأخذ يعرض نفسه على القبائل ،
ورجع مهيبض الجناح من (الطائف) ولم يستطع دخول بلده الا في حماية
المطعم بن عدي من كفار قريش ، وقد أجاره نخوة ومروءة .

مشروعية الدفاع
عن النفس

وما زال يدعو سرا وجهرا ، وينال أصناف الأذى في نفسه وأتباعه ،
حتى لقي أهل البيعة الأولى من شبان المدينة في موسم الحج ، فحببوا
اليه الهجرة الى وطنهم ، ففر من الموت الى أحضان (يثرب) الموالية ،
ولم يتركه خصومه في ملجئه . فلما بسطوا أيدي الشر الى أطراف الواحة
التي نزل بها ، خرج اليهم والتقى بهم في (بدر) وقد أذن له بالقتال بهذه
الآية الجليلة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير
الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع
الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر
فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين
إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا
عن المنكر » .

والآية في صراحتها وبساطتها وتعاليها للأذن بالقتال ، وتحديد
الغرض منه ، وفي سياقها كله ، واضحة في تصوير الحالة تصويرا ينافي
تماما ما علق في أذهان كثيرة من صورة الكتاب والسيف متلازمين .

استمر الرسول قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ويصبر على الظلم ؛ فلما لم يبق الا الدفاع عن النفس بالقوة ، جاء اذن الله ، ووقعت الواقعة في بدر ، وأذل المستضعفون الجابرة ، وضم جوف القلب (١) من فحول قریش من كانوا على مر السنين ينوعون وسائل التعذيب للذين يدخلون في دين الله ايماناً واحتساباً .

الموقف في
الحديبية يشهد

ومع ذلك فقد رجع الرسول الى المدينة صابراً داعياً ، فلم تصبر قریش ومن معها ، وعادوا لمهاجمته في نفس المدينة . ولما كانت (الحديبية) اغتتم الرسول الفرصة للهدنة ، ورضى بشروط لم يكن ليرضاها لو كان عماد دعوته السيف ، فان تلك الشروط لم ترض حملة السيوف من أنصاره ، واعتبروها هواناً اذ لم يقاتلوا ولم يغلّبوا . ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن دعوته انما يمنعها من الانتشار السيف ، ولا يسطرها في الناس سيف ، فاذا هو هادن وسالم غلب ، وذلك ما كان ؛ فقد كانت هدنة (الحديبية) فتحة ، وكان هذا العقد الظاهر الغين الذي عقد للحصول على السلم بشرائط تبدو مذلة ، سبباً لانتشار الدعوة ، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية ، وتحققت الآية ، ودخل الناس في أيام الهدنة أفواجا في دين الله الذي قام بالدعوة ، والذي أحل فيه القتال لحرية هذه الدعوة ولا شيء غيرها .

تاريخ الدعوة هو
تاريخ الصبر
والمقاومة

فتاريخ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين . وكل تعقب لتفصيلات التاريخ الاسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة ، ويؤيد عمل النبي ، ويحقق قوله تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » وقوله « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا » .

الموقف في خارج
الجزيرة

قد يقول بعض الناس اذا كان هذا شأن الرسول في مكة والمدينة يصبر على الأذى ويرجح السلم حتى بشروط لم ترض أنصاره ، فما الذي دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية ، وسوق الجيوش لقتال الرومان في سورية ؟ أليس الرغبة في تحكيم السيف ؟

(١) البشر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين .

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحرب بين النبي والروم وأنصارهم من العرب . واليكم رواية الكولونيل (فردريك بيك) في مؤلفه الحديث « تاريخ شرق الأردن وقبائلها » ، وقد اعتمد الكولونيل بيك على مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم ، وأشار إليها في كتابه قال في صحيفة ٨٥ « في عام ٦٢٧ - ٦٢٨ (٦ هـ) استشهد أول مسلم في شرق الأردن بسبب اسلامه : ذلك أن فروة بن عمر الجذامي عامل الروم على (عمان) - وفي رواية ابن هشام على معان - كان قد اعتنق الدين الاسلامي ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلا أشهب وفرسا وحمارا وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية للنبي . ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا عبثا اقناع فروة ليرتد عن اسلامه فأبى . فما كان منهم الا أن سجنوه ، ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .

وفي تموز (يوليه) عام ٦٢٩ م (٨ هـ) أوفد النبي كتيبة من خمسة عشر رجلا الى حدود شرق الأردن ، ليدعوا الناس الى الدين الحنيف ، وليستطيعوا أخبار الروم وحوادثهم ، فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين (الكرك) و (الطفيلة) ، وقتلوهم كلهم الا واحدا لاذ بالفرار .

وبنفس الوقت أرسل النبي رسولا اسمه الحارث بن عمير الى أمير غسان في سوريا يدعوهم الى الاسلام ، فقبض عليه شرحبيل بن عمرو سيد (مؤتة) ، وهي قرية بجوار الكرك وقتله .

وحوالي هذا الزمن أيضا وصلت رسل النبي من الشمال تحمل أخبار الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية ، ووجود (هرقل) وجيشه في (الكرك) مع حلفائه من بهراء وجذام وعلى والبلقاوية كل هذه الأسباب جعلت النبي يعقد النية على بعث حملة الى جنوب شرق الأردن ليقترض من قتلة الحارث ، وليختبر قوة أعدائه واستعدادهم وليعرف أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية .

وفي أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٩ م (٨ هـ) جمع النبي ثلاثة آلاف مقاتل في « الجوف » قرب المدينة ليسيرهم نحو سورية وأمر عليهم زيد

ابن حارثة « فان أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فان أصابه قدر ، فالأمير عبد الله بن رواحة على الناس ، فان أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرا عليهم » .

فمضى الجيش حتى اذ كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم وعرب ، واقتتل الفريقان في قرية « مؤتة » بجوار الكرك .

استبسل المسلمون في هذه المعركة ، بالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدوهم ، فلما استشهد أميرهم زيد بن حارثة تولى جعفر (كما وصاهم النبي) فقطعت يميناه ، وكان بها اللواء ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، وكان فيه نحو خمسين جرحا . فلما نرى ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم قال : أثابه الله بجناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء فأصبح يعرف فيما بعد بجعفر الطيار .

وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، وتولى خالد بن الوليد وانسحب بالجيش الى المدينة .

تلك رواية الكولنيل « بيك » عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم . وهي واضحة في أن الروم صلبو (فروة) لما أبى أن يرتد ، وهي واضحة كذلك في بيان الاضطهاد والغيرة التي استولت على أفكارهم وأعمالهم ولا مجال للشك في أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السلمية ، لجأوا الى العنف ، بل الى القسوة والغدر ، ولم يكن بد لصاحب الدعوة من أن يدفع الشر عنها ، ويقاوم في سبيل حريتها .

ومما يرويه المؤرخ المذكور أيضا أن أسرة مسيحية تدعى (العزيزات) كانت تعيش في مؤتة ، فلما قدم الجيش الاسلامي خرج أخوان من هذه الأسرة للقاءه ، وفتحا أبواب القرية ، وقدما له الطعام والشراب ، ثم اعتنق أحدهما الاسلام وبقي الآخر على نصرانيته ، فأمر النبي ألا يستوفي منهما ولا من أعقابهما جزية ولا خراج ، وظل أمر النبي نافذا مدة ألف وثلاثمائة سنة . وقد أخذت الحكومة التركية تحصل منهم الأموال

دليل قد من
أدلة التسامح
الاسلامى

الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط ، لما ثار أهل الكرك . والعزيزات يقطنون اليوم (ماديا) وهم من أقوى العشائر .

ومغزى هذه الحادثة واضح ، فقد أمر النبي ألا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحيين وأعقابهم ، لأنهم أحسنوا لقاء جنوده ، واحترم المسلمون هذه الرغبة مئات السنين ، وهى فى ذاتها دليل تسامح فذ يستحيل معه أن يكون السيف وسيلة الدعوى وهادى الايمان

فتح مكة

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرة عاجلة فى تطور النزاع بين محمد صلى الله عليه وسلم وعشيرته قريش ، كافية لاقرار الحق فى نصابه ، وأنه لم يكن مفر من تحكيم السيف بين الفريقين ، حتى لو لم يكن محمد رسولا وكان رجلا كريما عزيزا أخرج من وطنه ، وأخرج معه كل من قال برأيه .

لم يكن مفر من تحكيم السيف فى فتحها

يقول القرآن على لسان قريش « وقالوا ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » فقريش التى أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسداية الكعبة ورعاية الحج ، وحراسة أوثان العرب وآلهتها ، والتى اتخذت هذا المقام وسيلة لنفوذ سياسى واقتصادى فى كل الجزيرة العربية ، والتى كانت تدرك ضعفها ، وأن هذه السيطرة التى لا تتناسب مع عددها ومقرها انما تركز على النظام الجاهلى الذى يدعو محمد لتقويضه والذى عبرت هذه الآية أصدق تعبير عن اخلاص قريش له ، فلو انها تبعت هدى محمد لهانت وذلت كما تدعى ، قريش هذه أنى لها أن تصبر على هذا الداعى ودعوته ! لذلك حكمت من أول الأمر القوة .

ولما اقتتل خزاعة وبكر بعد صلح الحديبية لم تصبر قريش عن نصرة بكر ، ولم ترع هدنة ولا احترمت ميثاقا ، بل عادت الى تحكيم السيف فقبل الرسول هذا التحدى ، وترك للسيف أن يحكم فى نزاع دام عشرين سنة ، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح . على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر قواد جيشه بعدم القتال الا أن

يقاتلوا . ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة .

فلم يكن الاكراه في الدين ، ولا قهر الناس على الاسلام هو سبب القتال في مكة التي حرم الله القتال فيها ، والتي يقول الرسول انها أبيضت له ساعة من نهار هي بعدها حرام ، وانما كان الغرض أن يوضع حد للاضطهاد الديني وأن يباح للناس حق اختيار العقيدة من غير اكراه ولا قهر .

صورة من
التسامح الحمدي

ولذلك لما سأل صفوان بن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون له الخيار في مغادرة مكة أو الاسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال : « بل أنت فيه بالخيار أربعة » ، وكان صفوان وأبوه أمية بن خلف ممن أساءوا للمسلمين أشد اساءة ، يعذبون ضعفاءهم ، ويستنهضون بنبيهم ، فكان أمية يسخر ويفت العظام البالية في يده ويقول (يزعم محمد أن هذا تحيا مرة أخرى !) فنزلت الآية « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه . قال من يحيى العظام وهي رميم ! قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » فمع ذلك التاريخ السيئ الطويل يطلب منه صفوان أن يترك له الخيار في الدين فيسمح له بعد الفتح والغلبة التامة ! فهل هذا شأن من يقيم دينه بالسيف ؟ .

دليل على انهيار
النظام الجاهلي

لم يقتل في موقعة مكة الا بضعة عشر شخصا ، مع عظم الجيوش المقاتلة ، فلقد كان جيش الاسلام وحده مقدرا بعشرة آلاف ، مما يدل على أن النظام الجاهلي قد انهار أمام الدعوة المحمدية قبل يوم الفتح ، وأن عصاة قريش لم تستطع أن تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن تقذت العقيدة المحمدية الى صدورهم . والا كيف نستطيع تفسير استسلام مكة بهذه السهولة ولما تغلب ! ؟ وآخر وقائعها ذلك النصر في (أحد) بعد (بدر) ، وكيف تقصر دخول الناس في دين الله أفواجا بين يوم وليلة ، وهم الذين كانوا يقولون « ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » ؟

الفتح السلمي قبل
الفتح الحربي

لا شك أن أيام الهدنة بعد الحديبية لم تقض عبثا ، وأن الدعوة وجدت في ظلال السلم سبيلها للنفوس التي تهيأت لقبول الحق ، وأن

زعماء قريش قد أحسوا الأرض قد زلزلت تحت أقدامهم ، وأن العمامة مالت للحنيفية السمحة . والا فما الذى جعل أبا سفيان يسلم ليلة الفتح ، ويتوسل بالعباس الى ابن أخيه ، لو كانت مكة لا تزال تؤمن بالنظام الجاهلى ؟ أليس أبا سفيان هو الذى حمل راية الحرب جيلا فى وجه هذه الدعوة ؟ ثم أليست هوازن وسقيف حلفاؤه لا يزالون فى منعتهم ، حتى لقد كادوا بعد الفتح يوم (حنين) أن يفعلوا بجيش الاسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول ؟ فما بال أبى سفيان وغيره من الزعماء لا ينحازون باتباعهم الى حلفائهم ويديموا القتال ، والعرب بطبيعتهم صلاب العود مربروا العداوة يديمونها جيلا بعد جيل ؟ السبب واضح : هو أن مكة قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل (يثرب) ومن حولها من الأعراب .

دليل من اسلام
أبى سفيان زعيم
المشركين

فحتى فتح مكة الذى يظنه بعض الناس حادثا عسكريا ترتب عليه اسلامها قهرا ، لم يكن الا وسيلة لكف الأيدي الباطشة عن أهلها ليعلموا ايمانهم ويدخلوا فى الدعوة التى مالوا اليها سرا أفواجا أفواجا . ثم بعد فتح مكة نجد الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية تتوالى على المدينة ، من اليمن ونجران وكندة والبحرين وشمال الجزيرة ومن نجد وتهامة ، ومن كل ناحية ، وتدخل فيها ايمانا واحتسابا .

الوفود تتوالى من
الجزيرة
باختيارها على
الرسول

فماذا كان قدر السيف ليرد الناس عن دينهم ، وبينه وبينهم مسيرة الشهور ، وهم فى منعة بعددهم وعدتهم ؟ ان الخدمة الوحيدة التى أداها السيف للاسلام هو أنه منع الرسول فى المدينة من أن يقع فريسة لخصومه من العرب واليهود والروم ، فمكن له بذلك من نشر دعوته وايصالها الى العقول والقلوب .

الخدمة الوحيدة
التي أداها السيف
للاسلام

وأدرك الرسول قوة الدعوة فى ظلال السلم ، هو الذى دعاه كما قلنا لامضاء صلح الحديبية ، والمسلمون بعد الرسول انما أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا للناس الخيار بين الاسلام والجزية ، اذا لم يحكموا السيف فى رقاب المسلمين ولم يحولوا بين الناس واختيار العقيدة التى يلقون الله عليها .

ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيار ، وما اشترى
أى انسان فى البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار . والدين الذى
لا يساوى عند صاحبه دينارا فالاسلام أولى بصاحبه منه .

كان الناس فى البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينهم
من قهر السيف بجزية هى (ضريبة شخصية) يدفعها القادرون منهم
لولاية المسلمين ، فيكفلون لهم مقابلها جميع حرياتهم المدنية والدينية .

فهل تتصورون أن قوما يبيعون دينهم وعرفهم ووطنيتهم بنصف دينار
يدفعه القادر عليه منهم ، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة
ولا الرهبان ولا القسس ؟ . لا شك أن الذين جازوا الى الاسلام بعد
الخيار بينه وبين الجزية ، وجدوه أحب الى أنفسهم مما كانوا عليه .

بل من الغريب أن الدينار الذى كان يعصم كل عزيز لدى الأمم
المفتوحة من سيف الاسلام ، والذى كان أزهد شئ عندها ، كان أعز على
بعض ولاية المسلمين من اسلام هذه الأقوام ، فكانوا يكرهون دخول الناس
فى دينهم وتقص جزيتهم ! كتب والى مصر الى ذلك الخليفة الزاهد عمر
ابن عبد العزيز يخبره أن المصريين مقبلون على الاسلام ، وأن ايرادات
الجزية تناقصت بسبب ذلك ، ويطلب منه أن يأذن له فى الاستمرار على
طلب الجزية منهم .

فكتب اليه الخليفة تلك العبارة الماثورة « قبح الله رأيك ! ما بعث الله
محمدا جاييا ، ولكنه بعثه هاديا !! » .

تلك الحادثة تقرب لنا تصور الحالة الذهنية فى القرن الأول لظهور
الدعوة المحمدية ، فلا بد أن قدر التسامح الدينى كان على أعظم جانب ،
وأن حرية العقيدة كانت فى أوجها ، والا فكيف تستطيع أن تتصور واليا
يكتب لخليفة المسلمين هذا الكتاب اذا كان فى المحيط الذى يعيش فيه
أى أثر للتعصب أو الرغبة فى قهر الناس على الدخول فى الاسلام ؟ ان
تناول الموضوع بهذه الصورة دليل على أن الوالى ، الذى يحس طبعا بحس
البيئة ، كان يكتب فى شئ لا يظنه عجيبا ولا يراه منكرا ، والا لكان هذا
الوالى عرضة لفتك الجماهير ، بل واثقام الخليفة وارضاء لهذه الجماهير .

أبيع الدين بدراهم
معدودات 11

مفارقات 1

ما بعث الله محمدا
جاييا

قصة تكشف من
روح عصرها

لم يعاقب الخليفة واليه بعزله ، بل كل ما كان ، أن قبح رأيه ، وهو الذي يحاول منع الناس من الاسلام احتفاظا بدينار الجزية ... فهل تتصورون أن ولاة لهم هذه العقلية ، وأن خليفة له هذا التسامح مع ما اشتهر به بين خلفاء عصر كامل من التقوى ، وأن أمة فاتحة مملكة تخير الناس بين البقاء على أديانهم ونظمهم مقابل جزية هي أقل الضرائب بالنسبة لعصر كمصرنا هذا أو المساواة بالفاتحين ، يخطر لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف وسيلة للإيمان ؟!

كلا ، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية ، وإنما كان حاميا من القهر والاضطهاد ، وكان شعارها « من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا » .

إنتشار الدعوة في الأمم المسيحية

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتار ؟ - موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة - موجة فلة في التاريخ - في ساحة المسيحية - شهادة السير توماس ارنولد - انتشار المسيحية في ظلال الاسلام - تحاكم المسيحيين الى عدالة المسلمين - فرض مرفوض - الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الاسلام - الكنائس تشاد في رعاية الاسلام - العرب المسيحيون يحاربون مع اخوانهم المسلمين - بطولة عربي نصراني في واقعة البويب - لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين في الاسلام - وقائع اضطهاد هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة - السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين - برهان قاطع على تسامح المسلمين - بلاد الاسلام هي منطقة اللقاء الودي الدائم بينه وبين المسيحية - التعصب الديني بضاعة غريبة .

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتار ؟

يظن بعض من لا يعلم ، أنه لما جمع محمد صلى الله عليه وسلم شتات العرب ، وقهر الوثنية في وسط الجزيرة العربية ، طغت بعده جماعات الرعاة من قساة البدو ، على الشمال والشرق للنهب والسلب والقضاء على حضارة الروم والفرس ، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواهما التي كانت تصون المدنية القديمة ضد طغيان الهمج من الشمال والشرق والجنوب ، وأن ظهور العرب كظهور الهون والفندال من الأقوام التي تدفقت من المشرق يسوقها الجوع ، ويعريها الطمع ، ويقويها الفخر بنسبها ، أو كعيرهم من موجات المغول والتتر المتأخرين ، وسيلتهم العنف ، وغايتهم ما في أيدي الناس . ومثل هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الاسلام بعيد كل البعد عن الحق وعن ثابت التاريخ . فمع أن حملة الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوة ، ومع أن أعراب الجزيرة كانوا من أرغب الأقوام في النهب وسفك الدماء ، الا أن الرسالة التي حملوها والشرعة التي دانوا لها كانت أملك لنفوسهم مما تعودوه من الطمع والفخر ؛ لذلك اختلفت آثارهم عن آثار أشباههم من الأقوام التي استمر هاديها في فتوحاتها النهب والفخر .

موجة تحمل
رسالة الهدى
والعدالة

فقد أقام العرب دولة امتدت من فرنسا الى الهند والصين ، وعربوا
الأقوام وأدمجوها فيهم ، وهدوها بهديهم ، فكان وفائهم للعهد واحترامهم
للشرع وتحقيقهم معنى العدل مضرب أمثال الأمم ، وموضع عجب
للمؤرخين والمحققين . لذلك لم يكره هؤلاء البدو أحدا على تغيير دينه ،
ولم يعاملوا الناس فرادى وجماعات الا بقانون تواضعوا عليه مستمدا من
نصوص الشريعة التي حملوا رسالتها ، أو من روحها . وقد لقنوا ذلك من
دخل في دينهم من الأقوام المتبدية كالأتراك والبربر ، فصار هؤلاء كذلك
مثلا للخضوع للشرع وللوفاء بالعهود والتسامح بما لقنوا من الأدب
المحمدى ، صادقين في احترام أوامر دينهم متسامحين مع أهل الأديان
الأخرى . بل يمكن القول بحق : انه فيما نعلم من تاريخ الأقوام والدعوات ،
لا توجد دعوة صحبتها العدالة وسعة الصدر والعفو والتسامح في عنفوانها
وضعفها كالدعوة المحمدية ، سواء أكان العرب أم الترك هم الحاملين إياها .

موجة فذة في
التاريخ

لقد غلبت النفوس الجامحة ، وهذبت الأمم القاسية ، وبقيت كلمة الله
هى العليا ، وأمره هو المطاع ، وهو الذى يقول لحملة الرسالة عربا وعجماء
« وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا
وان تولوا فانما عليك البلاغ » .

في ساحة المسيحية

كانت المسيحية هى الديانة الغالبة فى دولة الروم من جبال طورس الى
جبال الأطلس ، أى فى الساحة التى تشمل اليوم سورية ومصر وطرابلس
العرب وتونس ، وكانت هذه الأقطار من أول ما حرر العرب فى الدفعة
الأولى أيام خلفائهم الراشدين ، وأيام أن كان الحماس للدين الجديد فى
أوج حرارته .

وكان النصارى فى الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات ،
فمنهم العرب ، ومنهم غير العرب . فماذا كان حكم الفاتحين فى المغلوبين ؟
ذلك ما ندع الكلام فيه للسير (توماس أرنولد) ذلك المؤرخ والعالم
الكبير المختص فى هذا الموضوع .

شهادة
السير توماس
أرنولد

يقول السير توماس فى كتابه (انتشار الاسلام) : « حقا ان الكنيسة
المسيحية قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، فلم يحل الحكم

الاسلامى بينها وبين الانتعاش والرقى ، بل ان النساطرة لم تتفجر فيهم
 الحمية والحماسة الدينية الا بعد أن دخلوا في حكم الاسلام بما لا عهد
 لهم به من قبل ، فنشروا المسيحية تحت راية الاسلام ، وبلغوا بدعوتهم
 الصين والهند تحت حماية الخلفاء . واذا لم يكن لغير النساطرة من أهل
 النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية ، فليس هذا
 ذنب المسلمين ، ولا ذنب حكامهم : فقد كانت جميع المذاهب المسيحية
 تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء . بل كان
 هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون
 الحرية الدينية للجميع » ، وقد عدد السير توماس حوادث النكاية بين
 المذاهب المسيحية ، وبين كيف كان الحكام المسلمون يتدخلون لاقامة
 العدل ، وانصاف المظلوم من غير تحيز وبمتهنى التسامح ، مما لا محل
 للاطالة فيه الآن ، ويمكن الرجوع اليه في صحيفة ٦٠ وغيرها من كتابه
 السالف الذكر .

انتشار المسيحية
 في ظلال الاسلام

تحاكم المسيحيين
 الى عدالة المسلمين

فرض مرفوض

كذلك بين أن ما يعرفه من التسامح والاحسان الذي امتد ظله على
 الرعايا المسيحيين في العصر الأول ، وما ساقه من الأمثلة والوقائع ، لا يسمح
 بما يفترضه كثير من الناس ظنا ، وهو أن الأمم المسيحية دخلت في الاسلام
 قهرا أو بحد السيف ، فذلك لا شك باطل ولا مبرر له ، وعليها أن تبحث
 عن أسباب أخرى لتفسير اسلام المسيحيين .

الوزراء والولاة
 المسيحيون في
 دولة الاسلام

ويقول السير توماس « تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك
 والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون ، وعلى الأخص في المدن ، بثروات
 ونجاح كبير في عصور الاسلام الأولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع
 في قصور الخلفاء » . وقد ساق على ذلك شواهد كثيرة ، من أطرفها أن
 أخوين مسيحيين (سلماوه وابراهيم) وليا للخليفة العباسي المعتصم
 مناصب الوزارة ، ومنها بيت مال المسلمين ، ولما مرض ابراهيم عاده الخليفة
 بيته ، فلما مات حزن عليه حزنا شديدا ، وأمر بجثته فجئ بها الى القصر
 وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليها في قصر الخلافة الذي شيعت
 منه الجنازة ! وذكر توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين ،

مراسم المسيحية
 في قصر الخلافة
 الاسلامية !

(نصر بن هارون) الذى تولى رئاسة الوزارة لعضد الدولة بن بويه ،
وبنى عددا كبيرا من الكنائس والمعابد .

الكنائس تشاد
في رعاية الاسلام

وقد عدد كذلك أمثلة للتسامح في الكنائس التي أمر ببناءها الخلفاء ،
وأنفقوا عليها في شمال الجزيرة والعراق والشام ، ولا يزال بعضها قائما
الى اليوم ككنيسة (أبو سرجة) في مصر العتيقة مما بنى في العهد الأول
الاسلامى بالفسطاط . وليس أدل على سعة الصدر من أن والى الأمويين
في العراق وفارس (خالدا القسرى) بنى لأمه المسيحية كنيسة لتتعبد فيها
في العهد الأول للدعوة وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم
المسيحيين . ويمكن للذين يريدون تفصيلا أوسع في هذا الشأن أن يرجعوا
الى كتاب السير توماس وما يشير اليه من المراجع الأجنبية والاسلامية .

العرب المسيحيون
يحاربون مع
اخوانهم المسلمين

لقد كان بين العرب المسلمين وأولاد عموماتهم العرب المسيحيين من
الاخاء والتسامح في عهد الفتوحات الأولى ، ما جعل نصارى العرب
يقاتلون في الصفوف الاسلامية انتصارا لعروبته واستجابة لعدالة أبناء
عمومتهم . والتاريخ الاسلامى مستفيض بحوادث الأفراد والجماعات
المسيحية في العراق والشام ومصر ، التي احتفظت بدينها وساهمت في بناء
الامبراطورية العربية بجهدا ودمها .

بطولة عربى
نصرانى في واقعة
البويب

ففى واقعة الجسر ، لما زلزل جيش (المثنى) وحصر بين الفرات
والجيش الفارسى ، كان نصارى بنى طى خير أعوان اخوانهم العرب
المسلمين ، فحمل زعيمهم حملة صادقة وحمى المعبر للمسلمين . ولما عاد
(المثنى) واستنجد الناس لمحو عار هزيمة الجسر كان بنو النمير
المسيحيون من خير من أنجده . ففى واقعة البويب قاتل نصارى العرب
جنباً لجنب مع مسلمى العرب ، وكان فخر اليوم لنصرانى من بنى تغلب
لحق بالمعركة أثناء اشتدادها ، وقطع رأس زعيم الفرس وسلبه جواده وفاز
بالغنيمة وركض راجعا بين صفوف المسلمين يفخر بنسبه وأنه من نصارى
تغلب ، والمسلمون يهتفون له ويحيون نجدته .

ولقد بقيت (تغلب) على نصرانيتها ، وهى التي أبت الجزية وطلبت
أن تدفع الصدقة أسوة بالمسلمين ، فأمر عمر رضى الله عنه لها بذلك قائلا
« لا تذلو العرب . خذوا من بنى تغلب الصدقة » .

وقد بين السير توماس أرنولد في كتابه سالف الذكر جملة أسباب ترك المسيحيين دينهم في العصور والأوطان المختلفة ، وسرد الحوادث سردا علميا مدعما بالحجة القاطعة . وفي كل زمان ومكان تتكرر مفخرة المسلمين التي لا يدانيهم فيها أحد ، وهي التسامح وسعة الصدر والانصاف للمخالفين في العقيدة .

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك اعجابا بالدين الجديد وبأصحابه ، أم بغضا لما هم فيه من فرقة ، أم يأسا من الإصلاح ، أم فرارا من أذى بعضهم لبعض ، أم اهمالا من قساوستهم ومرشديهم ، أم طمعا في دنيا ، أم هدى من الله . فإن هذه الأسباب المتنوعة والتي يشير اليها المؤرخون من أهل الملل الأخرى في تعليل اسلام المسيحيين ، أدلة على بعد السيف عن ميدان العقيدة المحمدية .

نعم لقد وقعت في التاريخ الاسلامي بعض حوادث لا تخلو من اضطهاد المسيحيين ، وأكثر ما يشار اليه من هذه الحوادث في أيام المتوكل العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي ، وبعض المماليك . والأول كان شديدا على المسلمين أنفسهم ، قاسيا على التشيعة والمعتزلة من الفرق الاسلامية والثاني كان بالعكس فاطميا قاسيا على المسلمين من غير الشيعة . فاذا أصابوا لضيق صدرهم النصاري ، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين عزاء وأسوة . ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة ووقوع حوادث منعزلة قليلة في تاريخ أكثر من ألف سنة ، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظير وتاريخ ناصع مشرف في سجل الأقوام والأديان .

وأكثر حوات الأذى التي أصابت بعض المسيحيين في أزمنة متباعدة ، أثارتها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصاري من ثراء كبير ونفوذ قيل انهم أساءوا به ، أو نازعة خوف ، فقد كان النصاري في بعض العهود ضالعين مع اخوانهم في الدين وراء الحدود الاسلامية ومتجسسين متربصين ، فأصابهم بعض الأمراء ، أو ساط عليهم العامة تخلصا من أذاهم . وفي تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية والأندلس حوادث

متفرقة يمكن تتبعها وردها الى السياسة لا الى العاطفة الدينية ، أو رغبة المسلمين في اكرام غيرهم على الدخول في دينهم . ومن مفاخر المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خلو من القوانين الباطشة الجائرة التي حرمت العقيدة الاسلامية في أسبانيا أيام فردناند وازايلا ، وحرمت البروتستانتية في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر ، وحرمت دخول اليهود في انجلترا اربعة قرون .

ويقول السير توماس « ان بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة في الشرق الاسلامي تلك القرون الطويلة ، هو البرهان القاطع على تسامح الدول الاسلامية تسامحا عاما »

برهان قاطع على
تسامح المسلمين

لم يكن السيف اذا وسيلة الاسلام الى القلوب المغلقة كما كان السيف والاضطهاد وسيلة لانقاذ أرواح المسلمين واليهود وحتى المخالفين في المذاهب المسيحية .. وكيف يكون ذلك في قوم عاهد نبيهم القبائل المسيحية ووفى لها وكفل حرية ملكها وعقيدتها وأمن رهبانها وقساوستها؟! وقد قال القرآن الكريم فيهم « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

لقاء ودي دائم في
بلاد الاسلام بينه
وبين المسيحية

على هذا الأساس الصالح ترك الناس لضمايرهم ولهداية الله ، فنشأت واستمرت علاقة أهل الشرق بعضهم ببعض ، وستتمو على هذه القواعد ، وتبقى مثلا للذين أساءوا الى الاسلام والمسيحية من متعصبة الغرب لضيق صدورهم وعدم انصافهم ويحق لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعز وتفتخر بهذه السيرة الحميدة وأن نطالب الأقوام المتناحرة أن تهتدي بهدينا وتستنير برشدنا .

التمصب الديني
بضاعة غربية

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين - تاج
العرب والترك من بعدهم - اسلام طوائف من الصليبيين
- في الحرب الصليبية الاولى - في الحرب الثانية - رواية
راهب صليبي عن اسلام ثلاثة آلاف - القسوة الفادرة
بالاخوان - الرحمة المنفلة للأعداء - رحمة أشد قسوة من
الخيانة ! - احتكاك أفاد الصليبيين - تبادل الأسوة
الحسنة - تأثير الإعجاب بصلاح الدين - أمراء كثيرون
يسلمون - صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين - فرح
نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين - شواهد أخرى
من الشرق البعيد في العهد الأموي - سلوك كريم في كل
مكان وزمان - أساس قرآني لم يختلف باختلاف العصور -
هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون
والمسيحيون في الشرق ؟

دور من الصراع بين
المسلمين والمسيحيين

تغلّبت دعوة التوحيد على كل ماعداها ، ودارت ، بهذا البحر الأبيض
المتوسط حتى عبرت جبال البرانس الى فرنسا ، فعربت شبه الجزيرة
الايبيرية ، ثم هزمت بيزنطة ، ولفت بالجناح الشرقي حتى وصلت الى
شواطئ الأدریاتيك ، فغلّبت لغة الأتراك وأدبهم في جنوب أوروبا الشرقي
كما غلبت من قبل لغة العرب وعرفهم في جنوبها الغربي ، وحظي من حمل
لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها ، بجزء
من الله منقطع النظير ! بسطة الملك ودوامه ، واقبال الدنيا حتى اندمج
في هيئتهم ولغتهم وعصرهم من الأقوام من هم أعرق منهم في العمران
والملك وقد سبق للعرب وسبق للترك أن فتحوا ممالك ، وأقاموا دولا
من قبل أن يعرفوا محمدا ويهتدوا بهديه ، فما عظم لهم شأن ولا بقى لهم
ذكر محمود ، ولكن هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرة على الغزو والقهر
والموصوفتين بالتوحش في التاريخ القديم ، هذبتهما الرسالة المحمدية
فمَشُوا الى الأقوام المتحضرة والبادية ، يهديهم شرع واضح في كتاب كريم
وآدب عال قوامه الفضيلة ، ونظام أساسه العدل ، ودعامته خشية الله في
عباده ، فسحروا المتقدمين والمتأخرين ، ومازال الناس من الأقوام المنتصرة

تاج العرب
والترك من بعدهم

الأوربية والآسيوية والأفريقية يتمثلون بمثلها ، حتى دخلوا أفواجا في دعوتهم من غير قهر ولا أذى .

اسلام طوائف
من الصليبيين

دخلت الأمم المسيحية مستجيبة لدعوة العرب والترك طواعية واختيارا للجانب الأعز بالحق والمثل الأعلى في الأدب والفضيلة . ولعل من أظهر الأدلة على ذلك وأعجبها ، اسلام طوائف من الصليبيين الذين حشدوا من كل جنس وجيل ، وجاءوا المشرق تغلى صدورهم بالبغضاء ، وتقطر من أيديهم الدماء ، حتى ذبحوا نفس النصارى في طريقهم ممن لم ينشط لدعوتهم ، أو ممن خالف رأيهم ، أو كان على غير مذهبهم في المسيحية . هؤلاء العتاة القساة ما لبثوا أن اقتبسوا أدب أعدائهم ، فأتسعت صدورهم وتهذب تعصبهم ، وتعلموا ممن يبغضونهم التسامح ، فصار القادم عليهم مددا من الغرب ينكر ما يجدهم فيه من أدب سما على البغضاء والحقد .

في الحرب
الصليبية الأولى

بل ان كثيرا من زعماء الصليبيين وكثيرا من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين ، ارتموا في أحضان الدعوة التي غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف ، ذلك هو أعجب آثار التسامح :

في الحرب الثانية

فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينوه) أمير طوائف الجرمان واللمباردين ، وأسلم معه خلق كثير منهم ، وأسلم في الحرب الصليبية الثانية ، كما يروى السير توماس عن راهب من رهبان سنت دينس كان قسيسا في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع ، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة . واليكم ما يقوله الراهب في عبارة شائقة :

رواية راهب
عن اسلام ثلاثة
آلاف صليبي

« في طريق الصليبيين الى المقدس ، عبر جبال الأناضول ، التقوا بجيش المسلمين ، فهزم الصليبيون شر هزيمة ، وكان ذلك في الممر الجبلي « فريجيا » وذلك سنة ١١٤٨ ، ولم يصلوا الى مرمى « أضاليا » الا بشق الأنفس ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا الى أنطاكية بحرا ، وقد دفعوا مبالغ طائلة ، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحجاج ، فدفع كذلك لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يعنوا هؤلاء الضعفاء حتى يشفوا . وعلى أن يرافقهم حرس

اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم ، فما كان من اليونان الغادرين الا أن
تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين ، واتصلوا بالمسلمين الأتراك
وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى ، ممن تخلفوا من الوهن والعجز ،
ثم قعدوا ينظرون الى اخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام
المسلمين . ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعا بما أصابهم ، خرج ثلاثة
آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم ، فحصرهم المسلمون
وشدوا عليهم ، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية ، وكان حال من خرج
ومن بقى في المعسكر ليس فيه أقل رجاء ، ولم ينقذوا الا بما نزل في
قلوب المسلمين من الرحمة ، حين أطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء ،
وما أصابهم من ضراء . رقت قلوبهم وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم
الصليبيين الساكنين ، فواسوا المريض وأحسنوا للفقير ، وأطعموا المسكين
بسخاء وكرم . وبلغ من احسانهم أن بعضهم استرد بالشراء أو الحيلة
أو القهر النقود الفرنسية التي أخذها اليونان من الحجاج ، وردها
عليهم ، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين . وقد كان الفرق واضحا
بين معاملة هؤلاء الكفار - يقصد المسلمين - للحجاج المسيحيين ، ومعاملة
اليونان الذين سخروا اخوانهم في الدين ، ونهبوا أموالهم وضربوهم .
كان الفرق عظيما لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء
المنقذين ، ومن غير أن يكرهوا أو يقهروا . لقد فروا من اخوانهم في الدين
الذين أساءوا اليهم ، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الاسلامى بعد أن رجع
عنهم ودخلوا في دينه . لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة ! لقد
أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الايمان ، واحسرتاه ! لقد ارتدوا عن
المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه » .

القسوة الغادرة
بالاخاذ

الرحمة المنقذة
للأعداء

رحمة أشد قسوة
من الخيانة

احتكاك افاد
الصليبيين

ذلك ما يقوله الراهب ويقول السير توماس « لقد كان اختلاط
النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمو على مر الأيام ، وينمو معه الاحترام
والتقدير بمزايا عدوهم وفضائله ، وتزايد تقليد الفرنجة النازلين في فلسطين
للمسلمين تزايدا كان له أثر واضح على أفكارهم الدينية . وأظهر هذه
الآثار ذلك التسامح الدينى الذى أخذ يتصف به كثير من فرسان
الصليبيين وأمرائهم ، وذلك الصدر الرحب الذى أخذوا يتلقون به التعاليم

تبادل الأسوة
الحسنة

المحمدية ، حتى ان الأمير السورى (ابن منقذ) لما زار بيت المقدس أثناء بعض الهدنات كان أمير الصليبيين على المسجد الأقصى يأذن له بإقامة الصلاة في المعبد ، فعجب الصليبيون الجدد لهذه الحالة العقلية ، واحتجوا عليها ، ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوار الشرق كرهوا أن يتدخل أحد في حرية ضيقتهم الدينية ، ولم يرددهم عن هذا التسامح الذي تعلموه في الشرق حرج الكنيسة وغضبها في الغرب » . ثم قال : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية الى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا ، حتى في العهد الأول ، أى القرن الثانى عشر ، مما يلفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين .

تأثير الاعجاب
بصلاح الدين

ولقد بلغ تأثير الاعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين أن كثيرا من أمرائهم وعامتهم المعجبين به ذهب بهم هذا الاعجاب الى ترك دينهم وأهلهم والدخول في الاسلام .

امراء كثيرون
يسلمون

مثل ذلك ما فعل الزعيم الانجليزى (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حطين الفاصلة التى وقع فيها ملك القدس (جاى) أسيرا . ويقول بعض مؤرخى النصارى : ان سنة من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك . وقد وصل الأمر (بريمون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه الى الاسلام .

صليبيون يقاتلون
في صفوف
المسلمين

وحتى بعد صلاح الدين ، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقاما لسقوط بيت المقدس ، وحاصروا عكا ، وأصابتهم البأساء ، وعضهم الجوع فر كثير الى صفوف المسلمين ، فمنهم من آمن ، ومنهم من رجع الى قومه ومنهم من استمر على نصرانيته ، واختار البقاء وأن يقاتل في صفوف المسلمين . وفي هذا المعنى يقول السير (جون ماندفيل) أحد المعاصرين للصليبيين « كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عربا ، لفقرهم أو غباوتهم أو شقاوتهم » . ولا ينتظر بالطبع من صليبي كالسيرجون أن يفسر ما يسميه المسلمون بالهداية الا بالغباوة والشقاوة .

والذى يعيننا من الأمر أن الفقراء والأغنياء والضالين الذين ذكرهم السير ماندفيل ، دخلوا في الاسلام الذى جاءوا لمحوه ، مختارين ، واجتذبوا اليه بالدعوة والارشاد ، لا القهر والاضطهاد . بل ان بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين للفتح الاسلامى واسترداد بيت المقدس ، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دول الفرنجة في الشام كلها ، يشيرون الى فرح النصارى بالتححر من حكم الصليبيين . ويقول السير توماس في هذا المعنى « لقد سكنوا الى الحكم الاسلامى وادعين مستبشرين ، كما استمر الحكم المسلمون على عاداتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى » .

فرح نصارى
الشرق بزوال
حكم الصليبيين

واذا كان ماذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشد خصومها المحاربين ، وفي أحلك أيام الدولة الاسلامية ، أيام غارات الصليبين والتتر ، فان لنا شاهدا آخر من بطريق خراسان في أعز أيام الدولة الأموية العربية ، تختتم به هذا الفصل . يقول البطريق (يوساب الثالث) اليعقوبى في خطاب طويل بعث به لحبر زميل « أين أبناءؤك أيها الأب ! أين هذا الشعب العظيم شعب مرو ! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف ، ولا عذبوا بنار ، وانما أصابهم متاع الدنيا ، فارتدوا عن دينهم ، وقذفوا بأنفسهم كما يقذف المجانين في مهاوى الهلاك والكفر ، فلم ينج من هذا السعير الا قسيسان اثنان ، فرا بنفسيهما من جحيم الكفر — أى الاسلام — واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها ، ولم يقع منهم شهيدا واحد ولاضحى واحد منهم لدينه !!

شواهد أخرى
من الشرق البعيد
في العهد الاموى

أين كذلك بيع كرمان وكنائس فارس ! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير ، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذى قضى عليها . لم يكن ساحرا موهوبا أوتى المنطق وسلطة الشيطان على النفوس ، ولكنه ساحر هز رأسه فقط فخرت كنائس فارس كلها على الأرض !

سلوك كريم في
كل مكان وزمان

أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم — فانهم عندك كذلك — فلم يطعنوا في ديننا ولا اعتدوا على بيعنا ، بل بالعكس ضالعو مع ديننا وفضلوه على غيره ، وأكرموا رهباننا وقساوستنا ، واحترموا أوليائنا ،

وأحسنوا الهبات الى معابدنا . فلماذا اذا هجر أهل مرو نصرانيتهم زلفى
لهؤلاء العرب ، وهم يعلمون ويقولون ان العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم
بل أقروهم عليه كاملا ، ولم يسألوهم الا ضريبة بسيطة يؤدونها عن
أنفسهم ، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم في دين المسيح بمتاع قليل ؟ ! «

هل هناك بيان أوضح من هذا البيان عن تقاذ الدعوة المحمدية بالحجة
والتسامح الى قلوب المسيحيين ؟ لقد سقنا لك الشواهد من المشرق
والمغرب في القرن الأول ، وفي القرن السابع ، في المحاربين والمهادنين ، لقد
اختلف كل شيء ، اختلفت الأمم والقرون والظروف ، ولم يختلف الحق
الذى ساير هذه الدعوة منذ ظهورها ، والذى وضع أصله القرآن في قوله
تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

أساس قرآنى لم
يختلف باختلاف
العصور

وحق لنا نحن سلالة الأقباط العادلة المنصفة الحليمة الرحيمة في المشرق
مسلمين ومسيحيين ، أن نطمح في نهضة جديدة نكون فيها مثلا ودعاة
لحرية العقيدة وحرية الرأي في عالم ضاق صدره بالمخالفين في الرأي . لقد
كان آباؤنا حماة هذه الحرية ومثلها العليا ، فلنكن نحن ورثة هذا الصبر
عليها ، وحملة رايها في أمة ناشئة ودولة جديدة .

هل من نهضة
للحق والحرية
يقوم بها المسلمون
والمسيحيون في
المشرق ؟ !

إسلام الأوربيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا - مزاج
قاس وصدر ضيق - مفارقات بين البدو المسلمين والحضر
المسيحيين - المسيح البريء من روح التعصب الغربي -
التزعات البشرية بين اطلاق المسيحية وتقييد الاسلام -
اثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي - الحرية في فهم
القرآن لدى جميع المسلمين - والقيود في فهم الانجيل
لدى المسيحيين - الحلال والحرام كلاهما بين في الاسلام
لدى الخاصة والعامة - ادب القرآن مع المخالفين -
بساطة الدخول في الاسلام تعصم الدماء والاموال - من
تاريخ تعصب المسيحيين في اسبانيا - اضطهاد اليهود
والعبيد في اسبانيا - فرار المضطهدين الى الاسلام برغبة
- اثر تسامح الفاتحين وعدم ترفهم عن المخالطة -
استعراب واندماج - نصارى يتلون القرآن - دخول في
الاسلام حتى في وقت سقوط دولته - هزيمة العرب في
فرنسا سببت تاخر وصول الحضارة الى أوروبا ثمانية
قرون - بين وطاة المسيحيين في الغرب ورحمة المسلمين
في الشرق - سلطات وامتيازات لبطارقة المسيحيين في دولة
الأتراك - المعنى عن الأسوة الحسنة ! - هو المزاج
الغربي الدموي دائما ! - امل في رحمة الله !

تاريخ مشرف
لنا وتاريخ غير
مشرف لغيرنا

يصحب نشر الدعوة المحمدية في أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية تاريخ
جدير بالذكر الحسن ، وحقيق بفخر المسلمين ، كما يصحبه ، مع الأسف
من الناحية الأخرى ، حوادث لا حصر لها من أمثلة السوء الدالة على
ضيق صدور كثير من الأوربيين ، وعلى التجائهم في سبيل تأييد آرائهم
الدينية الى أرداد الوسائل وأنكر الأعمال !

مزاج قاس
وصدر ضيق

ومع أن الذين رفعوا راية الاسلام في الغرب من ناحية أسبانيا
وفرنسا وإيطاليا ، كانوا من العرب والبربر ، والذين رفعوها في شرق أوروبا
كانوا غالبا من الترك والتتر ، وهم أقوام اشتهرت كلها بالبأس والشدّة ،
فإن تاريخهم من ناحية نشرهم الدعوة المحمدية ، وتسامحهم الديني ، هو
أظهر ما في صفحات مجدهم وأحقها بالفخر . وذلك على عكس الأقوام
الأوربية ، فقد كان ينتظم برها وفاجرها في سلسلة الفظائع الدموية التي

اقتربت بمقاومة الدعوة المحمدية والقضاء عليها في أوروبا الغربية والشرقية في مدى مئات السنين .

ومما يصعب أن نجد له تفسيراً أن القسوة التي كانت وسيلة الأوربيين في القضاء على حضارة المسلمين ودينهم في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق أوروبا ، لم تتخلف عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضد النصارى أنفسهم كلما وقع نزاع حاد على رأى في الدين ، أو الدعوة من الدعوات المسيحية أو ضد اليهود .

وليست الأقوام الأوربية كلها جنساً واحداً ، ولا من بيئة واحدة ، ولا طبيعة واحدة ، فبينها من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بين أمم الشرق ، فماذا وحد اذن وسائلها ، وجعل الفتك والغيلة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لاعلاء دين على دين ؟

وماذا جعل أقواماً بادية كالعرب ، وأقواماً صناعتها القتال كالترك والتر والبربر ، تختار لنشر دينها الحجة والقدرة ، فلا نجد في تاريخ طويل شمل المشرق والمغرب أكثر من ألف سنة حوادث دموية تشبه عن قرب أو بعد ، تلك الفظائع الساحقة التي تكرر على مر الزمن ، على أيدي الأوربيين في أنفسهم ، أو مع أهل الملل الأخرى ؟ !

مفارقات بين
البدو المسلمين
والعصر
المسيحيين

لا نجد لذلك تفسيراً يجزم به ، فالسيد المسيح ، عليه السلام ، هو ضحية العنف (١) ، ومن خير من دعا الى المعروف والسلام ، ودعوته تحرم الحرب والقتل تحريماً قاطعاً ، فليس دين المسيح هو الذى بث روح التعصب الممقوت ، ولا هو الذى حول مزاج الغريبيين الى مزاج سفاح ...

المسيح البريء
من روح
التعصب الغربى

أما الدين الاسلامى فقد أباح القتال ، وظهرت دعوته في العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التي لم تقف في وجهها شاهقات الهملايا ، ولا شاهقات الأطلس والبرانس والبلقان ، فلماذا كان أصحابه أكثر الناس تسامحاً مع رعاياهم من أهل الأديان ، وأوسعهم صدراً للملل والنحل ؟ !

النزعات البشرية
القاسية بين
اطلاق المسيحية
وتقييد الاسلام

(١) في رأى النصارى انفسهم .

أثر تركيز الدين
في النظام
الكهنوتي

لعل السبب بينهما ناشئ من اختلاف النظم الدينية ، فان للمسيحيين نظاما اكثريا ، أو بعبارة أخرى كهنوتيا جعل عليهم قواما من طوائف رجال الدين .

الحرية في فهم
القرآن لدى
المسلمين والقيود
في فهم الانجيل
لدى المسيحيين

وكذلك لم تكن المسيحية واضحة في شئون الدنيا ، فتسلطت النزعة البشرية . أما الاسلام فحرم هذه القوامة ، ولم يسمح بصلة بين العبد وربّه غير صلة الضمير ، وكانت أوامره ونواهيه في شئون الدنيا جليلة . فلعل سيطرة العنصر البشرى على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرق الهائل في مزاج الأقوام الديني الذي نشهد مظاهره طول الدهر وفي كل مكان .

الحلال والحرام
بين في الاسلام
لدى الخاصة
والعامة

وأیضا كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين ، مما جعل كلا من الحلال والحرام بينا في كتاب مبین . فالخاصة والعامة الذين يعلمون ان الله قد حرم عليهم الاكراه في الدين ، ويعملون أنه يقول لنبيه « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » بل ان الدين الذي حرم على أهله سب الأديان الأخرى لا يدع سبيلا للاضطهاد والظلم . يقول تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . »

بساطة الدخول
في الاسلام تعصم
الدماء والأموال

لعل كذلك من أسباب تكون هذا المزاج المتسامح بساطة العقيدة المحمدية ، فانها تقوم على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله ، وأن هاتين الكلمتين تعصم الدماء والأموال . فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا ما وراء ذلك لحساب الله ، تعودوا التسامح وسعة الصدر ، بعضهم مع بعض ، ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى .

قد تكون هذه الأسباب ، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهري بين مزاج المسلمين ومزاج الأوربيين الديني . وليس هذا مقام سرد تاريخ طويل لبيان ما نشير اليه من خلاف ، فهو هين على من أراد أن يتبين الحق ، ولكن قد يحسن سوق بعض الشواهد :

من تاريخ تعصب
المسيحيين في
اسبانيا

لما دخل العرب الى اسبانيا كان مجمع طليطلة السادس قد قرر أن

يقسم الملوك عند تولي سلطتهم أن لا يطبقوا في ملكهم من لا يتنزه بمذهب الكاثوليك ، وأن ينفذوا القانون بكل شدة على من يخالف . وكان من ضمن هذه القوانين السجن المؤبد مع مصادرة الملك لكل من يفكر في مناقشة أوامر الكنيسة ، وتعاليم الكثلكة . ويقول (بودثين) « كان للاكليروس السيطرة التامة على شئون الدولة ، ففضلا على ما للأساقفة من رأى نافذ في جميع مجالس الحكم ، قد كان لهم حق التصديق على انتخاب الملك وحق خلعه اذا خالف ما يرسمون من قوانين . ولقد اتخذ الاكليروس من سلطانه سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصرا مهما في اسبانيا » ويقول (هلفريخ) « ان أوامر وحشية صدرت لتعميد من يأبى الارتداد عن دينه من اليهود ، فلما وصل العرب تلقاهم اليهود بالترحيب الذي يستحقه المنقذون ، وكذلك فرح العبيد المنتصرون لقدم العرب فرحا شديدا ، فأخذ المضطهدون يدخلون في دين العرب أفواجا ، بل أخذ النبلاء والعامّة يقبلون على الدعوة الجديدة الحرة ، ويقول السير توماس أرنولد . « لقد أصبحت الطوائف الكثيرة التي اعتنقت الدين الاسلامي مختارة ، من أشد أنصاره تحمسا وأظهرها زهدا ، فكافوا يمثلون الطهر والتقشف ، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العربية التي مالت للترف واضحا » .

اضطهاد اليهود
في اسبانيا

فرار المضطهدين
الى الاسلام
برغبة

ولم يسمع في أيام الفتح العربي بأية محاولة من الفاتحين للاكراه في الدين ، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة . ولعل السبب الأول في امتلاكهم السريع لهذا الجزء من غرب أوربا هو سعة الصدر والتسامح الذي كان ديدنهم . كما أن تسامح الحكام بما أباحوا من الحرية الدينية للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم ، أدى الى تعريب واسع للعناصر المسيحية ، فاتخذ كثيرون من النصارى أسماء عربية ، وتختنوا كجيرانهم المسلمين . وتسمية المسيحيين الذين في حكم العرب بكلمة Muzarabe أي مستعرب ، تشير الى الاتجاه الذي اتجهت اليه جماعتهم ولقد بلغ من اعجاب النصارى المستعربين بلغة القرآن أن صاروا يتلونه ويعجبون به ، بل لقد بلغ أثر هذه الدعوة الى رؤساء الكنيسة نفسها ،

تسامح الفاتحين
وعدم ترفعهم
عن المخالطة

استعراب
واندماج

نصارى يقرءون
القرآن

فتلحقت أفكارهم في أسبانيا وخارجها بالنظريات الاسلامية . كل ذلك يفسر لنا ما كان للمثل والقذوة مع نشاط الدعوة من الأثر في خروج المسيحيين عن دينهم ، حتى صارت الأكثرية الكبيرة للاسلام في زمن قصير .

دخول في
الاسلام حتى
في وقت سقوط
دولته

وقد بلغ من أثر القذوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيين لم ينقطعوا عن الدخول في الاسلام ، حتى وأهله يرسفون في المظالم الوحشية ، فيشردون ويقتلون ويهجرون من أوطانهم . ومن أغرب ما روى في ذلك ما ذكره (سترلنج ماكسويل) عن حوادث ١٤٩٩ ، أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين ، فقد أشار الى مسلمين جدد دخلوا في الاسلام وهاجروا في جموع الفارين من السيف والنار .

وليس المقام مقام تفصيل ، وإنما أردنا الاستشهاد لسيرة كريمة معترف بها من جمهور المسيحيين عن حكم العرب في غرب أوربا ، وما تمتع الناس به من حرية العقيدة ، وما كسبوا من علم وعرفان وحضارة في ظل الآداب والأوامر والنواهي الاسلامية . ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة أن أحد المؤرخين قال عند ذكر واقعة « بواتيه » التي قتل فيها (عبد الرحمن الغافقي) وفازت جيوش (كارل مارتل) على العرب في غرب فرنسا : « لقد كانت هزيمة العرب سببا في تأخر وصول الحضارة لأوربا ثمانية قرون ! » .

هزيمة العرب في
فرنسا سببت
تأخر وصول
الحضارة الى أوربا
ثمانية قرون

بين وفاة
المسيحيين في
الغرب ورحمة
المسلمين في الشرق

فازت جيوش الهمج من الأوربيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة ، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزا ساحقا في القرن الخامس عشر ، فقضوا على العرفان والحضارة . وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق الى المذبحة أو الى البحر رسل الحضارة في الغرب ، وتخلي أوطانا بأكملها ، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويمحي أثر مائتي ألف مسلم بها ، وجلهم من أهل اسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحا وطردا وتشريدا ، كانت جيوش الاسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوربية الشرقية ، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة ، وينعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان .

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين ، ومبعث العواصف على الأوطان الاسلامية مدة ثمانى قرون ، فما استبيحت الحرمات الدينية ، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان ، ولا طرد الناس من أوطانهم وحوسبوا على نياتهم وضماؤهم .

سلطات
وامتيازات
للمسيحيين في
دولة الاتراك

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين : فرتزر ، وفنلى ، وبتزيوس ، ودهسون ، كما لخصه أرنولد : — « كانت أولى الخطوات التى اتخذها (محمد الثانى) بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية ، ومنع منعا باتا اضطهاد النصارى ، وصدرت الارادة السنية بأن يكون للبطريق والأساقفة فى النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التى كانت لهم فى النظام السابق للفتح وأستلم البطريق (جناديوس) من يد السلطان الأداة التى كانت شارة ولايته ، ومعه ألف قطعة من الذهب وحصان مطهم بعدة فاخرة ليركبه فى موكبه فى المدينة . ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التى كانت له فى عهد الأمبراطور المسيحى فحسب ، بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين ، فكان مجلس قضاء البطيريقية هو الذى يفصل فى منازعات المسيحيين ويقضى بالغرامة والحبس والقتل ، وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضى به مجلس البطيريقية . فكان للبطريق السلطة المطلقة فى الشئون الروحية ، ولم تتدخل قط فى هذه الشئون السلطات المدنية الاسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية ، قبل الفتح . ولما كان البطريق معتبرا من كبار رجال الدولة فى نظر السلطان ، ومعترفا به ، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذى يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطان ، وكان للأساقفة فى الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريق فى العاصمة حتى انتهى الأمر الى أن صاروا فى مناطق سلطانهم الدينى كأنهم مأمورو الدولة وولاتها ، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التى انقضت بسقوط دولتها » .

ذلك ما فعل المسلمون فى المشرق ، وقد سقطت غرناطة للأسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة ، فهل كان للفرنجة فيما فعل

العمى عن
الأسوة الحسنة

المسلمون أسوة ؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المنقطع النظر ، ما يوجههم وجهة الانصاف والرحمة ، فلم لم تكن لهم عظة فيما بين أعينهم من مثل عال ؟ كان ذلك كما قلنا سابقا ، لأسباب عدة أشرنا الى بعضها ، وقد يستطيع غيرنا أن يبين أسبابا أخرى . وهى فى نظرى ليست فى طبيعة الدين المسيحى ، فان سيدنا عيسى ما جاء الا رحمة للعالمين.

وإذا كانت كل حوادث التاريخ تشير الى أن المزاج الغربى يجنح دائما الى القهر والتدخل فى شئون الغير الروحية والمعنوية تدخلا ينتهى بالمظالم والاسراف فى سفك الدماء ، فليس من الغريب أن نرى فى الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المزاج صورا من الماضى ، وقد حل النزاع الأيديولوجى (الفكرى) فى هذا القرن محل النزاع الدينى فى القرون الوسطى .

« وبعد » فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائما برحمة الله وتترقب هداة اذا اشتدت الكروب والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ، ويلطف من حدة المزاج الغربى ، حتى يؤمن بالاخوة الانسانية ويعمل لخدمة السلام العام باخلاص نية وحسن توجه ، بما مكن الله له فى الأرض ؟

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه . « ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

فهرس الكتاب

[illegible]

١ - في أصول الدعوة

١١ **تمهيد**

تاريخ يتصل ١١ - شهادة الزمان والتجربة ١٢ - حق من السماء أو من الأرض ١٢

١٥ **الاعامتان**

١٧ **الايان بالله الواحد**

اصل الأصول ١٧ - الدين فطرى ١٨ - البحث عن الله ١٨
قصة اله بشرى ١٩ - التوحيد اعظم اسس الدعوة
المحمدية ٢٠ - التسامح هو سبيل الى الوحدة العالمية ٢١ -
دين واحد وامة واحد ٢١

٢٢ **آثار التوحيد**

التوحيد روح الدين ٢٣ - هو أساس الانتساب والاعتبار
الشخصى ٢٣ - الشرك سبب لاهدار كرامة المشرك
وشخصيته ٢٤ - أخوة عامة فى الله ٢٤ - الشرك طارىء على
الفطرة ٢٥ - وكر الخرافات والأباطيل ٢٥ - باعث الظلم
والاستبداد ٢٥ - آثار التوحيد فى تركية النفس ٢٦ -
التوحيد سر حكومة الوجدان ٢٧ - التلازم بين التوحيد
وصلاح الفكر والحياة ٢٨ - آثار التوحيد فى تحرير العقل
وسمو الحضارة ٢٩ - لا احتجاج بالواقع السيئ ٣٠

٣١ **الاحسان**

رديف الايمان ٣١ - تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها ٣١
- أثر سريع لتطبيق نظم الاحسان ٣١ - الرحمة والأخاء أساس
الاحسان ٣٢ - دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك ٣٤ - أمثال

شعبية تشهد لهم ٣٤ - أثرهم في زوال عهد الاقطاع من ارض
الملداف والبولونيين ٣٥ - موقف عظيم لشيخ الاسلام في عهد
السلطان سليم ٣٥ - رحمة الحيوان ٣٦ حكايات عن
الرحمة ٣٧

الاخاء ... ٣٩

آية هي دستور الاخاء البشرى ٣٩ - تصوير عجيب لموقع البر
لدى الله ٣٩ - تهديد شديد لذوى القسوة والبخل ٤٠ -
قدماء العرب وفهم الاخاء والمساواة ٤٠ - اخاء شامل بين
المسلمين وأهل الكتاب ٤١ - الاخاء معجزة الاسلام ٤٢ - بقايا
الاخاء في العالم الاسلامى ٤٢ - ذكرى اخاء في البانيا ٤٣ -
اخاء ليس له نظير ٤٤

٢ - فى الاصلاح الاجتماعى

التطهير الخلقى للفرد ... ٤٧

نموذج الانسان الكامل ٤٧ - اثر القدوة العملية ٤٨ - العقيدة
واثرها فى التوجيه للخير ٤٨ - سليمان بن عبد الملك
وأبو حازم ٤٩ - التاجر الناصح الزاهد ٥٠ - نظرة عمرية
لحقيقة الصلاح ٥١

التكافل ... ٥٣

أمة واحدة ٥٣ - جماعة المسلمين تقوم على التكافل ٥٣ -
مسئولية الفرد والجماعة ٥٣ - ايقاظ ضمير الفرد وضمير
الجماعة ٥٤ - حراسة الراى العام ٥٥ - عزائم الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ٥٥ - العلاج بالتشريع ٥٧ - مرد الاصلاح
عامة الى الاحسان ٥٧ - تكافل المهاجرين والانصار ٥٨ - مثل
من التكافل فى قبائل الطوارق ٥٩

البر ... ٦١

كلمة جامعة ٦١ - نظرة الاسلام الى مشكلة الفقر ٦٢ -
الفقر لعلة والفقر لفقد الوسيلة ٦٢ - العمل هو الأصل ٦٢ -
مطاردة الترف والبؤس ٦٢ - القانون والضمير ٦٣ - اشتراكية
أبى ذر ٦٣ - محاربة الترف والاكتناز والربا ٦٣ - سلطات
واسعة لولى الأمر ٦٤ - المساواة عقيدة وخلق ونظام ٦٥ -
الأشكال والمظاهر ليست غاية فى الحكم ٦٦ - حق الفقير
حق الله ٦٧ - البر بغير المسلمين ٦٨ - فلننظم البر على
أسس الاسلام ٦٨

العدالة والحريّة ٧١

صور جاهلية ٧١ - العالم بين الفرس والرومان ٧١ - تحطيم القيود وإزالة الفوارق ٧٢ - مبادئ في السياسة وعقائد في الدين ٧٣ خليفة يبيع في الأسواق ٧٣ - خليفة يلبس المرقع ٧٣ - فجر العدالة الدولية ٧٤ - ميزان الشريعة ٧٥ - كفالة الحريات ٧٥ - الدفاع عن الحريات ٧٦

٣ - في العلاقات الدولية

الدولة الإسلامية الأولى وعلاقتها ٨١

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للإسلام ٨١ - أول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشرّكين ٨٢ - دستور الدولة الحمديّة ٨٧ - نموذج قديم لعصبة الأمم ٨٧ - الإذن بالحرب الدفاعية ٨٧ - حرب للأغراض السامية ٨٨ - تنظيم علاقات الشرّ خير ٨٩

الحرب المشروعة ٩١

تحديد أسباب الحرب وأغراضها ٩١ - الحرب الدفاعية هي المباحة ٩٢ - وصايا وتحميس إذا وقعت الحرب ٩٢ - الإسلام دين عملي ٩٣ - فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة ٩٤ - الحرب الهجومية لا يسمحها الإسلام ٩٥ - الحرب لأغراض مادية غير مشروعة ٩٥ - ضرورة تقدر بقدرها ٩٥ - الضعف والذل ظلم للنفس ٩٦

الحرب لنصرة المظلوم ٩٧

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام ٩٧ - قصة حلف الفضول ٩٧ - حلف مرغوب فيه دائماً ٩٨ - لا تحالف في الأثم والعدوان ٩٨ - حرب أخرى مشروعة ٩٩ - حلف جاهلي آخر يجدد بروح إسلامية ٩٩ - المسيحية والحرب ١.١ - اختلاف المسيحيين ١.١ الحرب العادلة عند بعض المسيحيين ١.٢ - لجوء المسيحيين إلى شبهة بالنظرية الإسلامية ١.٢ - نصرة المظلوم ضرب من التكافل ١.٣

أدب الحرب ١.٥

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجياً ١.٥ - أدب عام وأدب خاص ١.٦ - الإنذار ١.٦ - حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو ١.٦ - من سماحة الفقهاء ١.٧ - لطيفة بين واصل بن عطاء والخوارج ١.٧ - مسألة غير المحاربين ١.٨ - الفارات العصرية على الأمنين ١.٩ - فرار إلى أخلاق الرحمة في

الأديان ١٠٩ - التخريب القاسى ١١٠ - حوادث ونصوص
١١٠ - نظرات فى أحكام الأسر والاسترقاق ١١١ - حادثة
بنى قريظة وغموض بعض ظروفها ١١١ - لا قتل لعله الشرك
أو الكفر وحدها ١١٢ - أدلة العقل ١١٢ - أدلة التاريخ ١١٢ -
احترام النفس البشرية بدون تخصيص ١١٣ - آداب أخرى
للحرب ١١٣

السلام الدائمة ١١٥

السلام دائمة والحرب طارئة ١١٥ - دفع تهم وأوهام ١١٥ -
أسباب اضطراب السلام ١١٦ - نصوص فى تدعيم حياة
السلام ١١٦ - روح سلمية واحدة فى مكة والمدينة ١١٨ -
شهادة الأجانب ١١٩ - شهادة التاريخ ١١٩

المهود والمواثيق ١٢١

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له ١٢١ - رأى فى مسألة التخيير
بين الاسلام أو الجزية أو السيف ١٢٢ - السلم بين المؤمنين
١٢٣ - الاسلام وطن المسلم ١٢٣ - لا اقليمية فى الاسلام ١٢٣
- عالمية شاملة ١٢٤ - يسعى بدمتهم أديانهم ١٢٤ - أخوة
الذمة والعهد ١٢٤ - حقوق الذمى وواجباته ١٢٤ - غنمه
أكثر من غرمه ١٢٥ - بين الذمة الاسلامية ونظام الحماية
الحديثة ١٢٥ - الاستعمار الحديث لا يعرفه الاسلام ١٢٦ -
كفالة الله وشهادته على المهود ١٢٦ - الذمى فى كفالة الاسلام
أينما كان فى بلد اسلامى ١٢٦ - عهود الأمان وتبادل المنافع
١٢٧ - من وصايا الراشدين ١٢٧ - الى الأخوة والوفاء ١٢٧
- حق واحد للغالب ١٢٨ - موجبات الصلح ١٢٩ - من
حرب ١٨٧٠ الى حرب ١٩٣٩ ، ١٢٩ - حرمة العهد فوق
صلة الدين ١٣٠ - عبد يعاهد وخليفة يقر عهده ١٣٠ - امرأة
تجير والرسول يقر جوارها ١٣٠ - كرامة الفرد ١٣٠ - مثل
رائع لاحترام كلمة لم تكتب ١٣١ - متى يجوز نقض العهد ١٣٢

٤ - فى أسباب الاضطراب العالمى

الاستعمار ١٣٥

اثارة الرغبة فى بحث شامل ١٣٥ - مقاتلون ومحايدون ١٣٥ -
الأسباب الأساسية للاضطراب ١٣٦ - الاستعمار أو الخراب
١٣٧ - فرائسه هى فرسانه ١٣٧ - الاستعمار سراب ١٣٧ -
سبب الحروب فى القرنين الأخيرين ١٣٧ - شر على الغالب
١٣٧ - شر على المغلوب ١٣٨ - آثاره فى الغرب ١٣٨ - وفى
الشرق ١٣٨ - محاولات لالتماس المخرج ١٣٨ - التضحية
بالاستعمار لنجاة الحضارة ١٣٩ - الدعوة المحمدية تنكره
١٣٩ - لا حجة على الاسلام الا من نصوصه وسننه ١٣٩

نزاع الطبقات ... ١٤١

التفاوت قديما وحديثا ١٤١ - امثلة من التاريخ العالمى
 ١٤٢ - التعقيد العصرى فى المذاهب والدعوات ١٤٢ - من
 آثار البخار والكهرباء ١٤٣ - الرأسمالية والعمالية ١٤٣ -
 فى الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية ١٤٤ -
 البساطة الاسلامية فى معالجة مشكلات المال - المبدأ ثابت
 والتنفيذ مرن ١٤٥ - الشرع مع المصلحة ١٤٥ - مثلان رائعان
 من حرية تصرف الدولة حسب الظروف ١٤٦ - اكبر مهام
 الدولة ١٤٧ - لا خصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله
 ١٤٧ - الايمان هو الحارس الاول على المصلحة ١٤٨ - الزام
 السلطان بمنع نزاع الطبقات وبالتأمين الاجتماعى ١٤٩ -
 العنصر الروحى التهذيبى ١٥٠ - محاربة الترف والبذخ
 ١٥١ - الرسول الزاهد ١٥١ - المتاع الروحى ابقى ١٥٢ -
 جمع بين الوجدان والسيف ١٥٢

النزعات العنصرية والوطنية ... ١٥٣

العنصرية قديما وحديثا ١٥٣ - الوطنية والقومية الحادة
 عصبية حديثة ١٥٤ - أثر التشدد فى الحدود الجغرافية
 والجنسية ١٥٤ - انتقال العصبية الحادة الى الشرق ١٥٥ -
 نظريات اختلاف الدم ١٥٦ - أضرار الهجرة الاجبارية
 ١٥٦ - بارود الحروب الحديثة ١٥٦ - الاسلام لا يعرف
 وثنية العنصر والوطن ١٥٦ - وضع العلاقات البشرية على
 أساس معنى ١٥٧ - خلاف اخف من خلاف ١٥٧ - القوة
 ليست وسيلة الاسلام لتحقيق اهدافه ١٥٨ - لا سيادة
 ولا عبودية ١٥٨

هزيمة القوى المعنوية ... ١٥٩

السيطرة على المادة واثرها فى طفيان المادية ١٥٩ - سرعة
 التطور المادى وبطء التطور الروحى ١٦٠ - تباعد الفروق
 بين الناس تبعا لحفظهم من العلم المادى ١٦٠ - بلبله وشتات
 وتناكر ١٦١ - ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة ١٦١
 - نعم تستحيل الى نعم ١٦٢ - جرائم ترتكب باسم الحريات
 ١٦٢ - لابد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى ١٦٢ -
 توفيق الاسلام بين الحياتين ١٦٣ - مدينتنا تتحطم مرتين فى
 ربع قرن ١٦٣ - اتعمير للتخريب ؟ ١٦٣ - فلنرجع الى
 منابع الهدى والرحمة فى الاديان ١٦٤ - تصوير للحرب تسخر
 منه العقول ١٦٤ - أجهالات فى مكان الكمالات ؟ ١٦٥ - افلح
 من زكاها ١٦٥

ثالث الفساد ١٦٧

آثار الثالث في حياة الأفراد ١٦٧ - فلسفة سياسية خطيرة
 ١٦٧ - آية قرآنية يفخر بها المسلمون ١٦٨ - تشبيه بليغ
 ١٦٨ - نصوص وحوادث ١٦٨ - الفدر غير الخدعة في
 الحرب ١٦٩ - قبح الفدر حتى بين الأشقياء ١٧٠ - الله
 لا يهدي كيد الخائنين ١٧٠ - الكذب والنفاق في السياسة
 ١٧٠ - الميكافلية ينكرها الاسلام ١٧١ - سياسة الوضوح
 ١٧١ - صفتان أدنا من الكفر ١٧١ - أسماء على غير
 مسمياتها ١٧٢

٥ - في البحث عن سند روى الحضارة**الوصاية على الحضارة للأقوى أم للأتقى ؟ ١٧٥**

الشعلة المتحركة بين الأجناس ١٧٥ - قصور (علم الانسان)
 ١٧٥ - أدوار الحضارة ومن مثلوها ١٧٦ - من (علم
 الانسان) ١٧٧ - الفروق البدنية لا تكيف الحضارة ١٧٧ -
 المدنية ليست اختصاصا لقوم وحدهم ١٧٨ - هي اثر للحالات
 النفسية ١٧٨ - قانون قرآنى ١٧٨ - مساواة تامة بين الأرواح
 البشرية ١٧٩ - وحدة التكليف الدينى ومفزاها ١٧٩ -
 دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت ١٧٩ - ميراث النفس
 الطيبة ١٧٩

قيام المدنية ودوامها ١٨١

مداولة الأيام بين الناس ١٨١ - التفسير المادى للتاريخ ١٨١
 - التفسير العنصرى للتاريخ ١٨٢ - مناقشة التفسيرين
 ١٨٢ - التفسير الروحى ١٨٣ - من القرآن ١٨٣ - بارود
 القذيفة ١٨٤ - ساعة الفصل بين التقدم والتأخر ١٨٤ -
 نظرة تشاؤم الى المدنية الحاضرة ١٨٤ - بين المدنية والحق
 ١٨٤ - الانهيار الفجائى ١٨٤ - عوامل فناء المدنات ١٨٥ -
 الترف ١٨٥ - الضعف عن حمل أمانات الحضارة ١٨٥ - هل
 جاء وعد الله ؟ ١٨٦

نظام جديد للعالم ١٨٧

صوت مع أصوات الدعاة ١٨٧ - فللنتحرر من النظريات
 القديمة ١٨٧ - المدنية فى رأى (كبلج) ١٨٨ - وطأة العيش
 فى عصور الانتقال ١٨٨ - هل نستطيع نحن وضع نظام
 للمستقبل ؟ ١٨٩ - ماذا بين أب جاهل وابن عالم ؟ ١٨٩ -
 بين جاهل معاصر وجده الفرعونى ١٨٩ - لنحذر عقوبة

الغرور ١٩٠ - الى نظام سلبي مؤقت ١٩٠ - لا أمل في شيوخ
الساسة والعامة . الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة
الانسانية ١٩٠ - فلنؤجل النظم المثالية المجردة ١٩١ - من
تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيئ ١٩١

الواجب قبل الحق ١٩٣

شغل المفكرين في العالم ١٩٣ - جمعية انجليزية تضع دستوراً
لحقوق الانسان ١٩٣ - استفتاء عظيمين من مفكرى الشرق
١٩٣ رأى غاندى ١٩٤ - رأى نهرو ١٩٤ مع غاندى ١٩٥ -
فلنجرب طريقة غاندى ١٩٥ - طريقة مجربة في الاصلاح ١٩٥
- تحويل التصور البشرى ١٩٦ - اعلاء الغرائز وتحويلها
١٩٧ - تربية يطرد بها روح الأديان ١٩٧

علل النظام الحالى ١٩٩

اجماع على فساد الرأسمالية ١٩٩ - خطر رأسمالية الآلة
الآلات بركات كثيرة اللعنات ١٩٩ - مادية لا سند لها من الروح
٢٠٠ مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية ٢٠٠ - رجال الكنيسة
الانجيلية يتحولون الى اليسار ٢٠٠ - الى التوازن الاسلامى
٢٠١ الاستعمار الحديث ٢٠١ - ويلات عالمية ٢٠١ - شاهد
حق ٢٠١ شاهد من العالم الجديد ٢٠٢

مقترحات ٢٠٥

البدء بتقرير قواعد بسيطة ٢٠٥ - تطور الرأسمالية والاستعمار
واجب ٢٠٥ - هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة ٢٠٥ - التدرج
الى حكومة عالمية ٢٠٦ - البدء في قلوب الطفولة ٢٠٦ - من
التربية القومية الى التربية العالمية ٢٠٦ - التدريب على
الغضب للمصلحة العالمية ٢٠٧ - فلنتمهد النواة الصالحة في
هيئة الأمم المتحدة ٢٠٧

٦ - في النظام الاساسى للدولة الاسلامية ٢٠٩

بعض أسس الدولة الاسلامية : الإمامة ، الشورى ، السيادة ... ٢١١

دلالة الفقه الاسلامى ٢١١ - المبادئ العامة محدودة وقاطعة -
من هم اهل الشورى ٢١١ - المجمع عليه في الإمامة ٢١١ -
تجربة العصور ٢١١ - الأصول المقررة في رئاسة الدولة
الاسلامية ٢١١ - مفهوم السيادة في الاسلام ٢١١ - صورة
لا نظير لها ٢١١ - حدود سلطة الأمة ٢١١ - لا سند لما ينقض
العدل والحق ٢١١

٧ - في انتشار الدعوة

انتشار الدعوة في الوثنيين ٢٢٥

شهرة باطلة ٢٢٥ - خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة

٢٢٥ - فتح مكة بجيش المطرودين ٢٢٥ - الدعوة السرية والجهرية ٢٢٦ - مشروعية الدفاع عن النفس ٢٢٧ - الموقف في الحديبية يشهد ٢٢٧ - تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة ٢٢٧ - الموقف في خارج الجزيرة ٢٢٧ - رواية الكولونيل بيك ٢٢٨ - فتنة واعتداء ٢٢٨ - تجمع وتهديد ٢٢٨ - مع الروم في شرق الأردن (مؤتة) ٢٢٨ - دليل فذ من أدلة التسامح الاسلامي ٢٢٩ - فتح مكة ٢٣٠ - لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها ٢٣٠ - الغرض من فتحها ٢٣١ - صورة من التسامح المحمدي ٢٣١ - دليل على انهيار النظام الجاهلي ٢٣١ - الفتح السلمي قبل الفتح الحربي ٢٣١ - دليل من اسلام ابي سفيان زعيم المشركين ٢٣٢ - الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها على الرسول ٢٣٢ - الخدمة الوحيدة التي اداها السيف للاسلام ٢٣٢ - ايباع الدين بدراهم معدودات ٢٣٣ - مفارقات ٢٣٣ - ما بعث الله محمدا جاييا ٢٣٣ - قصة تكشف عن روح عصرها ٢٣٣

انتشار الدعوة في الأمم المسيحية ٢٣٥

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار ٢٣٥ - موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة ٢٣٦ - موجة فذة في التاريخ ٢٣٦ - في ساحة المسيحية ٢٣٦ - شهادة السير توماس أرنولد ٢٣٦ - انتشار المسيحية في ظلال الاسلام ٢٣٧ - تحاكم المسيحيين الى عدالة المسلمين ٢٣٧ - فرض مرفوض ٢٣٧ - الوزراء والولاة المسيحيون في دولة الاسلام ٢٣٧ - مراسم المسيحية في قصر الخلافة الاسلامية ٢٣٧ - الكنائس تشاد في رعاية الاسلام ٢٣٨ - العرب المسيحيون يحاربون مع اخوانهم المسلمين ٢٣٨ - بطولة عربي نصراني في واقعة البويب ٢٣٨ - لم يكن السيف من اسباب دخول المسيحيين في الاسلام ٢٣٩ - وقائع اضطهاد هي استثناء يثبت القاعدة ٢٣٩ - السياسة والحسد الاجتماعي لا الدين ٢٣٩ - برهان قاطع على تسامح المسلمين ٢٤٠ - لقاء ودي دائم في بلاد الاسلام بينه وبين المسيحية ٢٤٠ - التعصب الديني بضاعة غريبة ٢٤٠

اسلام الصليبيين ٢٤١

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين ٢٤١ - تاج العرب والترك من بعدهم ٢٤١ - اسلام طوائف من الصليبيين ٢٤٢ - في الحرب الصليبية الاولى ٢٤٢ - في الحرب الثانية ٢٤٢ - رواية راهب عن اسلام ثلاثة آلاف صليبي ٢٤٢ - القسوة الفادرة بالاخاء ٢٤٣ - الرحمة المنقذة للأعداء ٢٤٣ - رحمة اشد قسوة من الخيانة ٢٤٣ - احتكاك افاد الصليبيين

٢٤٣ - تبادل الأسوة الحسنة ٢٤٤ - تأثير الاعجاب
 بصلاح الدين ٢٤٤ - أمراء كثيرون يسلمون ٢٤٤ - صليبيون
 يقاتلون في صفوف المسلمين ٢٤٤ - فرح نصارى الشرق
 بزوال حكم الصليبيين ٢٤٥ - شواهد أخرى من الشرق
 البعيد في العهد الأموي ٢٤٥ - سلوك كريم في كل مكان وزمان
 ٢٤٥ - أساس قرآني لم يختلف باختلاف العصور ٢٤٦ -
 هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون
 في الشرق ؟ ٢٤٦

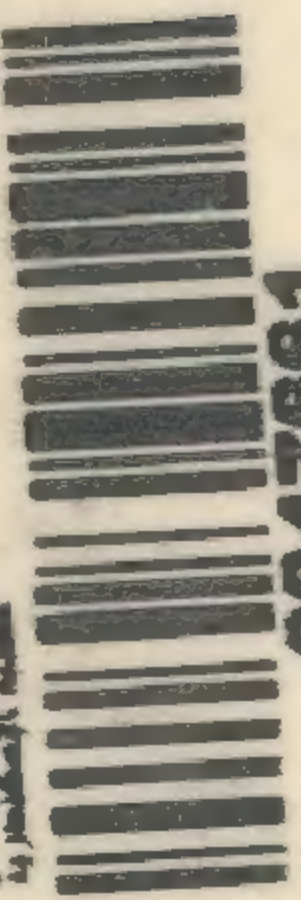
اسلام الأوروبيين ... ٢٤٧

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا ٢٤٧ - مزاج قاس
 وصدر ضيق ٢٤٧ - مفارقات بين البدو المسلمين والحضر
 المسيحيين ٢٤٨ - المسيح البريء من روح التعصب القوي
 ٢٤٨ - النزعات البشرية القاسية بين اطلاق المسيحية وتقييد
 الاسلام ٢٤٨ - اثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي ٢٤٩ -
 الحرية في فهم القرآن لدى المسلمين والقيود في فهم الانجيل
 لدى المسيحيين ٢٤٩ - الحلال والحرام بين في الاسلام لدى
 الخاصة والعامة ٢٤٩ - ادب القرآن مع المخالفين ٢٤٩ -
 بساطة الدخول في الاسلام تعصم الدماء والأموال ٢٤٨ - من
 تاريخ تعصب المسيحيين في اسبانيا ٢٤٩ - اضطهاد اليهود
 في اسبانيا ٢٥٠ - فرار المضطهدين الى الاسلام برغبة ٢٥٠ -
 تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطة ٢٥٠ - استعراب
 واندماج ٢٥٠ - نصارى يقرءون القرآن ٢٥٠ - دخول في
 الاسلام حتى في وقت سقوط دولته ٢٥١ - هزيمة العرب في
 اسبانيا سببت تأخر وصول الحضارة الى أوروبا ثمانية قرون
 ٢٥١ - بين وطأة المسيحيين في الغرب ورحمة المسلمين في
 الشرق ٢٥١ - سلطات وامتيازات للمسيحيين في دولة الأتراك
 ٢٥٢ - العمى عن الأسوة الحسنة ٢٥٢ - هو المزاج الغربي
 الدموي دائما ٢٥٣ - أمل في رحمة الله ٢٥٣





Bibliotheca Alexandrina



0247661

الإشهاد الاشتراكي العربي
دار ومطابع الشعب